حضرة عنايت خان

ترجمة: إبراهيم استنبولي

تعاليم المتصوفين

علي مولا

تعاليم المتصوفين

عنوان الكتاب : تعاليم المتصوفين
اسم المؤلف : حضرة عنايات خان Hazrat Inayat Khan
ترجمة : د. ابراهيم استنبولي
الناشر : دار الفرقد
الطبعة الأولى : كانون الأول 2006
الطبعة الثانية : تموز 2008

التنفيذ والإشراف : دار الفرقد
الإخراج الفني : رغداء حلوم
تصميم الغلاف : اسماعيل سويلم

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق
هاتف : 6660915 - 6618303 (00963-11)
ص . ب : 34312 فاكس: 6660915 (00963-11)
البريد الإلكتروني : info@alfarqad.com
الموقع على شبكة الإنترنت : http://www.alfarqad.com

حضرة عنايات خان

تعاليم المتصوفين

ترجمة: د. ابراهيم استنبولي

دراســة

Hazrat Inayat Khan
1882-1927

الإهداء

إلى

من يبعث الصفاء

في روحي باستمرار...

زوجتي سهام

وابني شيراز

تمهيد

حضرة عنايت خان – واحد من أهم ممثلي وأتباع التقاليد الروحية في المدرسة الصوفية الشرقية. ولد حضرة عنايت خان في مدينة Baruda من مقاطعة كوجارات في الهند وذلك في 5 تموز من عام 1882 . جدّه، مَوْلى باكش Maula Baksh كان موسيقياً معروفاً لدى القصر، وهو الذي وضع نظام النوتات في الموسيقى الهندية الكلاسيكية وأسس في مدينة بورودا مدرسة موسيقية لا تزال قائمة إلى الآن، حيث يتم فيها تعليم الموسيقى الهندية الكلاسيكية. والد عنايت أيضاً كان عازفاً، ولهذا يصبح واضحاً أن الطفل قد تربى منذ نعومة أظفاره في أجواء الموسيقى، التي ملأت حياته. لكن بالإضافة للموسيقى التي كانت ممارستها واجباً على عائلات الموسيقيين المقيمين لدى القصر، فإن عنايت تعلم الشعر أيضاً. ينحدر عنايت من عائلة مسلمة، و كان منذ الصغر يقيم الأوقات الخمسة للصلاة بانتظام إلى جانب الكبار. في سن التاسعة تلقى عنايت من خاغفارا - مهراجا مدينة بورودا – كنوع من المكافأة عِقداً ومنحة لقاء ترتيله الأناشيد الدينية.

راح الولد يثابر على دروسه وتعلّمه، وقد أظهر فهماً عميقاً للعالم غير مألوف عند من في مثل عمره، وأكثر ما اجتذب اهتمامه الفلسفة والدين. استمر الأمر على هذا المنوال حتى سن الثامنة عشرة، حين بدأ يقوم برحلات في جميع أنحاء الهند وكان يقدم أثناءها الحفلات. وخلال هذه التنقلات تمكن كموسيقار وكمطرب من أن يبلغ درجة عالية من الشهرة، التي يدور الرأس عادة منها. فقد منحه الملك نظام سلطان حيدر آباد لقب " تانسن الجديد New Tansen " تيمناً باسم الروحاني والمطرب العظيم، الذي عاش قبل ذلك الحين ببضعة قرون في الهند . وفي شمال الهند نال عنايت لقب "نجمة الصباح لنهضة الموسيقى" .

ولكن، إلى جانب الموسيقى راح أثناء ترحاله يفتش عن وسيلة للتعرف والحديث مع الحكماء والفلاسفة، الذين كانت أعدادهم في الهند تلك الأيام كثيرة، لدرجة أنهم كانوا يسرحون على جوانب الطرق. لقد كانوا أشخاصاً من مختلف الديانات: من المسلمين، السيخ، الهندوس، البوذيين. كانت الأمور تشير إلى أن مصير عنايت هو أن يكون أهم موسيقار في كل الهند؛ لكن يجذبه ذلك اللغز الخفي، الذي يقوم في أساس كل الكون. وفي يوم من الأيام، كما روى فيما بعد عنايت خان نفسه، حدث ما يلي: بينما كان هو مُستَغرَقاً في الصلاة وقد مضى عليه فيها عدة ساعات، سمع عند الفجر بوضوح صوت الفقير Fakir، الذي راح يوقظ الناس داعياً إياهم إلى الصلاة: " قم، أيها الإنسان، من نومك العميق، أنت لا تعرف أن الموت يتربص بك في كل لحظة؛ أنت لا تكترث كم هو ثقيل الحمل الذي قرّرتَ حمله، وكم هو طويل الدرب المقرر لك. انهض، أيها الإنسان، لأنه قريباً جداً ستشرق الشمس ". لقد أثّرت في عنايت خان كلمات تلك الأغنية لدرجة أن الدموع سالت من عينيه، وعندها أدرك أنه ليس هناك من مجدٍ دنيوي - الذي يأتي ويذهب - يمكن مقارنته مع ذلك الخلود، الذي يوجد خلف حدود فهمنا، وأن المتع والملذات، النجاح في حقل الغناء والموسيقى لا يفيد في إنقاذ الروح.

لقد قلب ذاك اليوم حياته رأساً على عقب، إذ بدأ يستيقظ فيه المتصوف والحكيم، وراحت الموسيقى تتراجع إلى المرتبة الثانية؛ بالرغم من أنه ظلَّ حتى نهاية عمره يعيش في الموسيقى، إذ فيها كان يتوجه إلى الله، ولكنه مع ذلك، فقد صار يومها قبل كل شيء الإنسان، الذي يقف على طريق البحث عن الحقيقة. و قد كان الصوفيون هم أكثر مَن أثار اهتمامه من بين آلاف التيارات الدينية، التي كانت منتشرة في الهند؛ لقد أعجبه تواضعهم - من ناحية، وصراحتهم، من ناحية ثانية. إذا كان الإسلام الرسمي لا يحبذ الموسيقى، فإن المتصوفين يستخدمونها بشكل دقيق خلال لقاءاتهم. فالموسيقى عندهم تعتبر وسيلة للوصول بالنفس إلى حالة الدهشة الإلهية، طريقة للتخلي عن الازدواجية، للتقرب إلى الله، و"ملامسته"، للتخلي عن "الأنا". هذه الحالة تدعى " الوجد " ، أو الهَول. لقد سبق لعنايت أن جرّب حالة الوجد الإلهي تلك، والتي تحل بالإنسان الغارق في بحر من الأصوات الرائعة. وفي

يوم من الأيام رأى حلماً : كان هو حاضراً في اجتماع موسيقي، في وسط صوفيين طاهرين عظام رحلوا عن الدنيا منذ زمن بعيد، حيث كان جميع الحاضرين ينشدون : "الله أكبر! " — "الله أكبر". وعندما استيقظ، استمر هو في سماع تلك الموسيقى بوضوح، كما في المنام، وتلك الكلمات : " الله أكبر ! ". هكذا بدأ دخوله إلى جوهر الصوفية. راح عنايت يتقرب من أوساط الصوفيين في حيدر آباد. فراحت تحدث معه عجائب تعتبر في التصوف — كما بالمناسبة في الكثير من الديانات — من علامات الأنبياء، الذين يسيرون على الطريق القويم. من المعروف، أنه يمكن للصوفي أن يبلغ أعلى درجات الكمال في حال كان لديه مرشد فقط. من خلال المجاهدة، الرياضة والصمت كثيراً ما راح يشاهد بنظره الداخلي وجه شيخ ابيض اللحية، دون أن يعرف له اسماً ودون أن يكون قد رآه من قبل، وجه يشعّ بالنور. ؛ ويتحول هذا إلى لغز لا يجد له حلاً. وفي أحد الأيام سأل أحد المعلمين الذين يكن لهم الاحترام عن تفسير لما رآه في حلمه، فقال له المعلّم : " هذا الحلم، على الأرجح، هو علامة على دخولك أخوية جيشتي : العبارة، التي تسمعها — هذا صوت الحقيقة، أما الوجه، غالباً، هو روح معلمك ". (للتوضيح، إن الاجتماعات الموسيقية — سماع — كانت تجري في الهند، بشكل رئيسي، في أخوية جيشتي).

بدأ عنايت خان منذ تلك اللحظة البحث عن الهداية. لكن المعلمين المحليين، لأسباب غامضة، رفضوا قبوله تلميذاً لديهم. فيما بعد فقط اتضح أنهم قد رأوا في حينه لدى ذلك الفتى علامات قديس وروحاني عظيم. وهكذا، بينما كان عنايت يجلس في أحد الأيام في منزل صديق له، أيضاً متصوف، وهما يتجاذبان الحديث، وإذ بصاحب البيت يضطرب فجأة، ثم نهض وراح يرتب الغرفة على عجل ويضع الوسادة في المكان المخصص للضيوف المحترمين. بعد قليل من الوقت دخل إلى الغرفة شخص أبهرت رؤيته عنايت، خصوصاً وجهه — لقد كان نفس الوجه، الذي كان يتردد دائماً في أحلام عنايت. بعد أن نظر إلى جميع الحضور، توقفت نظرة الشيخ على عنايت وسأل صاحب البيت : مَن هذا الفتى؟". أجاب صاحب البيت أن الفتى هو عازف موسيقي، وأنه يهتم بالتصوف ولكنه يبحث منذ نصف سنة عن هداية دون أن

يتمكن من الحصول عليها. عندئذ استدار الشيخ إلى عنايت خان واقترح عليه الدخول في حلقة تلامذته على الفور. وقد كان اسم المعلم الشيخ سعيد محمد مدني، الذي كان يعود بجذوره إلى عائلة الأسياد – أحفاد النبي محمد (عليه السلام!)؛ هكذا صار هو المرشد أي المعلم بالنسبة لحضرة عنايت خان.

فيما بعد أشار عنايت خان إلى أن الدرب، التي قادته إلى النور، لم يتمكن منها بفضل تحليلاته الخاصة وحججه التي اكتشفها بنفسه وعن طريق قراءة الكتب فقط، إنما هو من خلال الانضمام إلى الهداية مع الطرق التي تبدأ في أعماق القرون من روحاني إلى آخر، استطاع الحصول على الدافع، الذي منحه الفهم الوحيد الصحيح والممكن للعالم.

كانت نجاحاته أثناء التعلم مذهلة، وقد تم قبوله في أربع أخويات وهو لم يزل فتياً، وهي: التشيشتي، النقشبندية، القادري والسهروردي، – وهذا بحد ذاته أمر نادر الحصول. في أحد الأيام، وبعد سنوات من التعليم والصداقة، دعاه الشيخ مدني إليه، وأثناء حديثهما على انفراد، قال الكلمات التالية: " هيا انطلق، يا طفلي، نحو العالم، وقم بتوحيد الشرق والغرب بواسطة هارمونيا موسيقاك، قم بنشر الحكمة الصوفية، لأنك موهوب من الله الرؤوف الرحيم ". بدءاً من تلك اللحظة، واستجابة لإرادة مرشده، تحول عنايت خان إلى حامل " الرسالة الصوفية " – رسالة عن حرية الروح. في عام 1910 غادر الهند ليبدأ ترحاله، حيث يلقي محاضرات ويقوم بحفلات في أمريكا وأوروبا، كما يزور روسيا. ليعود إلى الهند فقط في عام 1926، وفي السادس من شباط 1927، في دلهي، يترك هذا العالم المادي، تاركاً بعده إرثاً يتألف من ثلاثين مجلداً، مع أشعار، مسرحيات، وتفسيرات لآراء دينية، روحانية وفلسفية تتضمن أجوبة على الكثير من الأسئلة، التي تهم الناس.

ما الغاية من " الرسالة " ولماذا تظهر هذه الرسالة؟ كان عنايت خان يكرر أنه عندما يجري خرق القانون وتتراجع العدالة، فإنه يظهر في الأرض رسول، وهذا الرسول يحمل معه الكلمة، وهذه الكلمة – كما النور، الذي يملأ الهلال. لم يكن عنايت خان يقصد نفسه بذلك القول، بل الرسل العظام: موسى، زرداشت، بوذا، عيسى ومحمد. إن هؤلاء قد جاؤوا برسالات من أجل شعوب وحقب زمنية كاملة، بل هم لا زالوا كذلك إلى اليوم. إن التاريخ

يتكرر، ولكل مرحلة زمنية معينة، لكل بلد يوجد رسول خاص، حامل الحقيقة. بالتأكيد، إن الروح، وهي تتظاهر في هذا العالم المادي، إنما تسعى إلى الطهارة، إنها تبحث عن تلك الطهارة بهدف أن تترجم ذاتها إلى واقع. والروح تختار حاملها بنفسها وتقوده على طريقها الخاصة. والرب قد اختار عنايت لأن، على الأرجح، عنايت قد فضّل اللهَ على كل العالم، كما فعل ذلك زرداشت، عيسى ومحمد.

كما سبق وذكرنا، إن عنايت خان توفي في عام 1927، وقبره موجود في دلهي، في حي حضرة نظام الدين. في كل صباح يحمل إلى هناك وروداً حمراء أولئك الذين وقعت في قلوبهم كلمات عنايت خان عن بلوغ الأعلى: " أنا لا أجرؤ على التفكير بأن أرفع عيني، لكي أدرك صورتك المنيرة. إنني أجلس بخشوع عند بحيرة قلبي وأتأمل خيالك فيها ".

و كما أسلفنا، لقد ترك عنايت خان ثلاثين مجلداً ونيف في الشعر، المسرح والموسيقى، والكثير من المحاضرات. توقف عن الكتابة في يوم ما، لكن تلامذته، وقد عرفوا قيمة ما ينطق به، راحوا يدوّنون كلماته. لا زال هناك الكثير مما يتوجب القيام به من دراسة وبحث لكل ما يتعلق بعنايات خان وبـ " رسالته "، التي كانت تهدف بشكل رئيسي إلى خلق التناغم والهارمونيا بين مختلف الطبقات والأديان، دون أن يعني ذلك المساواة بينها إطلاقا. يكمن الفضل الأكبر لعنايات خان في أنه أدخل إلى العالم الغربي تلك المنظومة الفلسفية، التي لم تكن فيما مضى سهلة المنال إلا للمسلمين. فقد أوجد أسلوباً لتغيير طريقة تقديم الأفكار الصوفية إلى العالم الغربي.

بالتحديد، لقد فعل هو ما سبق وفعله من قبله الأنبياء في الديانات العالمية: بودهيدهارما جلب البوذية إلى التيبت ومن الهند إلى الصين، والرسل المسيحيون نشروا تعاليم المسيح في أوروبا والهند. وإن نقل الأفكار من بيئة ثقافية معينة إلى أخرى لهو علم صعب يفوق طاقة العقل، ولذلك فإن ما قام به عنايت خان – ناقلاً أفكار الصوفية من الشرق إلى الغرب – لا يعادله ثمن. إن الحركة الصوفية، التي سارت خلف أفكار عنايت خان، لا تضع نصب عينيها تحويل العالم بأسره إلى معتنقين للصوفية. بل الهدف هو أن يتوحد الناس، الذين يريدون تعلّم

كيفية إدراك الله وكيفية العمل لأجله. كيف العمل من أجل إدراك الذات والعالم، الذي قُدِّرَ للإنسان العيش فيه. كيف وأين يجب البحث عن الحقيقة.

إنه لأمرٌ مُعبِّر أن عنايت خان كان يحب أن يردد أبيات من القصيدة الصوفية المعروفة، التي تكشف لنا الوجه الداخلي للبحث عمن صار العطش الروحي إليه لا يُحتمل :

بحثتُ، لكني لم أستطع أن أجدَك.
ناديتك بصوتٍ عالٍ، وأنا واقف على المئذنة.
قرعت جرساً نحاسياً منذ شروق الشمس وحتى غروبها .
سبحت في نهر الغانغ، لكن سدى.
عدتُ من الكعبة خائباً .
بحثتُ عنك في الأرض،
بحثتُ عنك في السماوات، أيها المعشوق.
و في النهاية، وجدتك مختبئاً، كما الدُّرة،
في محارة قلبي.

د . إبراهيم إستنبولي

الجزء الأول

نبذة تاريخية عن التصوف

لا توجد ولم تكن هناك أبداً بداية للتصوف، والتصوف لم ينشأ كظاهرة تاريخية، بل وجد دائماً لان النور كان بصورة دائمة يشكل ماهية داخلية للانسان. وفي أعلى تجلياته يمكن أن يُسمى ذلك النور معرفة الله، الحكمة الإلهية - الصوفية أو التصوف. لقد كان التصوف قائماً بشكل دائم، وقد كان المبشرون به من أهل الفؤاد، ولذلك كان ينتمي للمعلمين - المؤسسين، وبنفس المقدار لكل الآخرين.

تقول الأسطورة أن أول نبي هو آدم، وهذا يعني أن أول إنسان على الأرض كان يمتلك الحكمة. وبين النوع البشري كان يوجد دوماً مَن يسعى بحماس إلى الحكمة. لقد بحثوا عن الأشخاص الروحانيين، الذين اختاروا العزلة، فراحوا يخدمونهم بكل إخلاص وتبجيل، ويتعلمون لديهم الحكمة. قليلون هم الذين استطاعوا فهم تعاليم المختارين من قبل الرب، لكن عَظَمَةَ شخصياتهم استقطبت الكثيرين. فقال الناس للنبي: "سنسير وراءك، سنخدم عندك، سوف نصدقك ونؤمن بك، ولن نذهب وراء غيرك"، - وكان القديسون يجيبونهم: "اولادي، نحن نبارككم. اعملوا هكذا. تصرفوا كذا. يجب العيش هكذا بالضبط وليس بشكل آخر". وأعطوا الناس الوصايا والقوانين، التي ساعدت على تهذيبهم وتقوية الشعور الإنساني لديهم. هكذا نشأت الأديان.

ولكن مع مرور الزمن ضاعت الحقيقة. ازدادت الرغبة بالسيطرة، ومن ثم النظرة الغيورة جداً إلى ذات الجماعة، وبالتالي الموقف المسبق تجاه الآخرين. هكذا تدريجياً فُقدت الحكمة. ترسخ الدين، ولو بعد جهد كبير، لكن العالم في ذلك الحين وفي تلك المرحلة من تطوره، لم

علي مولا

يكن قادراً على تقبل الصوفية. كان اتباعها يتعرضون للسخرية والازدراء، والاضطهاد. فكانوا مضطرين للاختباء في أماكن معزولة عن العالم وفي الكهوف الجبلية.

عند مجيء المسيح كان الصوفيون أول من أصغوا واستجابوا إلى تعاليمه، وفي زمن النبي محمد (ص) فإن الصوفيين كانوا أول من لبّوا النداء من جبل الصفا. أحد التفسيرات يربط أصل كلمة "الصوفية" باسم جبل الصفا. والنبي محمد تحديداً هو الذي فتح الطريق أمام الصوفيين إلى شبه الجزيرة العربية، حيث ظهر عدد كبير من اتباعهم، بمن فيهم ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) والامام علي (كرّم الله وجهه)[1].

ومن هناك انتشر التصوف إلى بلاد فارس. لكن أينما كان الصوفيون يعلنون عن آرائهم الحرة، كانوا من كل بد يعانون من هجوم ومضايقات ممثلي الديانة المسيطرة. لذلك كانت الموسيقى والشعر هما الوسيلة الوحيدة للترويح عن النفس. فالشعراء الصوفيون العظام – حافظ الشيرازي، الرومي (جلال الدين)، شمس التبريزي، سعدي الشيرازي، عمر الخيام، نظامي، ابن الفارض، الجامي وغيرهم - هم بالضبط الذين نقلوا إلى العالم حكمة التصوف. إن إبداع ابن الرومي عظيم لدرجة أن مَن يقرأه ويفهمه يمكنه من خلاله أن يطلع على علم كل الفلسفة العالمية. لذلك نجد أن تلحين أشعاره في الاجتماعات المقدسة عند الصوفيين يعتبر جزءاً من طقوس العبادة الإلهية. إن قصص رجالات الصوفية تُدهش بطهارتهم وبإنسانيتهم.

لقد بلغ التصوف درجة الكمال في الهند، التي كانت لفترة طويلة جداً موطن الروحانية العظيمة. فقد كانت الصوفية بالنسبة للهندوس علماً وغاية الحياة الرئيسية. هكذا كان في عصر مهاديفا ومن ثم في عهد كريشنا. هنا وجدت الصوفية تربة خصبة فأعطت بذرتها ثمرة رائعة، ولذلك فإن عدداً كبيراً من العباقرة، من أمثال الخواجة معين الدين الجشتي[2]، اصبحوا من اتباعها. وقد كانت الموسيقى جزءاً هاماً في حياتهم وممارستهم الروحية. إن أولئك المتصوفين أوصلوا إلى درجة الكمال فن العبادة الخالصة، التخيل المثالي، وكان وعيهم قادراً على التحرر من قيود النظام الخارجي للعيش.

1- المؤلف لم يُلحق أسماء الأنبياء والصحابة بهذه التعابير. لذلك لاحقاً لن يتم إيرادها توخياً للدقة – المترجم

2 – معين الدين الجشتي: المعلم الصوفي العظيم. عاش ١١٤٢ – ١٢٣٦ أو ١١٣٥ – ١٢٢٩. لقب بـ "الملك غير المتوج للهند". يقع ضريحه في إقليم راجستخان – المترجم

إن مترجمي ومحبي الشعراء الفارسيين، وهم يقدمونهم، غالباً ما يرتكبون نفس الخطأ – لا يعطوا مَن سبقوهم المكانة والاهتمام اللذين يستحقونهما، وبالتالي ينتج كما لو أن هؤلاء الشعراء قد أنشأوا كل شيء على فراغ (من عدم) ولم يرثوا شيئاً من الماضي. لكن بلاد فارس، التي تحيط بها اليونان ومصر، شبه الجزيرة العربية والهند، قد استلهمت أفكار أفلاطون وسقراط، تعاليم الهندوسية والبوذية، خصوصاً أشعارهم وفلسفتهم. كل شيء في العالم بهذا الشكل أو ذاك يقع تحت تأثير مختلف الظواهر، ولذلك من الخطأ أن نؤكد كما لو أن الصوفية قد ولدت في بلاد فارس دون أن تكون موجودة سابقاً بالمطلق. كما أنه لا تمكن المجادلة في وجود التصوف في زمن الرسول محمد وربما قبل، وكذلك لا يمكن نكران تلك الحقيقة وهي أن النبي رحّب بالتحدث إلى الصوفيين واستمع إلى نصائحهم. ومع مرور الوقت تشربت الصوفية من جميع الأديان، وهي بدورها مارست تأثيرا على الكثير منها. بالرغم من أنه نجا قسم يسير فقط من التراث القديم المكتوب، بل إن هذا الجزء الصغير تعرض للهلاك بالكامل بسبب التفسيرات الخاطئة، فإن من الممكن أن نتلمس وجود الآثار القديمة للصوفية.

في العهود القديمة تم تأسيس جمعية النقاء – الصفا. كان شعارها الأساسي التالي: اعرف نفسك، وسوف تعرف الله. هؤلاء الاخوة، الذين حاولوا معرفة الذات، كانوا هم الصوفيين، ذلك لأن التصوف هو عبارة عن تعاليم حول معرفة الذات.

إن الصوفيين ومعتنقي اليوغا قادرون على فهم بعضهم، لأن الفرق بينهم واحد: اليوغا تسعى بشكل خاص إلى الروحانية، بينما الصوفية – نحو الأنسنة. أتباع اليوغا يعتقدون أنه من الأفضل أن تكون إلهاً، أما المتصوف فيرى أنه يجب أن يكون إنساناً، ذلك لأنه في حال بقيت الروح فقط عند أحد ما، فهو دائماً يخاطر أن يقع – الجسد يتميز بميله إلى السقوط. المتصوف يعتقد أنه ما دام جسدنا تنقصه حاجات ومتطلبات معينة، فلابد من تلبيتها. بالتالي هو يفترض أن الإنسان يمكنه أن يأخذ من الحياة كل ما هو قادر على الحصول عليه. فإذا كان هناك ما هو خارج إمكانياته فيجب أن لا يسبب ذلك القلق والاضطراب له. ليس هناك فرق جوهري بين الصوفي وبين معتنق اليوغا. ليس هناك فرق في الحكمة.. فالحكمة واحدة.. وإذا وجدت بعض الفروق فهي تتعلق بالشكل فقط.

السعادة – في الاتحاد ، ليس في مجال واحد روحيا كان أم ماديا، بل في كليهما معا . لماذا يصالب المرء يديه؟ لأن هناك حيث يوجد زوج، توجد سعادة في الاتحاد . لدى الإنسان عينان ؛ عندما تكونان مغلقتين يحلُّ الانشراح . حين يمر الهواء أثناء التنفس من خلال المنخرين ، فإن الصوفيَّ يدخل في حالة من النشوة الروحية . لماذا يتصافح الناس بالأيدي؟ لماذا يفرحون للعناق والاحتضان؟ لماذا هم يتعطشون لمجالسة العالِم أو الحكيم؟ لأن روحاً واحدةً تجذب إليها واحدة أخرى وتتحد بها . فالسعادة ليست في الروحانية لوحدها ، إنما في اتحاد الروحي والمادي .

أن يكون المرء حيوانياً فقط شيء معيب . وأن يكون ملاكاً كليّة ليس بالأمر المفيد . لأننا خلقنا بجسد حيوان له حاجة في المأكل والمشرب والنوم ولديه مشاعر وآلاف الرغبات . يجب علينا التسليم بالصفات الحيوانية غير المؤذية ونبذ الخطيرة منها . ليس هناك عيبٍ في أن نأكل وفي أن نشرب ، لكن أن نختطف الطعام من صحون غريبة ، بينما الطعام موجود في صحوننا ، – فهذا هو العيب .

إن القضية المحورية في حياة الصوفي – حرية الروح . وقد قال الشاعر الفارسي العظيم المتصوف جلال الدين الرومي يوماً : " الروح في الأرض أسيرة الظلمة وهي تبقى كذلك طالما أنها تعيش على الأرض " . سواء أدرك الإنسان ذلك أم لم يدرك ، ففي كل واحد منا تعيش الروح حنينا قويا يتجلى في سعيها إلى الانطلاق من الأسر وكسر الأغلال التي تقيدها . وكاستجابة على هكذا ثورة يجب أن يكون اكتساب الروحانية .

هناك صنفان من الصوفيين : الرند rind والسالك salik . أما الأول ، الرند ، فقد تجسد بشكل رائع في ترجمة فيتزجيرالد لأبيات من شعر عمر الخيام :

هَلُمَّ حبيبي نترُكِ الهمَّ في غدٍ
و نَغْنَمْ قصيرَ العمرِ قبل فواتِ
سَنُزْمِعُ عن ذِي الدَّارِ رحلتنا غداً
بسبعة آلاف مِنَ السَّنواتِ

وهو يقصد ما يلي : خذ أفضل ما يمكن من اللحظة القائمة ؛ وأنت تعيش اللحظة الحالية فإنك تدرك الخلود بوضوح أكبر . لكن ، إذا كانت رؤيتك محدودة بعالم الماضي وبعالم

المستقبل، فأنت تعيش في عالم محدود وليس في عالم الأبدية. بكلمة أخرى، يجب العيش ليس في الماضي ولا في المستقبل وإنما في الأبدية أو الخلود. سنحاول هنا بالضبط الوقوف على السعادة التي هي اكتساب حرية الروح.

هذه هي القضية الرئيسية للشعراء الصوفيين، الذين هم أقرب إلى صنف الرند – المتجولين؛ إذ أن حياتهم ليست مقيدة بالمبادئ بخلاف حياة زملائهم " الأرثوذكس ". إنهم متحررون من كل ما هو أصولي، من كل قواعد أو تعليمات جامدة تضغط على الإنسان. في نفس الوقت، هم أشخاص المثل العليا ويتمتعون بأخلاقيات غاية في الكمال، بتفكير عميق وبوعي وإدراك متطورين للغاية. إنهم يمارسون حياة مليئة بالحرية في هذا العالم ـ السجن، حيث كل من يعيش – هو فاقد للإرادة.

يوجد بين الصوفيين أيضاً من هم من صنف الساليك، الذين يتدربون ويتأملون في أسس الأخلاق، وفي نفس الوقت يعيشون وفق مبادئ مضبوطة. تعلمهم الحياة وترشدهم على الطريق الصحيح، وبالتالي هم يتواجدون في حالة من التعبد ونكران الذات. إن طريق السالِك تقوم على اكتشاف كنه الدين – أي دين، مهما يكن الدين الذي يبشر به، – ومن ثم تطبيقه حسب رؤيتهم هم. أتباع السالِك يستخدمون نفس المصطلحات الدينية التي يتعامل معها الأصولي (الأرثوذكس)، لكنها تحمل معان مختلفة بالنسبة له. كل سطر من الكتاب المقدس له تفسير خاص بالنسبة للسالِك، ذلك لأنه يراه من خلال موشور خاص.

كل الأفكار السامية والعظيمة حول الله والإنسان والحياة، يمكن أن تكون مفهومة فقط عبر ربطها بعملية تطور الإنسان. لهذا بالضبط أن أولئك الصوفيين الذين يلقبون بأتباع السالِك، هم بداية يعتنقون ديناً ما ومن خلاله يبلغون الهارمونيا مع الناس الآخرين. ومن ثم يكتشفون الحكمة الحقيقية في ذلك الدين ويقومون بتفسيرها على طريقتهم.

إن القسم الأعظم من الأدبيات الصوفية مكتوبة بطريقة معينة، بحيث أن الإنسان غير المطلع على محتواها الباطني الخفي، سيصاب باليأس وبتثبيط العزيمة. لو أخذنا أشعار حافظ الشيرازي، فسوف يلفت نظرنا أنه نادراً ما يرد فيها ذكر الله. وإذا أخذنا أشعار عمر الخيام،

التي تُقدر عالياً من قبل العالم الغربي، فسوف نرى أنه يكتب دائماً عن نفس الشيء: عن الخمرة، عن المحبوبة والعشيقة، عن الكأس والوَحدَة. لربما يسأل سائل: " أين الروحانية في كل ذلك؟ هو يتحدث فقط عن الخمرة والكأس! وإذا كانت هذه هي الروحانية – فعلى البشرية السلام! ". نعم، في تلك الأشعار يوجد قليل من الالتزام الديني. أما في أشعار جامي[1] Jami لا يوجد نهائياً ذلك الأدب الديني والتهيب من الله ، كما أن ذلك لا يذكر في أشعار المئات من الشعراء الصوفيين – الحكماء والمتصوفين العظام. لقد افترضوا أنه طالما هم اشتهروا كأناس روحانيين، فهم مضطرون أن يظهروا كأناس روحانيين، أن يأكلوا كأناس روحانيين، فقد كانوا يخشون أن تضيع حريتهم على هكذا درب، وأما هم فسيشتهرون كمنافقين.

1- جامي (اسمه الكامل: عبد الرحمن نور الدين ابن احمد الملقب بالجامي) ١٤١٤ – ١٤٩٢. شاعر وفيلسوف فارسي وطاجيكي. من أعماله في الأدب الصوفي: "سبعة عروش" أو "سبعة تيجان"، ثلاثة دواوين غنائية، تؤكد على كرامة الإنسان وعلى قيم الخير والعدل والمحبة كقوة محركة للكون. وكذلك ملحمة فلسفية عن اسكندر المقدوني " كتاب في حكمة اسكندر "... – المترجم

التصوف

يوجد في الشرق ثلاثة تيارات فلسفية رئيسية: الصوفية، الفيدانتا والبوذية. أما تعاليم الصوفية فقد لخّصها أنبياء بني إسرائيل: إبراهيم، موسى، داود، يوحنا، زرداشت، المسيح، محمد[1]. هؤلاء الأنبياء وغيرهم ظهروا في سوريا الطبيعية، في شبه الجزيرة العربية، في بلاد فارس، في مصر القديمة وكذلك في بعض مناطق تركيا الحالية وفي الجنوب الشرقي من روسيا.

الصوفية – عبارة عن تعاليم قديمة جداً حول الحكمة والسكينة، التي أعطت البداية للكثير من العبادات ذات الطابع الأسطوري والفلسفي. تعود جذورها إلى تقاليد قديمة كانت سائدة في مصر ومنها انطلقت جميع مدارس الهداية أو التكريس الأخرى. وقد لعبت الصوفية دوماً دور الممثل لتلك التقاليد وتابعت طريقها في مملكة من الصمت والهدوء.

فيما بعد انقسم تيار الصوفية إلى أربع مدارس. الأولى – النقشبندية، وفيها يعود الدور المركزي للرموز والطقوس وحركات الرقص. الثانية – القادرية، التي تعلّم الحكمة على أساس الديانة الإسلامية في الشرق. المدرسة الثالثة – السهروردية، تعلم أسرار الحياة عن طريق المعرفة الميتافيزيقية وممارسة المراقبة الذاتية. المدرسة الرابعة – الجتشتية، التي هي عبارة عن المثال الروحي في مجال الشعر والموسيقى.

هذه المدارس أو الفروع الأربعة أعطت تفرعات كثيرة انتشرت في شبه الجزيرة العربية، في تركيا، فلسطين، مناطق سكن التتار، تركستان الروسية، بخارى، أفغانستان، الهند، في سيبيريا ومناطق أخرى من آسيا.

1- إن الكاتب عن قصد أو عن غير قصد اعتبر أن جميع هؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل.. وهذا اقتضى التنويه: زرداشت ليس من بني إسرائيل كما هو النبي محمد – المترجم

يبقى الهدف واحداً في كل مدرسة؛ تختلف سبل بلوغه فقط. إن هدف أية مدرسة أو طريقة صوفية هو بلوغ ذلك الكمال، الذي بشّر به السيد المسيح والذي ورد حوله في الإنجيل: "... سوف تكونوا كاملين، كما هو أبوكم في السماء".

إن الطرق الصوفية من حيث الجوهر واحدة – التحرر من "الأنا". لكن أية "أنا"؟ ليس "أنا" الحقيقية بل الكاذبة، التي يرتبط الإنسان بها ويعتبر نفسه متميزاً بها عن الآخرين. متى تحرر من تلك "الأنا" فإنه يمنح "أناه" الحقيقية إمكانية أن تبرز في العالم المحسوس. إن الطريقة الصوفية تسمح بالتفتح لروح الإنسان وبالتفجر لـ "أناه" الفعلية – الخالدة، التي عليها تنبني كل الطاقات وكل الجمال.

لقد أدركت الصوفية أن أنماط آهورامازدا وآري مان إنما تجسد مبدأ الخير ومبدأ الشر. ربما يمكن أن يكتشفها أحدهم في كلام السيد المسيح أو في القرآن، تماماً كما في زيند أفيستا[1]. لقد فهمت ماذا يقف وراء التصورات عن الملائكة، توصلت إلى تشكيل صورة مثالية للرب والمعلّم كحامل للرسالة الإلهية. يمكن أن نربط الصوفية بالأساطير اليهودية في حال أزلنا عنها التأثير الذي تركته عليها المسيحية. ويمكن أن نسميها الحكمة المسيحية في حال أهملنا تأثير الحكمة الإسلامية عليها. ويمكن أن نعتبرها المُكوِّن الداخلي للإسلام في حال نفينا تأثير المنظومات الفلسفية الأخرى، كالفيدانتا والبوذية مثلاً.

لكل ذلك بالضبط، إن الصوفية على تلك الدرجة من الشمولية والكمال والكلّية.

ولد التبجيل الصوفي للطبيعة تحت تأثير تعاليم زرداشت. وميل الصوفية لتقديم القرابين – هو قاعدة إبراهيمية. أما قدرتها العجائبية فيعود الفضل فيها إلى موسى. وهي تنذر عن الأخطار المستقبلية، إن الصوفية تجسد النبي نوح – أعظم مراقب (طوّاف) في الماضي. ورفض الصوفية لأفكار التقشف يعود إلى النبي سليمان، وموسيقاها المقدسة – تذكّر بأغاني الملك داود. إن السعي إلى التضحية بالنفس يقوم على مثال السيد المسيح، والنزعة الإنسانية

1- زند أفستا – هو التسمية الجامعة للكتب المقدسة في الديانة الزرادشتية. "زند" تعني التعليقات أو الشروحات، "أفستا" (من الكلمة الفارسية القديمة – أباشتا –) تعني قانون. المترجم

في الصوفية منشؤها تأثير الشخصية المحمدية. لهذا نرى أن الصوفيّ هو عبارة عن تلميذ لأي معلّم، وهو مريد لأي دين، وهو مَن يحاول إدراك الحكمة في جميع تجلياتها. لذلك فهو، على الرغم من إنجازاته الروحية، يبقى منفتحاً لكل العالم.

يقول الكثيرون: " نحن نؤمن فقط بموسى أو بالمسيح ". الآخرون يؤكدون أنهم يعتقدون فقط بالفيدا[1] Veda أو بالكتب المقدسة القديمة الأخرى. بينما بالنسبة للصوفي لا قيمة من قال هذا أو ذاك. المهم جوهر ما قد قيل. فإذا وجد الحقيقة في كلمات زرداشت – تقبلها، وإنْ هو وجدها في القبّالة أخذها أيضاً. الصوفي يعترف بكلام المسيح والتوراة، هو يجد الحقيقة في القرآن. إنه يعترف بالفيدانتا – فقد وُجِد بين الصوفيين تلاميذ عظام للفيدانتا أكثر مما بين الهندوس. فالصوفي يرى فقط ما هو مقدس في أية كتابة أو قول.

إن دارا، شقيق آورانغزيب[٢] كان أول شخص أجنبي يدرس الفيدا، وقد ساعد على نشر المعارف التي تحتويها. وفي فترة حكم الملك اكبار[٣] تم تشييد الكنائس المسيحية في أراضيه، ظهرت بيوت العبادة لليهود (الكنيس اليهودي) والمساجد الإسلامية – وكان يزورها جميعها. وهذا برهان لا ريب فيه على معتقداته الصوفية. عندما توفي الشاعر العظيم كَبير[٤] فإن الهندوس والمسلمين راحوا يجادلون بعضهم في أحقية كل منهم تشييعه إلى مثواه الأخير

1- الفيدا – أقدم مجموعة من النصوص الدينية باللغة السنسكريتية. تحتوي على أناشيد موجهة إلى جميع الآلهة. والفيدا مؤلفة من الكتب التالية: " ساما فيدا "، " آدجور فيدا "، " ريغ فيدا "، و" أثمارفا فيدا " – المترجم.

2- آورانغزيب ١٦١٨ – ١٧٠٧: حاكم الامبراطورية المنغولية في الهند اعتباراً من عام ١٦٥٨. خلال الصراع من أجل العرش قام بقتل جميع اخوته.. كما لاحق واضطهد الهندوس – المترجم

3 – اكبار – حاكم عظيم من الحكام المغول ١٥٤٢ – ١٦٠٥ قام بالإستيلاء على الهند وباكستان. وضع نفسه مقابل المسلمين المتعصبين وطالب بالتسامح الديني وبالتزاوج بين الناس من مختلف الديانات.. كما قام بمناقشة مختلف المسائل الدينية واللاهوتية مع المسلمين، الهندوس والمسيحيين واتباع زرادشت. بعد عام ١٥٨٢ قام بتأسيس مذهبه الخاص " الدين الإلهي " أو " التوحيد الإلهي " الذي جمع كل اديان امبراطوريته في عقيدة واحدة. المترجم

4 – كَبير: حوالي ١٤٤٠ – حوالي ١٥١٨: شاعر هندي، كان يعمل حائكاً؛ كتب باللغة الهندية. أحد المبشرين والداعين إلى تعاليم البهاتا. يجلّه المسلمون والهندوس.

على طريقته الخاصة. الهندوس أرادوا حرق الجثة، بينما أراد المسلمون دفنها في الأرض. كل طرف راح يؤكد أن الشاعر ينتمي إلى عقيدته. فهو لن يقول أبداً أنّ هذه الديانة أو تلك – ليست ديانته. لذلك فإن المسلمين والهندوس يزورون أضرحة الشعراء الصوفيين العظام المقدسين، كما هو الحال مع قبر الخواجا معين الدين تشيشتي في آدجمير (مدينة في الهند في ولاية راجستخان – المترجم).

إن الصوفي يرى الحقيقة من جميع جوانبها. وإذا اقترح أحدهم على الصوفي أن يذهب إلى الكنيسة المسيحية ليقيم الصلاة، فإنه سيفعل ذلك بكل طيب خاطر. وإذا دعاه آخر إلى كنيس يهودي ليصلي كما يفعل ذلك اليهود – فهو سيكون على أتم الاستعداد لفعل ذلك. وإذا ما تواجد بين المسلمين، فإنه سيمارس طقوس الصلاة مثلهم. وفي المعبد الهندوسي سيرى الإله الحقيقي، الإله الحي بدلاً من الصنم. والمعبد الهندوسي يلهمه بالفعل دون أن تصيبه بالعمى عبادة الصنم. ومع كل هذا فإن المسجد الحقيقي بالنسبة للصوفي يوجد في قلبه، حيث يعيش المعشوق، الذي يعبده المسلمون والكفرة على السواء.

إن مهمة الحركة الصوفية في يومنا هذا تكمن في قيامة أفضل تفاهم بين الناس كأفراد، وكشعوب وأعراق، وكذلك تقديم المساعدة إلى أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة. والقاعدة الأساسية لهذه الحركة – في ترسيخ الوعي بالطبيعة الإلهية للروح البشرية؛ من أجل ذلك وجدت التعاليم الصوفية.

يقوم عدم الفهم ليس فقط بين الشرق والغرب أو بين المسيحيين والمسلمين، الذين نقلوا للغرب خبرة التصوف، بل وبين المسيحيين أنفسهم، كما هو قد يحصل بين البشر على العموم. إن الصوفية كمدرسة انتقلت من الشرق إلى الغرب، أما كرسالة فإن الصوفية قد جاءت إلى الأرض من فوق. بهذا المعنى أن الصوفية لا تنتمي لا إلى الشرق ولا إلى الغرب. فالتعاليم الصوفية ذات الطابع الايزوتيريكي Esoteric تقوم على تقاليد المدرسة القديمة للتصوف، التي كانت موجودة خلال حقبات تاريخية مختلفة، بينما الرسالة الصوفية تمتلك تقاليدها الخاصة. إنها أكثر من مجرد مدرسة أو طريقة: إنها الحياة بحد ذاتها؛ إنها الجواب على ابتهالات البشرية.

الصوفية هي بمثابة ديانة لو أراد أحدهم أن يتعلم العقيدة بواسطتها ؛ وهي فلسفة لو أراد أحدهم أن يتعلم بواسطتها الحكمة، وهي تصوف بالنسبة لمن يريد استكشاف روحه تحت قيادتها. ومع ذلك أن الصوفية هي أرفع من كل هذا. إنها النور، إنها الحياة، التي تغذي كل روح والتي ترفع كل ما هو مائت (زائل، كل ما هو معرض للموت) إلى مستوى الخلود. إنها – رسالة المحبة، الانسجام والجمال. إنها، أي الصوفية، رسالة إلهية. رسالة العصر، ورسالة العصر بمثابة جواب على نداء كل روح. وهذه الرسالة، بالمناسبة، تقوم ليس في الكلمات، بل في النور الرباني وفي الطاقة الربانية، اللتين تشفيان الروح، إذ تمنحاه سكينة وسلام الرب.

إن الصوفية ليست عقيدة دينية (Aldiesm) وليست نظرية إلحادية، لأن العقيدة الدينية تعني الإيمان بالله، الذي يتربع بعيداً في السماوات وهو لا يطال. والإلحاد يعني العيش من دون إيمان بالله. المتصوف يؤمن بالله. بأي الله إذن؟ بالله الذي تكون منه نفسه (أي الصوفي)، بالله حوله وفي نفسه؛ كما ذكر في الانجيل – نحن نعيش، نتحرك ونملك كينونتنا في الله. هذه التعاليم – هي تعاليم الصوفية.

يؤمن الصوفيُّ بالله كما لو أنه أنا المثالية داخل الحياة الفعلية؛ كما لو أنه الوعي الجمعي، وكذلك: كسيد العالَمين، كسلطان يوم الحساب، كملهم الدرب المستقيم، ذاك، الذي نشأ كل شيء منه وإليه سيعود الكل.

في الواقع لا يمكن أن تكون هناك ديانات كثيرة؛ توجد ديانة واحدة. لا يمكن أن تكون هناك حقيقتان ولا يمكن أن يكون هناك إلهان أو سيدان. كما أنه يوجد إله واحد ودين واحد، كذلك يوجد سيد واحد وحقيقة واحدة. إن نقطة الضعف بالنسبة للإنسان تكمن دائماً في أنه يحسب الحقيقة فقط ما هو معتاد عليه، بينما ما لم يعتاد سماعه أو التفكير به – يخيفه. كمثل ذلك المسافر، الذي ضاع في بلاد غريبة بعيداً عن بيته، إن روح الإنسان تسافر خلال الظواهر والأشياء غير المألوفة بالنسبة لها. لكن الطريق إلى الكمال يعني الترفع فوق القيود، السعي نحو الارتفاع، الذي لن تعود العين منه تُميِّز الحدود بين بلدان أو قارات معينة، إنما ترى العالم بمجمله ككل. وكلما ازداد العلو، كلما صار الأفق أوسع.

الصوفي لا يفرض أية مبادئ على أحد ؛ وهذا ليس كما في الحياة اليومية، حيث أن لا تمتلك مبادئ معينة فهذا يعني أنك شخص سيئ للغاية. البعض تصيبه الدهشة: كيف يمكن تطبيق تعاليم التصوف إذا لم تكن فيه مبادئ محددة. الجواب بسيط: ما هو حسن بالنسبة لشخص ما، قد يكون غير صالح بالنسبة لشخص آخر. بالنسبة للبعض حسن جداً أن يكون المرء راهباً يقضي طيلة يومه في الكنيسة أو المسجد، لكن بالنسبة للبعض الآخر هذا لا يناسبه، — ربما هو يريد الذهاب إلى المقهى أو المطعم ومحاولة إدراك مضمون التجربة المكتسبة هناك.

في الشرق يغطي الناس رؤوسهم بقبعة أو عمامة في الأمكنة التي تتطلب الاحترام، بينما في الغرب يجب نزع غطاء الرأس في نفس تلك الظروف، أي العكس تماماً. في الشرق يجب نزع الحذاء قبل الدخول إلى معبد هندوسي أو إلى مسجد أو أي بناء مقدس؛ أما في الغرب لا يُسمح الظهور في الكنيسة حافي القدمين. لو اضطر البرامين لباس أحذية ثقيلة، كما يلبس الغربيون، ربما أصابهم سوء، أو ربما شكوا من التعب باستمرار. لذلك يجب أن تكون أحذيتهم خفيفة وبسيطة، بحيث يكون من السهل نزعها ولبسها بدون أية صعوبة. كل ديانة أعطت توصياتها وقدمت مبادئها بما يتناسب مع الزمان والمكان المحددين.

يتحارب الناس بسبب المبادئ باستمرار. هم يعلنون أنهم يقفون بثبات وراء مبادئ معينة، و أن هذه المبادئ تجعلهم أفضل من أولئك الذين يتمسكون بقواعد أخرى. لكن بالنسبة للصوفي، لا يوجد ما هو حسن وما هو سيئ؛ مَثَلُه الوحيد دائماً — أن يكون لطيفاً مع الآخرين. هذا ما لم يدركه العالم، لأن البشرية تطالب بالمبادئ دوماً، وتريد أن يشير لها أحد ما إلى ما هو سيئ وما هو حسن. ولكننا نرى الأمور حسنة أو سيئة حسب الزاوية التي ننظر منها، وهذا يعني أنها، وجهة النظر، هي المقصودة بالتركيز عليها من حيث تربيتها وتشذيبها. الصوفي يملأ بالروحانية كل ما يمسه. هو يرى الوحدة والهارمونيا فقط. ديانة الصوفي — المحبة فقط، لذلك فإن شروط الأديان الأخرى غير مهمة بالنسبة له. أما الصراع من أجل المبادئ فهو يتركه في عهدة أولئك الذين لا يقدرون أن يروا ما هو اوسع من حدود أفكارهم الخاصة.

حين تُلفظ كلمة " فلسفة " ، فإن الإنسان يتذكر على الفور فلسفة الفيدانتا ، مثلاً ، أو أفلاطون أو ارسطوطاليس. هؤلاء الفلاسفة وغيرهم قاموا بدراسة الكون من الناحية الفيزيائية، المادية؛ لقد بحثوا في كيفية تحول الروح إلى مادة، فتوصلوا إلى الميتافيزيقا. لكن في منظومتهم الفلسفية لا نلاحظ لا تقديس ولا عبادة، بينما في الصوفية نحن نجد عبادة الإله.

إن الصوفيين يثقون بمساعدة أي تقديس. لكن حتى عبادة الأصنام لن تجبر الصوفي أن يصبح كافراً، بلا إيمان، لأنه بالاضافة للصنم هو ينحني ويعبد شيئاً آخر. بالنسبة للآخرين يبدو كأنما هو يعبد الصنم، بينما في الحقيقة هو يسجد للرب في كل شيء. عبدة الأصنام هم الذين يقولون: " هذا – إله، وذاك – ليس إلهاً. الرب في هذا الصنم، أما عندك فلا يوجد رب".

لدى الصوفي معبوده أيضاً، لكنه معبود حي. قابلت في إحدى المرات، في شارع بمدينة حيدر آباد، Fakir[1] : " أيها المرشد ، كيف العبور إلى هناك؟ " كنت ادرس الفلسفة في تلك الفترة، وفكرت: " لقد دعاني بالمرشد ؛ لعله رأى فيَّ شيئاً ما عظيماً ! ". لكنني سمعته ينادي الشرطي: " أيها المرشد ، هل هذه هي الطريق إلى بيت كذا؟ " – وفهمت أنه ينادي كل مَن يقابله بالمرشد. عندما طلبت من مرشدي أن يفسر لي ذلك، أجاب بأن الفقيرFakir يحتل الآن مرتبة[2] fana–fi-sheikh، حين يرى التلميذ مرشده (أستاذه) في كل شيء وفي كل الأشخاص. مَن يبلغ هذه الدرجة يتعلم على يد الكل، كل كائن، عجوز أو شاب، غبي أو حكيم، حتى عند القطة والكلب والشجرة والحجر. أما الإنسان الذي لا يستطيع رؤية الإله سوى في شيء واحد وحيد، وليس في كل الأشياء وفي كل الكائنات – هو الذي يعبد الأصنام. وفقط عندما يستطيع المرء أن يرى الإله في كل شيء – حينئذ يكون هو يرى الإله حقاً.

1- Fakir – كلمة عربية تعني حرفياً الفقير ويقصد به: ١- الدرويش المتجول ٢- في الهند هو، عدا ذلك، خادم الطائفة، نادراً الساحر والمشعوذ.... المترجم

2- وردت العبارة كما هي: الفناء في الشيخ – تعني المرحلة الأولى من الفناء أي الانحلال أو الانتفاء في المعلم – المترجم.

الصوفية – فلسفة في وسط الديانات، وديانة بين الفلسفات. في وسط الأديان هي فلسفة بفضل ما يميزها من حرية الفكر. وبين المنظومات الفلسفية تبدو كديانة بسبب تقديس الإله من قبل المتصوفين، وبسبب تكريسهم أنفسهم له، وعبادتهم إياه. الآخرون هم الذين أطلقوا عليهم تسمية الصوفيين؛ أما هم فلم يخترعوا لأنفسهم أية تسمية. لقد كانوا أحراراً وأنقياء من التعريفات، ومن التسميات والألقاب، ومن الفوارق الفردية، لذلك فإن العالم اسماهم صوفيين، من الجذر العربي صافي Safi ما يعني بالعربية " نقي".

هدف المتصوف

إن غاية الصوفي في الحياة تتلخص في كونه لا يرفض أية ديانة، لا ينكر أية جماعة أو مجتمع. بغض النظر عمّا يدور الحديث – عن المسيحية، البوذية، اليهودية، الهندوسية أو عن أية تعاليم أو مجموعة بشرية – سواء التيوصوفيا، أو الفكرة الجديدة أو العلم المسيحي، – فهو، أي الصوفي، لا يسعى لاكتشاف نقاط الضعف فيها، بل هو يرى الخير في كل شيء. كل كائن يقوم في هذا العالم بما يعتقد أنه الأفضل؛ وحتى لو لم يكن الأمر كذلك فإن هذا الكائن هكذا يعتقد على كل حال. إن غاية الصوفي هي نفس غاية العالم ككل. لكنه في نفس الوقت هو يسعى للوصول إلى الهارمونيا والاتحاد مع الآخرين ولا يبحث عن الفوارق. هدفه يكمن في رؤية الوحدة وليس الازدواجية، وهذا الهدف، في الواقع، هو هدف جميع الأديان. الفرق فقط في أن هذا الهدف قد تم الإعلان عنه بصراحة ومباشرة أكبر أو أقل في مراحل مختلفة من التطور العالمي.

إن الله يوجد كحالة غير نشطة وغير مكتملة للوعي، حيث كماله (الوعي) يكمن في اكتفائه هو الذاتي. وهو يُظهر النشاط من خلال الظهور. وهنا يرى الصوفي وحدة الإله أيضاً. إنه يُبقي الرب أمام عينيه دائماً. لهذا، هو يقبل الخير بغض النظر عن مصدره: عن الأصدقاء أو عن أبيه و أمه، لا فرق – هو يقبله كأنه هبة من الله: الله يفعل من خلال الصديق، الأم أو الأب. وكل واجب، كل شكر ينتابه – إنما يوجهه إلى الرب. الصداقة، الحب تجاه الأهل والأقرباء والأصدقاء، والى العشيقة – كل ذلك يربطه باسم الرب.

نرى أن الشعراء الصوفيين غالباً ما يتغزلون في قصائدهم بخصلات شعر الحبيبة. فالشاعر يرى انعكاساً للرب في صورة حبيبته. بل هو يعترف بالله في الأهل وفي الصديق. مع كل شهيق يذكر هو اسم الرب، ولذلك فهو يعتبر كل شهيق بمثابة قيمة سامية ولا شيء في العالم يمكن أن يتساوى معها. قد يسأل سائل: " ما الغاية من تكرار نفس الشيء ملايين المرات؟ لو كان هناك تنوع في الأفكار لكان الأمر أفضل ! ". لكن بواسطة فكرة وحيدة، نفس الفكرة، يستطيع الإنسان أن يتصل مع ينبوعه أو مبعثه.

ينشأ سؤال: هل تكمن غاية المتصوف في أن يصبح شافياً أم مستبصراً، في الاتصال بالأرواح أم استكشاف العالم الشاذ، وربما هو يريد أن يجد لنفسه واعظاً أو معلّماً ما؛ أم يبحث هو عن تواجد الله، أو يحلم بالصعود إلى السماوات، أم أنه من مريدي ديانة معينة؟ الجواب بسيط: لا علاقة لهدفه بكل هذه الأشياء.

يتمنى الكثيرون لو أنهم يكتسبون معارف صوفية وأن يتحولوا إلى سحرة ومعالجين، لكي يشفوا أنفسهم وأقرباءهم، دون أن يضطروا لدفع فواتير المستشفيات، وبالتالي الشفاء بدون مساعدة الاطباء. قد تظهر هذه الإمكانيات لدى المتصوف خلال حركته نحو الهدف الأسمى. قد يكتسب تلك القدرات العلاجية بالتوازي، لكن أن يتوقف ويركّز عليها فقط فهذا يعني أنه يتصرف برعونة، كمثل ذلك الإنسان الذي توجه إلى المحطة ليستقبل صديقاً، لكنه في الطريق استرسل في الثرثرة مع من يقابلهم بالصدفة – فتأخر.

هل يبحث الصوفي عن وجود الله؟ هل هو يخضع لتأثير تدريبات مقررة من قبل نبي أو معلّم؟ الجواب مرة أخرى: لا. هو لا يبحث عن حضور الإله، ذلك لأنه حين يكون هناك حديث عن حضور أو غياب – تظهر ثنائية، بينما هدفه – الاتحاد. وفي الاتحاد قد يكون عدم الحضور. والمتصوف بالضبط لا يسعى لكي يربط نفسه إلى الأبد بمعلّمٍ واحد. هو لا يرغب في الصعود إلى السماوات، لأنه يرى السماوات في كل مكان.

لمجرد أن يتمكن خيال الإنسان من تصور الإله أمام ناظريه، فإن الله يتجلى على الفور في فؤاده هو، الإنسان، نفسه. عندها، وقبل أن ينطق، فإن كلمته سوف تكون مسموعة من قبل الإله؛ وهو عندما يصلي في غرفته لا يكون بمفرده – بل هو مع الله. الله بالنسبة إليه لا

يوجد هناك، في مكان ما في السماوات التي لا تطال؛ بل بالقرب منه، أمامه، في داخله. هكذا تنتقل السماوات إلى الأرض، والأرض إلى السماوات. حينئذ يصبح الله بالنسبة للصوفي حياً و" ملموسا " أكثر من كل شيء، وأكثر وضوحاً، وبالتالي تكون جميع الأسماء و الأشكال التي تمرّ أمامه مشمولة به. كل كلمة في صلاة هكذا إنسان – هي كلمة حق وحياة. إنها تجلب البركة لصاحبها ولجميع المحيطين به. هذا النوع من الصلوات فقط هو الوحيد الحقيقي، وفقط بهذه الطريقة تبلغ الصلاة كمالها المنجز.

فما هو إذن هدف المتصوف؟ إنه يسعى للوصول إلى نوع من المعاناة، التي لا تمت بصلة إلى " المعاناة " بالمعنى العادي المباشر للكلمة. هناك اتجاهان: السعي إلى الحيوية والتظاهر، الذي يدخلنا إلى عالمنا المتنوع هذا، وميل إلى السلبية، التي تعيدنا إلى الحالة التي خرجنا منها. أما الكمال فهو لا يقوم لا على التظاهر لوحده ولا على عدم التظاهر بمفرده؛ إنما في اتحاد كليهما.

إن الروح في طريقها إلى التجلي تجمع حولها كل الذبذبات الممكنة من مختلف المستويات، التي دخلت في احتكاك معها – بدءا من الدقيقة للغاية وصولا حتى الاهتزازات الفيزيائية الثقيلة. وفي ذلك حكمة الخالق أيضاً. نحن لن نستطيع أن نسعد بالعلوي ما لم نفرح للسفلي؛ لما كنا نتلذذ بالحلو لو لم يكن هناك المر. لو كان كل شيء صحيحاً وعلى ما يرام لما كنا استطعنا الإحساس بهذا الحسن. لو أنه كان يوجد لون واحد لما كنا تلقينا أية لذة من اللون. هنا أتذكر كلمات الشاعر: " إلهي، امنحني فرصة أن لا أعيش في ذلك العالم، حيث الكافور والقطن والعظام تحسب جميعها بيضاء !". كلما كثرت الألوان، كلما ازداد عدد التباينات والتدرجات، كلما كانت سعادتنا أعمق وأقوى. آلاف، بل مئات آلاف النواقص موجودة فقط لكي تكون هناك حالة كمال عظيم واحدة. يخطر على البال ذلك الفنان الذي يرسم لوحة. لديه الألوان والفرشاة؛ هو يبدع صورة ما؛ وقد تكون الحركة الأولى، وربما الحركة المائة أو الألف، هي التي ستجعل الصورة مكتملة وصحيحة.

إن مهمة المتصوف – رفع الحُجُب. روح الإنسان محاطة بطبقة سميكة من مختلف الاهتزازات، بحيث أنها عاجزة عن رؤية ذاتها تحت تلك الارتجاجات. بواسطة التدريبات وتمارين أخرى يقوم الصوفي بداية بإزالة الجسد الفيزيائي، ويستكشف ما يمكن أن يشاهده من دون الجسد. ثم يبعد نفسه عن الحالة "النجومية" التي يعيش الإنسان فيها بأفكاره ومشاعره، ليرى ماذا يدرك من دونها. فالوعي أشبه ما يكون بستار يقف أمامه أحدهم مع مصباح صغير. حين يقع نور المصباح على الستار فإنه يرسم ويحدد ذلك القسم منه، الذي يتلقى الانطباعات.

إن الصوفي يسعى إلى تحقيق الذات وهو يبلغ مراده هذا بواسطة المثال الإلهي، إلهه هو. وهو بهذه الطريقة يستطيع ملامسة الحقيقة، التي هي الهدف النهائي وموضوع المساعي الملتهبة والحماسية لكل روح. وهذا ليس مجرد تحقيق الذات، أنه السعادة، التي لا يمكن وصفها بالكلمات. إنها السكينة – تلك السكينة، التي تشتاق إليها كل روح.

كيف يحقق ذلك الصوفي؟ وهو يمارس حضور الإله، مدركاً وحدة كل الوجود، وهو يعمل في كل لحظة؛ عن وعي أو من دون وعي، وهو يثبت أمام نظره الحقيقة، لكي لا يسمح لموجات الأوهام – وهي تتراكم على بعضها بلا توقف، أن تصرف نظره عن الحقيقة المطلقة. وليس مهماً كيف تسمى هذه أو تلك من الطوائف، أو العبادات والمعتقدات، بل المهم هو أنه ما دامت الروح تشتاق إلى ذلك الهدف، فإنهم جميعهم سيكونون صوفيين بالنسبة للصوفي. إن موقف الصوفي من جميع الأديان واحد – الاحترام فقط. أما دينه هو – خدمة البشرية وحسب، وغايته الوحيدة – إدراك الحقيقة.

المراحل المختلفة للتطور الروحي

توجد في اللغة السنسكريتية ثلاثة مفاهيم خاصة: هاتما[1] Atma– الروح الشاملة، وكذلك الروح المحددة، الفردية، الشخصية الذاتية؛ مهاتما Mahatma[2]- الروح العظيمة، الكائن المستنير، الشخصية الروحية؛ وباراماتما [3]Paramatma – الإنسان الإلهي (المقدس)، الإنسان الذي يدرك ذاته، الروح المُدرِكة للإله. كما هو مذكور في "الحيان – Gaiyan "[4]: إذا قمتم بدراسة الإنسان فسوف تجدون الكثير فيه " – لذلك إن الإنسان (و أنا اقصد كل إنسان) يمتلك إمكانية كبيرة لأن يتطور في النواحي الروحية. بل إن العقل العادي عاجز عن تخيل وسع المجالات الروحية المتوفرة للإنسان.

منذ القديم وبشكل أساسي تحت مصطلح " الإنسان الإلهي أو المقدس " يقصد الإنسان، وفقط القليلون يدركون أن المقصود في الواقع هو الإنسان – الإله. السبب في ذلك هو أن جميع المؤمنين يفصلون الإنسان عن الله، وهم يتلمسون بين الإنسان والإله هوة عميقة لدرجة

1 - هاتما: واحد من المفاهيم المركزية في الفلسفة الهندية والديانة الهندوسيةو يعني العنصر الأولي الروحي لظهور الكون... المترجم

2- المهاتما: باللغة السنسكريتية تعني " الروح العظيمة " كائنات علوية فوق بشرية تمتلك معرفة وقوة هائلتين مما يجعلها متساوية مع الأنا العليا المطلقة – المترجم

3 - البارامانما – في الديانة الهندوسية = الروح الكلية، روح الكون كله. في الصوفية = الروح العارفة، المُدركة لله – المترجم

4- الحيان – واحد من كتب عنايت خان وقد دوّن فيها الأفكار التي كانت تتوارد إليه خلال ممارسته التمرينات. والكلمة " Gayan " تعني حرفياً " الغناء " باللغة الهندية.. – المترجم

أنه تنشأ الحاجة إلى ملئها بما يسمونه هم الدين. العقيدة تقف حاجزاً بين الله والإنسان، إنها تلصق جميع الخطايا بالإنسان، وكل القداسة – لله. هذه الفكرة ليست سيئة، لكنها بعيدة عن الحقيقة.

على أساس المفهوم الأول – هاتما – يمكن تقسيم البشرية إلى ثلاث مجموعات. تتألف المجموعة الأولى من البشر – الحيوانات، الثانية – من البشر – الشياطين، والثالثة – من الكائنات الإنسانية. عن هذا يقول أحد الشعراء الهنود: "كم هي كثيرة المصاعب في الحياة، حتى الإنسان صعب عليه أن يكون إنساناً".

الإنسان – الحيوان يفكر فقط بالطعام والشراب، لا تختلف تصرفاته في شيء عن تصرفات الحيوان المشغول بتأمين حاجاته الطبيعية فقط. أما الإنسان الذي يحمل صفات شيطانية – هو ذلك الذي "أناه"، الأيغو، قد أصبحت عنده قوية ومؤثّرة لدرجة كبيرة جداً – ولذلك عمياء، بحيث أن "أناه" قد أزاحت وطردت عملياً منه أي احساس بالنبل، بالخير وبالعدل. هكذا كائن يستمد لذته من تعاسة الآخرين، يقابل الخير بالشر، يشعر بالمتعة من تصرفاته الخرقاء. إن عدد المنتمين إلى هذه المجموعة كبير جداً.

ثم هناك الإنسان العاقل – ذاك، الذي لديه مشاعر سامية و أحاسيس متطورة. ربما أن الأطباء لديهم تصور آخر عن الإنسان السوي، لكن من وجهة نظر التصوف فقط الإنسان الذي لديه يوجد توازن بين العقل والشعور، فقط الإنسان المتيقظ لمشاعر الآخرين، وذلك الذي هو يدرك جميع تصرفاته ويراعي نتائجها المتوقعة على المحيطين، فقط هذا يكون إنساناً عاقلاً. غير ذلك من الصعب على الإنسان أن يصبح إنساناً ببساطة. وقد يتطلب ذلك الحياة بكاملها.

المهاتما – هو الروح المستنيرة. أنه ينظر إلى الحياة من زاوية أخرى. هو يفكر بالآخرين أكثر مما بنفسه؛ حياته مكرسة لفعل الخير والإحسان. هو لا ينتظر التقدير أو المكافأة على كل ما يقوم به تجاه الآخرين، لا يتوقع الشكر أو التكريم على كل ما يفعل، أنه لا يبحث عن المديح ولا يخاف الانتقاص. وقد اتحد من جهة مع الله، ومن جهة أخرى – مع العالم، هو يعيش منسجماً وفي هارمونيا بقدر المستطاع. لماذا هو يختار لنفسه طريق التقوى والعدل؟ لماذا يقضي حياته وهو يعلّم البشرية ومبشّراً لها؟ إنه يقوم بذلك لأن هذا طبيعيٌّ بالنسبة إليه؛ إذ أن كلَّ قلب محبٍّ ومستنير يتعطش لرؤية الآخرين يظفرون بالانتصار.

هناك ثلاثة مستويات للمهاتما. الأول يتحارب مع نفسه ومع الشروط من حوله وبالقرب منه. لماذا هو مضطر للقتال؟ الجواب هو: دوماً هناك صراع بين الإنسان الذي يسعى نحو التسامي وبين الريح المقابلة التي تدفع به إلى الوراء. كل فرد يخطو على درب التقدم يشعر بالمقاومة الدائمة لتلك الريح. الريح هنا – هي الصراع مع الذات، الصراع مع الآخرين، مع الظروف المحيطة، الصراع الذي ينشأ من كل ما يحيط طالما أن كل جزء من المهاتما يختبر ويجرّب، طالما أن صبره لما ينضب بعد بالكامل، و" أناه" لم تختفِ بعد. إنها جلمود قاسٍ تتحول إلى عجينة ليِّنة. فالجندي قد يصاب أثناء الحرب بجروح كثيرة وبانطباعات أصعب وأقسى تبقى في الروح كما الجروح. هكذا هي حالة المحارب الذي يخطو على درب الروحانية، لأن كل شيء ضده: الأصدقاء، رغم أنهم لا يعلمون بذلك؛ الأعداء ، الظروف، المحيط و" الأنا ". لكن الجراح التي يصاب بها في المعركة، والانطباعات التي يحملها معه من هناك، تجعله شخصية روحية، شخصية يصعب الوقوف بوجهها، شخصية لا يمكن الانتصار عليها.

الصنف الثاني من المهاتما يقدم درساً في السلبية، التسليم، التضحية، المحبة، التبجيل والرضى. يحدث أن يكون الحب أشبه بلهيب الشمعة: انفخْ وسوف تنطفئ. كل ما يمكنها – أن تضيء، طالما لم ينفخوا عليها. فهي لا تستطيع الصمود في وجه النفخ. وهناك حب آخر يشبه الشمس، التي تشرق وتبلغ السمت، ثم تنحدر وراء الأفق وتختفي؛ إنها تبقى فترة أطول. لكن هناك حب يشبه العقل الإلهي، الذي كان موجوداً وهو موجود الآن وسيكون دائماً. فتحُ أو إغلاق العينين لا يُذهب العقل. الشمس قد تشرق وتغرب، لكن حركتها في السماء لا تؤثر على العقل. عندما يُولد هكذا حب، الذي يستطيع تحمل الريح والعاصفة بل ويصير أشد وأوثق بعد الارتفاعات والانكسارات، حينها تصبح اللغة البشرية مختلفة – لا يعود العالم قادراً على فهمها. لمجرد أن تبلغ المحبة ملاك الحب، عندئذ تصبح شبيهة بمياه المحيط التي ترتفع على شكل أبخرة تتجمع في غيوم فوق الأرض لتنزل مطراً عليها. لا يمكن أن نتصوّر أن هكذا قلب قد يخضع للتقلبات المتكررة.؛ ليس الناس فقط، بل الطيور والحيوانات أيضاً لا يمكنها أن لا تشعر بتأثيره. مثل هكذا حب لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، وهو يبرهن على دفء الأجواء التي يصنعها. إن

روح المهاتما الوديعة المستكينة قد تبدو ضعيفة لمن لا يعرفه ولا يستطيع فهمه، لأن المهاتما يتقبل سوية الجائزة واللعنة، وكل ما يُعطى له: الاستحسان وعدم الاستحسان، الفرح والألم. هو يتلقى كل ما يأتيه بخشوع وبهدوء.

بالنسبة للصنف الثالث من تلك الأرواح الفائقة التطور، هناك صراع – من جهة، وسكينة – من جهة أخرى. وهذه الطرق هي الأصعب من حيث التطور: خطوة إلى الأمام، خطوة أخرى – نحو الخلف وهكذا. هذا التطور يخلو من الحركة، لأن كل خطوة توازيها خطوة مقابلة مناقضة لها. من جهة – الروح تهتدي بالقوة، من جهة أخرى ـ بالحب، من جهة – بالهيبة وبالجلال، من جهة أخرى – بخنوع عبودي. يقول الإمبراطور غز نويْ[1] في إحدى القصائد الفارسية: "كإمبراطور أنا لدي آلاف العبيد المستعدين لاستجابة ندائي. لكن منذ أن احرق الحب قلبي، أنا أصبحت عبد عبيدي". من جهة – عنصر نشط، من ناحية أخرى – عنصر سلبي.

الصنف الأول من المهاتما يمكن أن يُسمى المعلّم، الثاني – المقدس، الثالث – النبي.

باراماتما – هذه هي أعلى مراحل يقظة الوعي. الإنسان العادي يولي أهمية أكبر للعالم و أقل للإله؛ المستنير – أهمية أكبر للإله و أقل للعالم. أما الباراماتما ففي نفس الوقت يقيم ولا يقيم أهمية للإله وللعالم. إنه هو ما هو. وإذا قيل له: "هذا كله حقيقة"، – فسوف يجيب: "نعم، إن كل هذا حقيقة". وإذا قال له أحدهم: "هذا ليس حقيقة"، – سيجيب: "نعم، هذا ليس حقيقة". وإذا قيل له: "كل شيء حقيقي وغير حقيقي في نفس الوقت"، – سيجيب: "نعم، كل هذا حقيقي وغير حقيقي في نفي الوقت". يصير كلامه غير مفهوم وأشبه بلغز. إذ من الأسهل التعامل مع الذين يتكلمون لغتنا، علما أن معنى الكلمات لا يتغير تقريباً، فإن اللغة تتعرض للتغيير أيضاً، فهي تصبح غريبة، كما لو أنها لغة اجنبية مقارنة مع الكلام العادي. فالكلمات لا تعني شيئاً بالنسبة للباراماتما، ما يهمه هو المضمون الباطني للكلمات. بل حتى لا يجوز القول أنه يفهم المعنى: إنه هو نفسه المعنى. هو يصير ذاك الذي يسعى إليه الآخرون.

1 – محمود غَزنويْ ٩٩٨ – ١٠٣٠ إمبراطور بلغت خلال حكمه الدولة الغزنوية أوجها.. وكانت تضم أفغانِستان و أجزاء من ايران والهند – المترجم

النزعات النبوية

توجد نزعة نبوية في كل ظهور. هي موجودة عند الجن والكائنات السماوية، وكذلك في أي جزء من الطبيعة، في مملكة النبات والحجر، بين الحيوانات، وكذلك بين البشر.

لو لم يكن للألماس ذلك البريق لما كانت توجد في العالم مناجم الماس. وحده بريق الألماس يمكن أن يصبح سبباً لكي تتحول أية ذرة أخرى على الأرض إلى الماس لمجرد أنها دخلت في احتكاك مع الألماس، ونفس الشيء بالنسبة للياقوت الأحمر. الألماس يسعى لتحويل كل شيء إلى الماس، والياقوت يريد تحويل كل ذرة أخرى إلى ياقوت.

أما بخصوص النباتات، فيجب الدخول إلى الأجَمَة (الغابات)، - لكن ليس إلى حيث يحرث ويزرع الإنسان، بل إلى الغابات الحقيقية البكر، - كي نلاحظ أنه إلى جانب شجرة مانجو واحدة سوف تنمو اشجار مانجو أخرى من كل بد. وهناك، حيث توجد ولو زهرة عطرة واحدة، ستظهر آلاف الأزهار العطرة. وحيث توجد ثمرة حلوة لابد ستظهر مئات الثمرات الحلوة.

بين الحيوانات أيضاً يوجد عدد كبير من أمثال هذه الظاهرة. مثلاً، في الهند يحدث أحياناً أن تخرج القرود من الغابة وتقوم بتخريب اسطح المنازل. دوماً يوجد بين تلك القرود قائد. حين يقفز هو تقوم جميع القرود الأخرى بالقفز وراءه. وعندما يقرر العودة إلى الغابة – تعود جميعها إلى الغابة.

في المناطق الشمالية وراء نيبال ونانينيتال، عند أسفل جبال الهمالايا، تعيش في الأجمة أعداد كبيرة من الفيلة. وقد ابتكر السكان المحليون طرقاً مختلفة لاصطياد الفيلة، وإحدى

تلك الطرق هي حفر حفرة وتغطيتها بالأغصان أو بالشباك. ثم يقومون بتعليق همكة (نوع من الخيام) على الشجر، حيث يمكثون هناك أياماً وهم يترقبون الفيلة. وبما أن الطقس ملائم هناك فإنه لا مشكلة لديهم. إذا سار قطيع الفيلة في هذا الدرب فلا بد سيقع واحد منهم في الحفرة، ولن يتمكن من الخروج. وحين يلجأ للصراخ، فإن الفيلة الأخرى ستبقى في مكانها وتنظر من بعيد، دون أن تقترب. عدا ذلك، لدى البشر مناش (قرقوعة) تساعدهم في إبعاد الفيلة فيما لو تجرأت على الاقتراب.

يوجد في أيامنا هذه بين الفيلة دوماً فيل واحد يسير في المقدمة. إنه يمسك في خرطومه بغصن متين، يضرب به الأرض قبل أن ينقل الخطوة التالية، كي يتأكد أنه لا توجد حفرة. إذا لم تكن هناك في الطريق مصيدة فهو يمشي أولاً ، ثم تمشي خلفه بقية الفيلة. مثل هذا الفيل يعرف آلاف الأخطار الأخرى ، والقطيع يثق به لدرجة أنه مستعد للسير وراءه حيثما يمشي هو. هذا يبين أنه يوجد لدى الفيلة صفات قيادية، وكذلك استعداد للتضحية الذاتية. الفيل – القائد يسير في المقدمة، وهو يدرك أنه لو كانت هناك حفرة فسيقع فيها، لكن حينئذ ستكون الفيلة الأخرى في مأمن. مع ذلك هو حذر، نادراً ما يتجه إلى حيث الخطر، وإذا ما وقع أحد الفيلة في المصيدة فغالباً ما يكون، عادة، فيل حَدَثٌ لا يعرف ضرورة أن يتبع القائد.

كان يوجد في نيبال مهراجا، الذي يمتلك مثل هذا الفيل – القائد. عاش الفيل في قصر المهراجا، وقد منع المهراجا أحداً غيره من ركوب هذا الفيل، لأنه كان يحترم هذا الفيل لمعرفته بميزاته. لقد رأيت هذا الفيل بنفسي. حين كان المهراجا بير شامشير Bir Shamsher يذهب إلى الغابة لصيد الفيلة، كان يحضر معه ذلك الفيل. كان المهراجا يدعوه بيدجيلي Bidjily ، أي ما معناه "المضيء". كان الفيل صغير الحجم، وكان، في حال لم ينجح الصيد، تلبية لأمر صاحبه، يذهب إلى الغابة ويحضر معه فيلاً آخر – هكذا كانت مغنطيسيته. لم يكن يحب اصطياد الفيلة، لأنه كان مأخوذاً بالرحمة، وما كان ليقوم بذلك مطلقاً لو لم يجبره المتسابقون؛ وكان يدير رأسه حين يشاهد فيلة أخرى. هذا يظهر كيف أنه حتى بين الحيوانات توجد النزعات النبوية.

أحياناً نرى هذه النزعة النبوية عند الأهل. بغض النظر عن الدرب الذي سلكوه هم أنفسهم، إنهم يحاولون توجيه أبنائهم إلى طريق آخر، أفضل وأكثر رفعة. وأحيانا قد نرى تلك النزعة في الصديق: مهما تكن التجربة التي عاشها، هو يحاول حماية صديقه من الوقوع بها. لكن فقط أصحاب القلوب المختارة والأرواح الخيرة يمتلكون هذه النزعة. إذ لن تجدها عند كل الأهل أو عند كل صديق. أن يمتلك المرء هكذا أهل وهكذا صديق – بركة عظيمة.

ماذا يمكن أن يكون الهدف من الممارسة النبوية؟ لقد انقضى تطور الإنسان، بحيث أنه في الأزمان القديمة كان أقرب إلى الحيوان منه إلى ما هو عليه الآن. في زمن ما كان همه الأول تأمين الطعام والشراب، وغايته القصوى كانت تخليص الآخرين ما لديهم، دون أن تقلقه نتائج أفعاله. هكذا بقي الأمر إلى أن تم إيقاظ الإنسان من الكينونة الحيوانية.

تم إرسال الأنبياء من أجل إيقاظ الإنسان، تماماً كما يحصل الآن عندما يلجأ الناس، الذين لا يستطيعون الاستيقاظ صباحا، إلى استخدام المنبِّه. لقد كان الأنبياء بمثابة تلك الإشارة. من وقت لآخر، من أجل إيقاظ الناس، كانت تنشأ الحاجة إلى السلطة؛ عندئذ كان يظهر نبي – ملك، مثل النبي سليمان. وفي بعض الأحيان كان الجمال هو الذي يبشر الناس، لذلك جاء يوسف، الذي كان لديه مظهر ووجه رائعين لدرجة أن جميع القلوب كانت تذوب تحت تأثير مغنطيسيته.

هكذا كانت تسير المشيئة الإلهية دوماً – بَعْثُ النبي المطلوب في الوقت المعين. إذا احتاج الأمر إلى الوقار– ظهر يعقوب، الذي كان الجميع ينحنون أمام وقاره. وفي الوقت الذي انتشر الإعجاب بالموسيقى وكانوا يتحسسونها بعمق كبير جاء داود؛ الذي كان يتمتع بصوت جميل وبعبقرية العزف على الناي. لقد نقل رسالته بواسطة الأغاني. هكذا، كل نبي ظهر في الهيئة التي كان يمكن للناس فهمه فيها. لكن بما أن عقل الإنسان بداية لم يكن متطوراً كفاية و" الأنا " قد غطت نهائياً على عيون كل واحد، فقد كان واجباً على الأنبياء قبل كل شيء أن يجددوا " الأنا " الخاصة، ولذلك بالضبط كانوا أنبياء. عندما " الأنا " تحجب عيون الروح، فإن الروح تصير عمياء.

هناك مقولة كما لو أن كلمات النبي تشبه الأختام على أسرار الرب. هذا يعني أنه كما الختم يحمي مضمون الرسالة، وحين يكسر الختم ويصبح السر الذي نريد الاطلاع عليه مكشوفاً، كذلك هي كلمات النبي. فالختم ليس هو الرسالة، هو مجرد ختم؛ وهكذا هي كلمات النبي. ولكن قد تحين لحظة في حياة الإنسان عندما يكون قادراً على تمزيق الختم. وقد يتم فض الرسالة خلال شهر، خمسة أشهر، خلال خمس سنوات أو أكثر، لكن لا شك سيجيء ذلك الوقت، وعندما ترفع الاختام – حينئذ كل شيء سيكون مكشوفا كما في الرسالة.

في يوم من الأيام قمت بتلحين قصيدة لشاعر فارسي مُلَهم ورحت أغنيها بسعادة بالغة، لأن كلماتها كانت ذات معنى رائع. في نفس الوقت أحسست أن محتوى تلك الأبيات يتجاوز حدود فهمي. لقد شعرت بوضوح تام أن هناك ما هو مخفي ومختوم. وبعد مرور خمس عشرة سنة، وبينما كان عقلي يبحث عن تفسير لأحد الإلهامات، إذ بصوتٍ يجلب الحلَّ إلى عقلي. لم تكن هناك أية حدود لفرحتي من جراء رفع الختم، الذي بقي مغلقاً خمس عشرة سنة!. لكل شيء وقته المحدد. ومتى يحين هذا الوقت يصبح كل شيء واضحاً. لذلك، رغم أننا من جهة نستطيع أن نسعى بكل قوتنا نحو الالهام، من جهة أخرى يجب أن يكون لدينا ما يكفي من الصبر بانتظار لحظة حلوله.

بالرغم من أن صوت الرب ينتقل باستمرار من خلال كل شيء كي يبلغ الآذان الصماء للكثيرين منا، فهو مضطر لأن يتحدث بلسان الإنسان. إنه يفعل ذلك على امتداد كل التاريخ البشري، وكل معلّم عظيم من الماضي يعتبر روحاً قائدة لنا، تعيش حياة الرب في هيئة إنسان. بكلمات أخرى، لقد كانت تجلياته البشرية عبارة عن لبوسات مختلفة على نفس الكائن، الذي كان يبدو فقط بشكل مغاير في كل مرة. شيفا، بوذا، راما، كريشنا، من جهة؛ إبراهيم، موسى، عيسى، محمد – من جهة أخرى وكثيرون غيرهم، أنبياء معروفون أو مجهولون في التاريخ – جميعهم، في الواقع، كانوا شخصاً واحداً.

أولئك الذين يتعرفون إلى المرسل، حين يشاهدونه، يتعرفون إليه في أية هيئة أو مظهر؛ بينما أولئك الذين يستطيعون رؤية فقط الغطاء، فهم يضلّون. لهذا السبب بالضبط يؤمن

الصوفي بمعلّم واحد، بغض النظر عن الاسم الذي يحمله في مراحل مختلفة من التاريخ. هو يجيء كل مرة كي يوقظ البشرية من نوم هذه الحياة الواهمة، ليقوده إلى الأمام برعاية إلهية. وحين يكتمل الصوفي في نظرته تلك إلى الحياة، فإنه لا يتعرف إلى سيِّده في القديسين فقط، بل وفي الحكماء والحمقى، في الأخيار وفي المذنبين، ولن يسمح أبداً لسيده، الذي هو السيد الوحيد الاحد والذي كان وسيكون دائماً، أن يختفي من ساحة بصره.

أليس مصدر كل الحقائق هو مخبأ في قلب كل إنسان، سواء كان مسيحياً، مسلماً، بوذياً، أم يهودياً؟ ألسنا نحن جميعاً جزء من تلك الحياة، التي نسميها روحية أو إلهية؟ أن نكون فقط هذا أو ذاك يعني أن لا نذهب إلى أي مكان أبعد من هذا أو ذاك. إن السلام الذي نكسبه في أثناء خلوتنا هو مخفي داخل كل إنسان، لقد ورثه من الأب السماوي. هذا يدعى في علم المصطلحات الصوفية بالنور الخارق. والنور هو مصدر وأساس كل روح بشرية وكل عقل.

ينظر المتصوف إلى جميع الحيوات (جمع حياة) كحياة وحيدة، والى كل الأديان كما إلى دينه هو: احسبه مسيحياً وهو سيعتبر ذلك صحيحاً، احسبه مسلماً، فهو سيكون كذلك، سميه هندوسيا، وهو سيجيب أنه يشعر نفسه كذلك، خاطبه كما تشاء، وهو لن يجادل. مَن دعاه متصوفاً؟ فقط ليس هو نفسه. لكن إذا كان هو لا يلقب نفسه باسم ما، فلا بد سيجد أحد ما له اسماً بالتحديد.

الإنسان – هو غاية الخلق، وهو أرفع كائن، لأنه إنسان. وحده هو الذي يعرف الهدف، الذي من أجله ظهر، ولأي سبب هو هنا. القطط والكلاب لا تعرف ذلك. كل كائن في هذا العالم يطمح لأن يصير إنساناً. الجن ترغب لو تصبح بشراً مثلها مثل الصخور والنباتات والحيوانات.

لكن القدرة الإلهية كانت تطمح إلى خلق إنسان مختلف عن ذاك الذي يوجد عادة؛ فالإنسان الذي يريد الرب رؤيته يجب أن لا يحيا من أجل الطعام والشراب والنوم فقط كما هو الحيوان. إذا أراد الإنسان أن يعرف كيف يجب أن يكون فما عليه سوى أن يقارن نفسه مع

الحيوانات. هو يأكل وهي أيضاً تأكل، هو يشرب وهي أيضاً تشرب؛ هو ينام وهي تنام؛ هي تعيش الأشواق والشهوات، الحقد والغضب، كما هو. وإذا كان هو مجرد كل هذا فهو ليس بإنسان. في الإنسان فقط نحن نكتشف الشفقة، الرحمة، الانضباط، الرقة وغير ذلك من الصفات؛ وحين نلاحظ مثلها لدى الحيوانات، عند الكلاب والقطط، الخيول والبقر – مثلاً كالوفاء عند الكلاب، الشجاعة والطاعة عند الخيول – فإن هذا مجرد انعكاس لتأثير الإنسان عليها بفضل احتكاكها معه. لو ذهبنا إلى شاطئ النهر ورحنا نجمع الحصى، سوف نصادف مجموعة من الحصى الصغيرة التي تشبه وجه الإنسان. ربما ينقصها الأنف أحياناً، وربما الشفاه، لكن دائماً هناك بعض العلامات القريبة من الهيئة البشرية. يا لها من ملاحظة رائعة! كم هذا جميل! إنه يظهر لنا كيف أن كل شيء يطمح لأن يشبه الشكل البشري، أن يصير إنساناً في الواقع.

من المعروف أيضاً أن الإنسان وحده يمتلك الإحساس بالمسؤولية. هذا غير موجود عند الحيوانات. وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: " إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان " (الأحزاب آية٧١ – المترجم). هذا يعني أن الإنسان فقط يمكنه تحمل مسؤولية أفعاله. وتتابع السورة: "..إنه كان ظلوماً جهولا ". كان غبياً لأنه يحسب شأنه ما هو شأن الله. مثلاً، الكثيرون يرفضون الزواج لأنهم يعتبرون الزوجة والأطفال – مسؤولية وعبء. هم لا يفهمون أن الزوجة والأولاد من عند الله وأن الله يرعى ما هو له. والإنسان قاس لأنه يلحق الضرر بالآخرين وهو يستعمل سلطته وقوته، اللتين هما كذلك من عند الله. إرادتنا، قوتنا – كل ذلك من عند الله، بينما نحن نقول " قوتنا " و" سلطاننا "؛ نحن نرجعها إلى أنفسنا.

يقف الحارس في مكانه من المساء وحتى الفجر. خلال النهار لا حاجة للمنبه إذ أنه وقت النهار. لقد تم إرسال الأنبياء أثناء الليل. لقد جاءوا بنفس الرسالة، لكن تحت أسماء مختلفة؛ نفسها الحكمة الإلهية نطقت من خلال كل واحد منهم. لكن لو سألت يهودياً: " هل تعترف أنت بكر يشنا وراما؟ "، – سيجيبك: " لم اسمع أبداً عن كريشنا أو عن راما، أنا

اعترف بموسى، لأنه هو الذي جاء ذكره في كتابي " . ولو سألت هندوسياً : "أتعترف أنت بموسى أو بالمسيح؟ "، – لأجابك: " كلا، أنا أؤمن بـ كريشنا وبـ راما وبـ فيشنا وبـ الفيدنا . أنتم يمكنكم أن تؤمنوا بموسى وبالمسيح، أما أنا فسأتبع راما وكريشنا وفيشنا " هناك من يفضّل القبالة على الإنجيل ويقرون القبالة فقط . إذا توجهت إلى كاثوليكي فسوف تسمع: " لا كنيسة سوى كنيستي " . الجميع يعترفون بالأسماء وبالأشخاص، لكنهم لا يعترفون بالحقيقة. هم يريدون حَبْس كريشنا في المعبد، والمسيح في الكنيسة، وموسى في الكنيس . لذلك يوجد اليوم عدد كبير من الباحثين عن الحقيقة.

في كل حقبة كانت الرسالة تتوضح أكثر فأكثر، بما يتفق مع قدرة العالم على تحملها. وهكذا استمر الأمر حتى نزول الوحي الأخير والأكمل – رسالة محمّد (ص)، خاتم الأنبياء . بعد ذلك لم تظهر حاجة في الأنبياء؛ فقد أصبح العالم جاهزاً لتقبل الواقع الحقيقي. لم يعد الزمن بحاجة لمجيء نبي جديد، جاء الوقت كي نكتشف الحقيقة في ذاتنا بأنفسنا. إذا كان لديكم صديق يسير في هذا الدرب، فمن المناسب أن تسألوه النصيحة.

إن رسالة المتصوف لا تقوم على التدخل في ديانة أيّ كان أو فرض عقيدته على الآخر. الصوفي لا يقول أبداً لأي شخص كان بماذا يجب أن يعتقد وبماذا يؤمن. المرشد – هو صديق ودليل. هو ينصح فقط، دون أن يقسر على شيء . أنا ولدت في عائلة غير مسيحية، لكن لم يكن هناك مسيحي تأثر بكلام المسيح أكثر مني. إذا فُهِمَت بشكل صحيح فهي كافية لأن تحول الإنسان إلى قديس. مكتوب أنه في النهاية قد صُلِب، لكن منذ الولادة و إلى النهاية كل لحظة هي بمثابة الصلب. العالم قاس جداً مع أرواح الأنبياء . إن قلوبهم رقيقة جداً بالنسبة لهذا العالم.

لم يقم أي برامين (رجل دين بوذي – المترجم) بدراسة الفيدا بحماس أكبر من حماسي. إذا عرف الإنسان براهما فقد عرف الله، وهو فعليا – برامين، وهل يقرّ بذلك البراهمنة، فهذا سؤال آخر. الصوفي يقول: " هل تريد أنت أن تعرف الإلهام؟ هل تريد أن

تكتشف الوحي؟ هاك هو الطريق إلى ذلك: ليكن ايمانك بالقدر الذي يسمح لك عقلك أن تؤمن به، بالقدر الذي يمكنك أن تدركه، لا تؤمن بما لا يسمح لك عقلك أن تؤمن به".

الصوفي يقر بحكمة إلهية واحدة في جميع الرسالات النبوية. هو يرى نفس الكينونة الأزلية في كل شيء، بأشكال مختلفة وفي مختلف الأزمان. هذا كمثل أن يصنع أحدهم صوراً للمعشوق في مراحل زمنية مختلفة: في الثانية عشرة، في العشرين، في الثلاثين، في الأربعين. الصور مختلفة، لكن عليها جميعها — هو، نفس الشخص المحبوب.

الرؤية

يمكننا أن ننظر، يمكننا أن نرى ويمكننا أن نراقب. الكلمات الثلاث تعني الفعل نفسه، ومع ذلك كل كلمة توحي بشيء مختلف. عندما نراقب فنحن نفهم ما نقوم بمراقبته؛ وعن طريق الرؤية نحن نحصل على وصف كامل للموضوع. أما الملاحظة فتعني أننا نلقي نظرة خاطفة بدون استيعاب كاف أو تفهم وإدراك للموضوع. إذن هنا توجد ثلاث حالات: النظر إلى سطح الشيء، النظر إلى الشيء بشكل مباشر والنظر إلى الشيء مع تفقده وتفهمه في نفس الوقت.

كل شخص يستقبل الأشياء والظواهر عن طريق إحدى تلك الوسائل الثلاث. يقوم الشخص عادة بدراسة ما يخصه بانتباه أكثر؛ أما الذي يلفت اهتمامه ببساطة فهو يقوم بملاحظته ومجرد النظر إليه؛ و أخيراً، هو ينظر إلى ما يقع تحت بصره بالصدفة. ولذلك، إن كل ما يحيط بالإنسان وواقع في مجال استقباله يمارس عليه التأثير بثلاثة طرق مختلفة: ذاك، الذي يتفقده الإنسان بالكامل، هو يمارس عليه أعمق التأثير؛ وما يراه ببساطة الإنسان، يمارس تأثيره بشكل واضح، و أخيراً، ما يلمحه الإنسان – له تأثير عابر. لهذا السبب يوجد في العالم الحكماء، المفكرون وأولئك الذين لهم زوج عيون فقط.

هناك جانب آخر لهذه المسألة: الشخص الذي يمشي – يتلقى نوعاً محدداً من الانطباعات عن دربه، وذاك الذي يسافر في سيارة يتلقى خبرة مختلفة، وتجربة مَن يسافر في طيارة يختلف عن سابقيه. ربما الراجل لن يبلغ الهدف بنفس سرعة المسافر في سيارة أو طيارة، لكن الملاحظات التي سينجح في تدوينها، والمشاهد التي سيتمكن من رؤيتها،

والخبرة التي سيحصل عليها مِن كل ما يلقاه في طريقه، ستكون أعظم و أبلغ بكثير من ملاحظات الاثنين. عقلنا يتصرف بنفس الطريقة بالضبط. واحد عقله يعمل بسرعة الطائرة، وعند آخر – بسرعة السيارة، وأما عند الثالث فالعقل يعمل بسرعة الإنسان الماشي. ذلك الإنسان الذي عقله يعمل بسرعة الراجل لا ير تكس، على الأرجح ، بنفس سرعة الآخرين ، لكنه يناقش ويحلل الأمور بدقة، ويتفحص كل ما يراه بشكل أفضل . بالضبط إن مثل هكذا إنسان هو الذي يستطيع التغلغل إلى داخل الأشياء، هو بالتحديد مَن يمكنه أن يلاحظ القوانين الجوهرية الداخلية ، المتخفية وراء الشكل الخارجي للأشياء ، لأن عقله يمتلك نشاطاً عادياً وطبيعياً. التفكير لا يتعلق دائماً بسرعة عمل العقل فقط؛ كثيراً ما تكون نوعية العقل هي الأهم.

الإنسان العاقل يفكر أيضاً بسرعة، لكن ليس هذا هو المهم. فقد يكون الفرق بين نوعين من الأحجار هائلاً جداً. لنأخذ ، مثلاً، الألماس والحصى – هذا وتلك هي أحجار، لكن الأول حجر ثمين، والثاني – حجر باهت لا قيمة له . هكذا توجد صفتان مختلفتان للعقل : أحدهما سريع ومنطقي (سديد)، والآخر أيضاً سريع لكنه يخطئ كثيراً. هو يخطئ لأنه يفكر بسرعة، في حين أن ميزة العقل ، من ناحية أخرى ، هي التي تجعل الإنسان يفكر بشكل صحيح حتى في ظروف التفكير السريع . بغض النظر عن كل شيء ، إن إيقاع التفكير يلعب دوراً هاماً للغاية في حياة الإنسان . عندما يلتقي أولئك الثلاثة ، الذين سافروا: راجلاً، في السيارة، وفي الطيارة، ويتبادلون الانطباعات، فسوف نلحظ الفرق الكبير في كلامهم. هذا يفسر لماذا يكون الناس، الذين يعيشون حياة متشابهة في نفس الفترة، تحت شمس واحدة ومولودين في أرض واحدة، مختلفين لهذه الدرجة من ناحية القدرات الذهنية . السر يكمن في أن عقولهم تسافر بسرعة مختلفة. بالتالي، إن ملاحظاتهم واستنتاجاتهم الحياتية متميزة عن بعضها، رغم أنهم يسافرون في طريق واحدة.

المستبصر (المتنبأ) لا ينظر وحسب ، إنه يبصر . وكيف يبصر هو؟ مراقباً الدافع لأن يسير بسرعة أكبر، مقاوماً الإغواء بأن يمشي ذات اليمين أو الشمال، هو يخطو مباشرة إلى الهدف، الذي يريد بلوغه. كل هذا يساعد الإنسان أن يصبح مستبصراً وحكيماً.

فالمستبصر يرى أكثر مما ، على سبيل المثال ، يراه الفلكي – أكثر بكثير . بل لا يوجد وجه للمقارنة هنا . لكن المستبصر لا يتحدث عما شاهده ؛ إذا تكلم يصبح أشبه بالفلكي . روح كل إنسان بالنسبة للمستبصر هي أشبه برسالة مفتوحة . لكن إذا راح يفشي الأسرار المؤتمن عليها ، عندها إن نظرته ستصبح مع مرور الوقت باهتة أكثر فاكثر ، لأن هذه الثقة هي معطاة له من الرب . والثقة الروحية تُعطى لمن يجيد المحافظة عليها ، ولمن يحسن الاحتفاظ بالأسرار .

هناك تفسيرات عديدة غير صحيحة لكلمة " المتنبأ أو المستبصر " . أحياناً يظن الناس أن المستبصر – هو مَن يقرأ المستقبل أو يستحضر أرواحاً . لكن أولئك هم أشخاص آخرون ، هم ليسوا مستبصرين . بالنسبة للمستبصر لا توجد حاجة لأن يرى ما وراء العالم ، إذ يكفي ما تجب رؤيته في العالم الفعلي ! . في العالم الواقعي يوجد الكثير مما قد يراه الإنسان لكنه يمكث في حالة مخبأة عن عيونه ، ولو أنه كرّس كل حياته في سبيل رؤية ما هو مرئي ، لكان وجد أكثر مما يلزم من المواضيع التي تستحق التفكير بها . عند أولئك الناس ، الذين يحلمون كي يصبحوا شهود ما لم يره أحد من قبل ، عندهم ينطق الفضول الطفولي البسيط . هذا هو الغرور – أن تقول للآخرين أنك ترى ما هم ليسوا قادرين على رؤيته . لكن العالم المرئي وغير المرئي هما عالم واحد وكلاهما هنا . إذا كنا عاجزين عن رؤية العالم المرئي ، فليس لأنه مخبأ عن أعيننا ، بل لأننا نحن الذين نغمض عيوننا عنه .

عدا عن ذلك ، إن النظر قد يكون بعيداً ، قريباً ومتوسطاً . ربما يكون أحدنا بعيد النظر أو قادراً على رؤية ما سبق من أحداث بزمن طويل ، بينما آخر يرى فقط ما يحدث في اللحظة الراهنة أمامه ، دون أن يلاحظ أي شيء خلف ظهره . لذلك فإن تأثيره يبلغ فقط الأشياء التي أمامه ، وهذه بدورها تؤثر عليه . لكن هناك إنسان يتفكر حول ما يراه ، هذه نظرة متوسطة البعد . إن تحليلاته تذهب بعيداً إلى الدرجة التي يسمح بها عقله . هو لن يرى أبعد من مناقشاته ؛ إنه يبلغها ولا يتعداها خطوة واحدة . بالطبع ، إذا التقى هؤلاء الثلاثة وتجاذبوا أطراف الكلام ، فإن كل واحد منهم سينطق بلغته الخاصة . ولا غرابة ، أن لا يفهم أحدهم

وجهة نظر الآخر، لأن كل منهم يمتلك رؤيته الخاصة التي تنسجم مع طريقة نظره إلى الأشياء . دون أن يتمكن أي منهم من نقل نظرته للآخر كي تتغير نظرة ذلك الآخر للأمور .

إذا كان الأشخاص الروحانيون على مرّ الزمن قد قاموا بتعليم العقيدة، فذلك ليس لأنهم رغبوا في أن لا يفكر جميع الآخرين من تلقاء ذاتهم، ليقبلوا كل شيء بشكل ايماني أعمى فقط. لو كانت لديهم مثل هكذا نيّة – لما كانوا شخصيات روحية. لكن، مهما يكن المرء ذكياً، ومهما كان مخلصاً ومُلْهَماً، فإن الأشخاص الروحانيين لن يستطيعوا تقاسم معارفهم معه، ما لم تكن لديه عقيدة. ذلك لأنه لا يوجد شيء أثمن من المعرفة الروحية بمعنى التعليم. إن يكون هناك شيء روحاني قابل للقسمة مع التلميذ، فإنما هو وجهة النظر وطريقة فهم الحياة. لكن الواقع هو أنه، إذا كان لدى الإنسان وجهة نظر معينة، فهو لن يحتاج إلى قيادة روحية، وإذا لم تكن لديه تلك النظرة، فإن كلمات الشرح لن توضح له شيئاً – إذ أن وجهة النظر غير قابلة للشرح بالكلمات .

كمثل مَن يحاول وصف النور الذي رآه من قمة جبل لشخصٍ لم يسبق له أن صعد إلى قمة جبل – أن المستمع قد يرفض تصديق كل ما يُحكى له. أما إذا كان يثق، فهو سيتابع الاستماع إلى توصيفاته. ربما هو لا يرى، لكنه سيستمع وسيحصل على فائدة من خبرة ذلك، الذي رأى الضوء من ذروة الجبل . أما الذي سيصعد إلى قمة الجبل – فهو سوف يمتلك تلك التجربة.

لهذه المسألة جانب آخر – بخصوص الارتفاع الذي ينظر منه الإنسان إلى الحياة. هناك رؤية إنسان ينظر إلى الحياة وهو يقف مباشرة على الأرض، آخر – أثناء صعوده الجبل، وثالث – عندما يبلغ الذروة. ماذا تعني هذه الدرجات؟ إنها درجات الوعي. عندما يقول الإنسان، وهو ينظر إلى الدنيا، : "أنا وهلم جرى" – هذه وجهة نظر؛ وحين يرى كل الباقي وينسى " الأنا " تكون لديه وجهة نظر أخرى؛ و أخيراً، عندما يرى الإنسان كل شيء ويطابقه مع " الأنا " – هذه رؤية مغايرة كلياً. إن الفرق بين وجهات النظر تلك يجعل رؤى الناس مختلفة لدرجة يستحيل شرحها بالكلمات.

الوصول إلى قمة الجبل يعني بلوغ ما يُدعى النيرفانا Nirvana، الوعي الكوني. إن فكرة الاتصال بالله ترمز للإنسان الذي اجتاز جزءاً من الطريق إلى القمة، والذي لم يعد يحدد

بوضوح فكرة "الأنا" و" أنت"، " هو"، "هي" أو "اللاّ هو واللاّ هي" : كما هو الحال مع الإنسان الذي لا يزال يقف على الأرض.

التقدم الروحي – عبارة عن توسيع الروح. ليس المطلوب دوماً هو العيش على قمة الجبل، الأرض كذلك خلقت من أجل الإنسان، ما هو مطلوب – أن تقف بقدميك على الأرض، وأن تطال برأسك ذروة الجبل . الإنسان الذي يستطيع إدراك الحياة من جميع الجوانب، أن ينظر إليها من مختلف الزوايا، يحصل على انطباعات جديدة من جرّاء ذلك. كل وجهة نظر وكل جانب سيقدم معرفة جديدة، معرفة مغايرة، التي لم يسبق له أن خبرها من قبل.

في الختام، هناك مسألة الرؤية أو عدم الرؤية. الصوفيون يفهمون ذلك كالقدرة على الرؤية بمحض إرادتهم، كما والقدرة على عدم الملاحظة. بالنسبة للإنسان من الصعب عدم الملاحظة، هذا يجب تعلمه. يوجد في العالم الكثير مما يمكن ويجب على الإنسان أن يراه، ولكن هناك أيضاً الكثير مما يستحسن له أن لا يراه، بل وسيكون من الأفضل له أن لم يره. أن لا تستطيع الرؤية، فهذا مجحف – لكن ليس خسارة أن لا نرى ما نتمنى أن لا نراه. هناك أشياء كثيرة بإمكاننا أن نراها، وأنه بإمكاننا ببساطة أن نكفَّ عن رؤية ما لا نريد رؤيته.

الإنسان الذي يستند على ما يراه – تنقصه المهارة. حتى لو لم يرغب أن يرى شيئاً ما، فهو لن يستطيع فعل أي شيء وهو يراقب ذلك.أما ذاك، الذي يستطيع التحكم بنظرته، هو يرى ما يرغب برؤيته، ولا يرى ما لا يريد . هنا تكمن المهارة. حقاً، بالنسبة للعين، نحن نرى ما هو موجود أمامنا، ولا نرى ما هو خلف ظهرنا ؛ هكذا مبنيٌّ عقلنا أيضاً : هو يرى ما يوجد أمامه، بينما كل ما يقع خلفه – لا يراه. لذلك، بالطبع، إذا كان العالم المادي يتواجد أمام أعين الإنسان، فإن العالم الآخر مخبأ عن نظرته، لأنه يرى ما هو أمامه فقط، وليس ما هو وراءه . لا شك أنه كي نرى شيئاً ما يقع خلف ظهرنا، يجب علينا أن ندير رأسنا. تماماً بنفس الطريقة، يمكن للعقل أن يرى ما هو مخفي إذا غير اتجاهه. إن ما يُدرس في علوم التصوف والايزوتيريك Esoteric – هو بالضبط انتقال العقل من الرؤية الخارجية إلى الرؤية الداخلية.

ينشأ تساؤل : ما هي الفائدة التي نجنيها من ذلك؟ كما بعد عمل مجهد خلال يوم طويل يحتاج الجسم للراحة، كذلك هو العقل – من المفيد تغيير وجهته عن هذا العالم المتنوع، لكي يرتاح ويُقدم له انطباع آخر من لدنه، ينتمي إليه ويحتاجه. تكتسب هذه الخبرة من خلال التدريب. إن الشخص، الذي يجيد التفكير ولا يجيد النسيان، يجيد التحدث لكن لا يجيد الحفاظ على الصمت، يجيد الحركة لكنه لا يحسن التواجد في طور الهدوء، مَن يبكي دائماً وغير قادر على الضحك – إن مثل هذا الإنسان لا يفقه شيئاً عن المهارة . هذا مثل الإنسان الذي يملك يداً واحدة أو يقف على رِجْل واحدة. كي تحصل على احساس كامل بالحياة لا بد أن تحسن الحركة كما تحسن السكينة، أن تجيد الكلام وتتقن الصمت.

هناك أشياء ثمينة كثيرة في الطبيعة وفي الفن ، أشياء لا تقدر بثمن؛ لكن ليس هناك في الدنيا كلها ما هو أغلى من النظرة، و الأهم من بينها – النظرة الباطنية ، القدرة على رؤية، فهم، قدرة أن تتعلم وتعرف. إن ذلك أعظم هبة من الله، وكل ما عداه في الحياة لا يقارن بها .

إذا كنت تطمح للاغتناء بالمعرفة، أن تسمو بالروح إلى مجالات عليا، أن تسمح للوعي بلوغ الكمال، يجب أن تنجز أمراً – أن تسعى بكل القوى والسبل كي تتفتح نظرتك الداخلية، التي هي عبارة عن علامة الرب في الإنسان. إن هذا التفتح للنظرة الداخلية بالضبط يسمى بسط الروح .

ذاتية الانضباط

Autoregluation

الانضباط الذاتي هو أكثر ما يثمّن في الطريق إلى الحقيقة، لأن من دونه لن تعطي نتائج عظيمة لا الدروس ولا التدريبات. ولهذا الانضباط الذاتي جوانب عدة. حين ندرس حياة الزهّاد، الذين عاشوا في الجبال، الغابات والصحارى، فسوف نعرف أن مَن بحث منهم بالفعل عن الحقيقة، قد أقدموا على ما يلزم للتقيد بالانضباط. من دون الانضباط الذاتي لن تستطيع أية روح واحدة من بلوغ التحقق الأكمل إطلاقاً. لا شك، بالنسبة للناس الذين عاشوا في هذه الدنيا وعرفوا طعم الراحة، أنه لمخيف مجرد التفكير بالانضباط الذاتي. وحين يفكرون به، فهم يتخيلونه في أشكاله القصوى والمتطرفة فقط. علماً أنه ليس بالضرورة الاختباء في كهوف جبلية، أو في الغابات أو في الصحارى كي تتدرب على الانضباط الذاتي. هذا يمكن فعله في الحياة اليومية أيضاً.

هناك أربع طرق رئيسية لممارسة الانضباط الذاتي. الطريقة الأولى – جسدية. تقوم على المحافظة على الثبات، عدم الحركة مع الجلوس في وضعية معينة خلال فترة معينة. مَن يحاول فسيكتشف، أن ذلك ليس بتلك السهولة، التي يتخيلها المرء. يمكن الجلوس أو الوقوف لمدة طويلة، بدون تبديل الوضعية، إلى أن تعي ذلك؛ لكن ما أن تبدأ بممارسة ذلك عن وعي، فإن الصعوبات سوف تبدأ بالتأكيد. توجد أوضاع مختلفة للإبقاء فيها على اليدين، الرجلين، العينين أو الرأس؛ هذه الممارسات تسمح بتطوير ضبط النفس.

إن تصور كل ما تم إبداعه يتجلى، بالتأكيد، في توجه أية حركة، كل شيء يتخذ شكله بما يتفق مع اتجاه الحركة. من أين نشأت الثنائيات – المتناقضات: الشمس والقمر، الرجل

والمرأة، الألم والفرح، السالب والموجب؟ بما أن المصدر والهدف متطابقان، لماذا توجد مثل هذه الاختلافات؟ إنها تنتمي إلى اتجاهاتها، إذ أن سر كل اختلاف – في الاتجاه. بينما هي تعمل في اتجاه محدد، أن العنصر النشيط، الطاقة، تخلق الشكل المحدد. من هنا يتضح لماذا الطريقة، التي يجلس فيها الإنسان، تسبب الاختلاف؛ كذلك ينتج الاختلاف عن الجانب الذي ينام فيه الإنسان – على جنبه الأيمن أم الأيسر، هل يقف الإنسان على قدميه أم على رأسه. لقد تدرب الصوفيون على جميع الأوضاع خلال سنوات وسنوات طويلة، وابتدعوا طرقاً متنوعة للجلوس في الوقت الذي مارسوا فيه مختلف أنواع التمرينات التنفسية. لقد حولوا ذلك إلى علم؛ توجد وضعية المحارب، وضعية المفكر، وضعية الأرستقراطي، وضعية العاشق، وضعية المعالج –أنواع متنوعة من الوضعيات من أجل تحقيق أهداف مختلفة. هي تسهّل على الإنسان فهم علم الاتجاهات. فالوضعية لا تعني شيئاً آخر سوى الاتجاه.

هناك جانب آخر من الانضباط الذاتي مرتبط بالأكل وبالشرب: يقوم الإنسان برفض منتجات معينة في حياته اليومية، ويتدرب على تعلم الاستغناء عنها، خصوصاً إذا كان يظن أنه لا غنى له عنها. هذا سبب آخر، باستثناء الأسباب النفسية والفيزيولوجية، كي يعيش الكثير من المريدين على الخضار والفواكه فقط – على مدى أيام وأسابيع، وربما أشهر هم يرفضون بعض الأشياء ، التي اعتادوا تناولها وشربها.

الصوم – وسيلة أخرى إضافية للتخلص من الوزن الزائد. عندما يعرف المرء الطريقة الصحيحة للصيام، عندما يكون تحت تأثير مَن بالفعل يعرف متى، لماذا وكيف يجب الصوم، بحيث يحصل المرء على الفائدة منه، حينئذ تتحقق نتائج عظيمة. الجراحون يُبقون مرضاهم بدون طعام عدة ساعات أو أيام، لأنهم يعرفون أن ذلك سيساعدهم على الشفاء بسرعة. هكذا، المعلمون الروحيون يوصون تلاميذهم بالصوم أيضاً: ربما يكون الكلام يتعلق بالامتناع عن تناول اللحوم أو الخبز، وأحياناً – أن يقتصر الطعام على الحليب أو الفواكه، وأحياناً – لبعض الوقت عدم تناول أي شيء، حسب طاقة وتحمل التلميذ. لكن أنا شخصياً لم انصح أحداً بالصوم في حقيقة الأمر. ولا أتذكر أنني يوماً التزمت أنا بذلك. أنا فقط انصح بالصوم أولئك التلاميذ، الذين هم أنفسهم يريدون ذلك. لقد عرفت تلميذاً جاء إلى المرشد، الذي قال

للتلميذ أنه لكي يبدأ التمرينات يجب عليه الصيام ثلاثة أيام. لكنه بعد اليوم الأول أحس بجوع كبير لدرجة أنه غادر المدينة من دون أن يرى المعلم إلى الأبد!

إذا المعلم نصح بالصوم فإن لهذا ما يبرره دائماً. تروى الحكاية التالية: عاش يوماً ما في بغداد متصوف عظيم اشتهر بإنجازاته المُدهشة. في أحد الأيام طلب من مريده الشاب الالتزام بأكل الخضار فقط. عرفت والدة الشاب كيف أن ابنها، منذ أن ذهب إلى المعلّم، لم يعد يتناول سوى الخضراوات، فذهبت إلى منزل المعلم كي تُفصح عن رأيها حول ذلك. في اللحظة التي دخلت فيها إلى المنزل بالضبط كان المعلم يجلس إلى المائدة وأمامه صحن من الدجاج. قالت الأم: "تأمر التلاميذ بتناول الخضار فقط، بينما أنت تتلذذ بالدجاج!" عندها رفع المعلم الغطاء عن الصحن وإذ بالدجاجة ترفرف وتطير، ثم قال المعلّم: "في اليوم الذي سيكون باستطاعة ابنك أن يفعل ذلك، سيكون بمقدوره تناول لحم الدجاج!".

هناك جانب آخر من ضبط النفس – القدرة على التفكير والنسيان. أي يجب على الزاهد، من ناحية، أن يجيد التفكر بكل شيء، عما يرغب، وأن يبقي الفكرة لفترة من الزمن الذي يريد، ومن ناحية أخرى، التمرن على النسيان، كي لا تستحوذ بعض الأفكار على عقله. بهذه الطريقة تستبعد أفكار الإثارة، الحقد، الإحباط، الموقف المسبّق، الكراهية. هذا يمنح انضباطاً أخلاقيا، ومن خلال ذلك يصبح الإنسان مسيطراً على عقله.

بعد المرور بهذه المراحل الثلاث من تربية الذات، يمكن للمرء أن يبدأ التدريب للقبض على ناصية المرحلة الرابعة، الأرفع؛ وهي الأعلى لأن الإنسان بمساعدتها يسمو على المعاناة الروحية. هذه التمارين تقوم على تحرير الوعي من محيطه. إنها تجارب الزهاد، وهم يقضون القسم الأكبر من حياتهم في سبيل بلوغ ذلك. ففي المدرسة الصوفية القديمة كان يوجد تقليد لازال قائماً إلى اليوم: حين كان المتصوفون يدخلون إلى المكان المخصص بقصد التدريبات أو يخرجون منه، كان أحدهم يعلن: "الوَحْدة في الحشد أو الخلوة في الحشد". مضمون هذه العبارة هو أنه، حتى لو تواجد في وسط جمهور صاخب، فإن المتصوف يمكنه الحفاظ على الوَحْدة الهادئة، والتي لا يمكن أن يعكرها أي محيط. من هنا يصبح واضحاً كيف أنه يمكن

للمرء العيش بين الناس، وفي نفس الوقت أن يتطور روحياً. وأنه الآن لم يعد من الضروري التواجد في الصحراء، كما كان يفعل روحانيون كثر في الأيام الغابرة، كي يتطورون روحياً.

لا شك أن ذلك ليس سهلاً؛ لكن في نفس الوقت هو بسيط؛ ولدرجة ما إن كل واحد فينا ربما اختبر ذلك من غير قصد. فالإنسان، الذي يستحوذ عليه أمر هام جداً، بحيث يملئ كيانه بالكامل، غالباً لا يدرك محيطه. الشاعر، الكاتب، الموسيقار، المفكر، حين يكون مأخوذاً بشكل كامل بما يفعله، هو لا يعي ما يحيط به. وكثيراً ما يحدث أن الإنسان، الذي يستحوذ عليه عمل ما، أو فكرة ما، لا يكون مدركاً لحالة جسده الخاص ولذاته. بل ربما في بعض الأحيان لا يكون الفرد موجوداً بالنسبة لذاته، وإنما يوجد ما هو يفكر به. هذه الدرجة من التصوف تُسمى الفناء Fanaa. من الأسهل هنا فهم كلمة "نيرفانا"، التي كثيراً ما يتم استخدامها. إنها ببساطة خبرة إدراك الذات؛ بكلمة أخرى، تحرر الروح، بلوغ الدرجة، التي عندها لا يعود الإنسان يفكر لا بنفسه، ولا بما يحيط به.

ربما يسأل سائل: ألا تلحق هذه التمارين الضرر. كل شيء في الدنيا يعتبر مصدر خطر. لو أننا اعتقدنا أن الخطر يكمن في الطعام والشراب، في الخروج من البيت أو العودة إليه، لكانت كل لحظة مصدر خطر. من الخطورة الدخول إلى الماء، لكن إجادة السباحة تقلص الخطر بشكل كبير. من الخطورة التواجد في الشارع، لكن كوننا نجيد المشي والركض يساعدان في الوقاية من مصائب كثيرة. وبالضبط إن سر التطور الروحي يكمن في القدرة على الاسترخاء والارتفاع بالمعرفة على المحيط.

منذ اللحظة التي يبدأ فيها الإنسان بالاعتياد على تمارين الانضباط الذاتي، هو يلاحظ أن كل تمرين يبدو صعباً في البداية، يصبح أسهل بشكل تدريجي. لكي نختبر نتائجه المدهشة، لن يحتاج الأمر وقتا طويلاً. تقريباً كل واحد منا عرف كيف أن أقرب الناس إليه لا يسمعه. هو دوماً يكرر أن الآخرين لا يسمعوه! لكن بمساعدة تمارين ضبط النفس، يرتفع الإنسان على هذه الشكوى، لأنه يبدأ بإدراك العكس: إنه هو الذي لا يسمع أحداً. إذن، وُجِد المجرم: إنه ما من أحد آخر، أنه أنت نفسك. بمجرد أن يتعلم الإنسان امتلاك "أناه"، هو يبدأ الإحساس بسلطة عظيمة. إنها السلطة على مملكته الخاصة، إنه إحساس مَلَكي بامتياز. بالطبع، بمجرد أن يبدأ الإنسان معرفة هذه الظاهرة، فإن كل شيء يصبح بالنسبة له أبسط فأبسط.

الرقابة الجسدية

للحياة جانبان، أحدهما معروف للجميع، والآخر معروف للقليلين فقط. ذلك الجانب المجهول من الحياة يمكن أن يُدعى بالحياة الأبدية، الحياة الخالدة، في حين أن الجانب المعروف تمكن تسميته الحياة الزائلة – عبارة عن التجربة الحياتية، التي نحصل عليها على امتداد الكينونة الجسمانية والتي تمنحنا الإحساس بالحياة. أما الحياة الخالدة فهي موجودة وإذا كان القليل منا يعرف عنها، فإنما السبب في عدم المعرفة قط، وليس في غياب الخلود. كل ما يمكن أن يكون لدينا في حياتنا الأرضية – سواء شيء، كائن حي، فكرة، مِلْكية، أفعال أو خبرة – كل ذلك ينتهي ويموت. كل واحد من تلك الأشياء له ولادته و موته؛ عاجلاً أم آجلاً، لكن كل ما تم بناؤه يجب أن يتفتت؛ كل ما أُنجز – أن يتكسر، كل ما شُيِّد – أن يتهدم، والملموس – أن يختفي.

هذا يبين لنا أن هناك صراعاً بين ما نسميه الحياة، وبين تلك الحياة المخبأة خلفها. في المصطلحات الصوفية نحن نسمي هذين الجانبين من الحياة: الجزاء والقدر: الجزاء – هذا الجانب اللامحدود من الحياة، والقدر – الجانب المحدود. يفصل القدر عن الجزاء شريط من الحياة من أجل كينونته، بينما الجزاء ينتظر بفم مفتوح لكي يمضغ كل ما يمكنه أن يقع هناك. لذلك فإن الحكماء والزهاد، أولئك الذين يُدعون بالمتصوفين أو الصوفيين، اكتشفوا علماً بإمكانه حماية تجربة الحياة من شدق الجزاء، الجانب الآخر للحياة الذي يلتهم كل شيء. كل ما نحن نعجز عن الاحتفاظ به، بسبب عدم معرفتنا، يذهب إلى حنك الجزاء، ذلك أن فمه مفتوح باستمرار، هو جاهز دائماً، كما لو أنه مرض ينتظر لحظة يفقد الإنسان طاقته. هكذا هو الجزاء بجميع أشكاله، ينتظر كي يلتهم كل ما يأتي إليه، والذي بدوره يذوب فيه.

ينشأ سؤال : كيف يمكننا الاحتفاظ بذلك ، كيف نحمي شيئاً ما كي لا يقع في شدق الجزاء؟ الجواب هو : فقط عن طريق مراقبة بدننا وعقلنا . في أحد الأيام صادف أن رأيت في الشرق رجلاً يرفع حجراً ثقيلاً بإصبع واحد . قد يبدو ذلك غير واقعي ، لكن الحجر كان معلّق بقوة الفكرة فقط ؛ الإصبع كان مجرد حجة أو وسيلة . رأيت أولئك الذين يتدربون في حقول الروح والمادة ، الذين يقفزون في النار الملتهبة ليخرجوا منها سالمين ، الذين يقطعون عضلات جسدهم وليجعلوها تندمل فوراً . ليس خرافة ، أن الصوفيين قادرون على القيام بأعمال خارقة ؛ إذ أن آلاف الناس استطاعوا رؤية أمثلة على ذلك في الهند . أنا لا أريد القول بأن امتلاك تلك القدرات هو الهدف ، الذي يتوجب السعي إليه ، بل أنا أريد فقط الإشارة إلى ما يمكن أن ينجز بواسطة قوة الإرادة .

لكي تترسخ سلطة قوة الإرادة على الجسد الفيزيائي ، يجب علينا قبل كل شيء أن نتعلم الرقابة الفيزيائية . تقول الكتب السماوية أن الجسد هو معبد الرب ، لكن هذا يعني أن الجسد خُلق كي يكون معبداً للرب ، والمعبد لا تجوز تسميته بمعبد الرب إذا كان فارغاً ، إنْ لم يوجد الله فيه . بالطبع ، عندما تكون الروح مضطهدة ، فهذا يعني أن هناك عطل ما في العربة . حين يجلس الكاتب للكتابة ، فإن القلم المكسور يزعجه ، لكن العطل ليس في الكاتب ، ما هو مرتبط به صحيح – لكن المشكلة في القلم . الروح بحد ذاتها لا تسبب عدم الراحة ؛ الروح سعيدة بالفطرة ؛ الروح هي السعادة . هي تصبح تعيسة فقط حين يظهر عطل في المركبة ، التي هي عبارة عن أداة ، الأداة التي عن طريقها تتعرف على الحياة . لذلك إن الاهتمام بالجسد – أول وأهم مبدأ في الأديان . الإيمان بمعزل عن إدراك ذلك قليل الأهمية . الروح تأتي إلى هذا العالم كي تختبر مراحل مختلفة من الظهور وفي نفس الوقت دون أن تفقد طريقها الخاص ، لكن ، وهي تحافظ على الحرية البدئية ، ستكتسب معارف جديدة مُستَنبطة من الحياة في هذه الدنيا . بين العديد من نماذج الثقافة الجسدية المعروفة للعالم المعاصر ، ليس هناك من أحد يمكنه أن يُعلِّمَ طريقة أو سرّ المحافظة على الفعل ، مثلاً كيفية الجلوس بدون حراك في وضعية معينة ، النظر في نقطة محددة دون تحريك العينين ، أن تستمع إلى شيء ما دون أن يشرد ذهنك بكل ما عداه ، أو أن تكون قادراً على اختبار المرونة أو الصلابة ، البرودة أو الحرارة ، مع الاحتفاظ في

الوقت نفسه بالاهتزازات خاصتك ، أو الاحتفاظ بطعم الملح ، الحلو أو الحامض . هذه الأحاسيس عادة تجيء وتذهب، دون أن يتمكن الإنسان من مراقبة طول فترة فرحته ومتعته؛ هو لا يستطيع أن يختبر الفرح بواسطة أي من الحواس لفترة طويلة حسب رغبته. إنه مرتبط بتأثير العوامل الخارجية وهو لا يعرف كيف يطيل الإحساس المرغوب. هو لا يعي أن الطريقة الوحيدة لدعم المعاناة يكمن في الرقابة.

للمسألة وجه آخر. الاستعداد اللا واعي لتقبل فكرة أن الإحساس اللطيف والمفرح عاجلاً أو آجلاً سينقضي، يدفع الإنسان إلى القلق بما يتجاوز كل الحدود. بدلاً من محاولة الاحتفاظ بتلك التجربة، هو يستعجلها ولذلك يفقدها. على سبيل المثال، عادة تناول الطعام بسرعة أو عادة الضحك قبل أن تنتهي الجملة المضحكة، تعود إلى كون الإنسان يخاف تفويت المتعة أو الفرح. مهما تكن التجربة التي اكتسبها الإنسان، فهو باستمرار يصرف الجهد كي يحتفظ بها، لأنه مسبقاً يخاف فقدانها. نورد مثالاً آخر: يمكن الحصول على متعة عظيمة خلال مشاهدة مسرحية تراجيدية في المسرح إذا ما عيشت بشكل كامل. لكن الناس كثيراً ما يكونوا بحالة انفعال شديد لدرجة أنهم يسارعون إلى ذرف الدموع منذ بداية العرض، بحيث أنه لا تبقى دموع لنهاية المسرحية. بعد بلوغ أعلى نقطة، لا يعود بالإمكان الحصول على أية تجربة، أي أن الإنسان بدلاً من إنقاذ خبرته من الابتلاع من قبل فم الحياة الأبدية، إذ هو يقذف بها إلى الحياة المنقضية، دون أن يكتشف سرَّ هذه التجربة.

من هنا يصبح مفهوماً لماذا يكتسب الصوفيون، أثناء جلوسهم أو وقوفهم بوضعيات محددة، السيطرة على عضلاتهم وجملتهم العصبية، وهذا بدوره يؤثر على العقل. الإنسان، الذي لا يجيد مراقبة جملته العصبية وعضلاته، لا يكون قادراً على التحكم بعقله أيضاً. أنه يضيعه باستمرار. فإذا امتلك الرقابة على الجملة العصبية والعضلية — امتلك الرقابة على عقله.

الوسيلة، التي عن طريقها تتلقى الحياة الطاقة — هي التنفس. مع كل شهيق يغرف الكائن الحي الطاقة والبصيرة من الحياة المُدْرَكَة وغير المُدرَكة. وعندما يغرف الإنسان - الذي امتلك أسرار الوضعيات - الطاقة والإلهام، فهو يكتسب إمكانية الاحتفاظ بالفكرة، بالكلمة، بالتجربة، بالمتعة

وبالفرح. إذا طرحنا سؤالاً حول سبب جميع المصائب في الحياة، سيكون الجواب واحداً: في التضييق. هذا هو مصدر جميع التعاسات. لذلك فإن الصوفيين يسعون عن طريق التدريبات، التمارين والتعليم إلى التغلب على التضييق بقدر ما أمكن. ليس هناك عدو للإنسان أكثر من العجز. إذا أحس شخصٌ ما نفسه عاجزاً، فهذا يعني نهاية فرحه وسعادته.

لاحقاً، من أجل امتلاك الرقابة الجسدية على الذات، يحتاج الإنسان إلى قوة الفكرة، مثلها مثل الوضعية أو التنفس. يجب الارتفاع فوق الإيثار والكراهية، لأنها هي سبب الوهن في الحياة. عندما يقول الإنسان: "لا أستطيع تحمّل ذلك"، "لا يمكنني أن آكل هذا"، "لا أستطيع أن أشرب هذا"، "لا يمكنني السماح بذلك"، "لا أستطيع أن أحمل هذا"، "لا يمكنني الصبر على ذلك"، – فهذا كله يشير إلى ضعف الإنسان. كلما كانت قوة الإرادة أكبر، كلما كان صاحبها قادراً بدرجة أكبر على تحمّل ما يقع على عاتقه. هذا لا يعني أنه لا يوجد خيار أمام الإنسان؛ الخيار متوفر دائماً، لكن إذا حاولنا إرضاء الأنا ،عندها تصبح الحياة صعبة للغاية. يوجد لدى الإنسان " إيغو Ego " كاذبة، التي يسميها الصوفيون بالنفس، والتي تتعيش على الضعف (النفس أمّارة بالسوء – المترجم). هذه الإيغو تشعر بالغرور حين يقول الإنسان: " أنا لا أستطيع تحمل ذلك ". هذا لا يعجبني"، – الغرور بالضبط هو الذي يغذي الـEgo. الـEgo يفكر: أنا أفضل من الآخرين"، – ولذلك يزداد قوة. أما ذلك، الذي يستطيع التفريق، التعرّف، الاختيار، وفي نفس الوقت يحافظ على المراقبة الذاتية الكاملة، ومَن يستطيع تناول العلقم ، مع أنه يحب المذاق الحلو، ذاك هو الذي يبلغ المهارة والحرفية.

الثورات والنزوات أيضاً تضعف الإنسان، إذا استجاب لها كليةً. مثلاً، شخص أحس برغبة الذهاب إلى الحديقة، وبدلا من انتظار اللحظة المناسبة للمشوار، هو يرتدي القبعة بسرعة ويخرج من المنزل. مستجيباً على الفور لنزوته فقد أضاع السيطرة على نفسه. أما ذلك، الذي يُخضع نزواته وثوراته لسيطرته، يراقبها ويستخدمها على أفضل وجه، ذاك يبلغ المهارة والحذق. الخضوع للميل إلى الراحة، إلى الرفاهية الدائمة، الميل لاختيار الأسلوب الأقل مقاومة دوماً، أيضاً يسبب الضعف. مهما يكن العمل صغيراً، فإن الإنسان سينجز أكثر من السيطرة على ذاته، إذا هو تعامل معه بجدية وبصبر انتهى منه.

الصبر – أحد الجوانب المُحدِّدة للحياة، مع أنه أحياناً يكون مرفقاً بالمرارة، معذِّباً وقاسياً، كما هو الموت. أحياناً قد يفضّل الإنسان الموت على الصبر. لكن بالنسبة للبشرية لا يوجد ما هو أهم من تطوير الصبر تجاه جميع ظروف الحياة، وفي جميع جوانبها. في حالة الفقر أو الغنى، المكانة الاجتماعية العالية أو الوضيعة، فإن تلك الصفة يجب أن تتطور. الصبر بالتحديد هو الذي يمنح القدرة على الجَلَد والثبات، أنه كليٌّ القدرة، ومَن ينقصه الصبر يخسر الكثير. كثيراً ما يحدث أنه في اللحظة، التي يكون الجواب فيها على الرجاء مستجاباً ويدُ العناية الإلهية قريبة، يفقد الإنسان الصبر، ومعه فرصة السعادة الممكنة. لذلك يستحسن تجنب عدم الصبر والتسرع بجميع أشكاله. غياب الصبر يفقدنا التوازن، وعندها لا يمكننا إنجاز أي شيء. ومن عدم الصبر لا يمكن الحصول على أية فائدة. وفوق ذلك، أن عدم الصبر لا يعني التكاسل، الإهمال واللامبالاة.

وفي الختام: إن السيطرة الجسدية تشكل أساس الطبع والشخصية، ذلك الأساس الذي عليه يمكن أن يقوم بناء الانجازات الروحية.

الصحة

تكون الصحة على ما يرام كنتيجة للعمل المنتظم الذي تقوم به آليات الجسد الفيزيائي. والعمل الطبيعي للجسد الفيزيائي مرتبط بالمناخ، بالتغذية، بالتوازن بين النشاط والراحة، وبحالة العقل.

يفترض الكثيرون، أن تشوهاً ما في الجسم – انحراف في العمود الفقري أو انخماص في الدماغ – يؤثر على العقل. لكن القليلين هم الذين يدركون، أن العقل نفسه كثيراً ما يسبب إرباكات في عمل العمود الفقري أو الدماغ، محولاً إياهما إلى مرضى. هناك وجهة نظر مخالفة تقول بأن المرض – عبارة عن اضطراب فيزيائي، وعلاجه يمكن بواسطة الأدوات المادية. لكن هناك موقفاً مغايراً يلتزمه أولئك الذين يفكرون بشكل أعمق، وأولئك الذين يقولون بأنه لو أهملنا المرض واقنعنا المريض بأنه صحيح، فهو سيشفى. بالطبع، إن وجهة النظر هذه مبالغ فيها، حين يؤكد بعض الناس أن المرض – مجرد وهم لا أساس واقعي له. لكن، أيضاً سيكون مبالغاً بالرأي السائد – لو أكدنا أن الوسيلة الوحيدة للعلاج هي الأدوية فقط، وأن العقل لا يمارس أي تأثير على المرض.

كلا الشخصين – ذاك الذي ينظر إلى الموضوع من زاوية عادية، وذاك الذي يتعامل معه بعمق أكبر، سيجدان حججاً "مع" كما "ضد" تلك الأفكار. بل إن البعض يصرّح كما لو أنه لا يجوز للمؤمنين التعامل مع العقاقير، والآخرون يصرون على أن المرض واقعي بنفس واقعية الصحة. لو لم يكن المرض لما كان من الصعب اعتبار الألم وهماً، لكن حين يعاني الإنسان، فمن الصعب عليه أن يسمي ذلك وهماً.

إذا سئلت، مَن هو الأكثر تعرضاً للمرض – الإنسان الروحاني أم المادي – فسأجيب بأن الإنسان الروحاني الذي يهمل القوانين الفيزيائية، هو معرض للمرض كما الإنسان المادي الذي يقوم بنفس الشيء. لا شك، الإنسان ذو التوجه الروحي يخاطر بدرجة أقل لأن يمرض، ذلك لأن روحه صارت الوسيط المتناغم للروحانية؛ هو يقيم التناغم ويشع به. مثل هذا الإنسان يحيا في مملكة الطبيعة، وهو في حالة انسجام مع اللانهاية. لكن حياة الشخصية المحملة بالروحانية في لجة العالم الدنيوي هي أشبه بحياة السمكة على اليابسة. السمك – تتاج الماء؛ طعامه، سعادته، فرحه – في الماء. روح الإنسان الروحاني خلقت للانفراد، فرحها وسعادتها – في الخلوة والاعتزال. الإنسان الروحاني – وقد قذف به المصير في خضم الحياة اليومية – يشعر وكأنه في غير محله، في حين أن التأثير المنبه والمتواصل للمحيط، وكذلك التأثير الدائم للانطباعات، التي تقلق مشاعره الرقيقة – كل هذا يجعله أكثر عرضة للمرض، بخلاف أولئك، الذين يشقون طريقهم عبر الحشود الدنيوية ولم يعودوا يهتمون لصدمات وضربات المحيط الخارجي.

إن روح الإنسان الروحاني حسب العقائد الشرقية – روح قديمة. حتى لدى الإنسان الفتي، لكن الموهوب روحياً، تتبين طبيعة النضج، لكن في نفس الوقت أن الروحانية فتية دائماً. فالإنسان الروحاني قادر على الفرح لكل شيء، أن يفهم كل شيء، وأن يستمتع بكل شيء بشكل كامل. لذلك، إذا قال أحدهم بأن الإنسان الروحاني يشبه العجوز – فهذه حقيقة، وإذا قال أنه يشبه الفتى – هذه أيضاً حقيقة.

في أيامنا هذه أضاع الناس كل تصور عن الصحة الحقيقية، لأن المعيار المعاصر للصحة أقل من الصحة الفعلية. أن تكون صحيحاً – هذا لا يعني أن تكون مفتول العضلات فقط، بل الصحة الفعلية هي أن تُحسن الفرح في الحياة و أن تثمِّن الحياة. أن تكون صحيحاً معناه أن تكون عميق التفكير. مَن يستطيع أن يكون لديه شعور عميق – ذلك هو مؤشر للصحة. لا شيء مدهش في مرض الإنسان المادي ولا شيء عجيب في التوعك عند الإنسان الروحاني. الأول يمرض لكونه أضاع إيقاعه، والثاني – لأنه لم يستطع أن يتأقلم مع إيقاع غريب عنه. الإنسان، سواء كان روحانياً أم مادياً، هو مضطر لأن يعيش في خضم العالم، وضد إرادته هو مضطر لأن يتقاسم مع كل فرد، قريب أو بعيد، حالته، وبذلك هو يتأثر بكل ما يحيط به، مرغوب وغير مرغوب. من المستحيل إغماض العينين، ومن المستحيل إغلاق القلب عن الانطباعات، التي

تتوارد باستمرار إلى الإنسان. أفضل ما يمكن فعله هنا هو الحيطة والحذر تجاه كل شيء يمكنه أن يسبب عدم الانتظام، عدم التناغم، الفوضى، مسلّماً بفكرة أنه لا بد من المرور بذلك؛ ويجب أن تمتلك الشجاعة للتغلب على كل ما يقف عائقاً على طريق الصحة والكمال.

إن المتصوف يفترض أن كمال الحياة يتأسس على الكمال الذاتي، ليس فقط من الناحية الروحية بل وفي جميع نواحي الحياة الأخرى. الإنسان، الذي يعجز عن الاهتمام بحاجاته اليومية، هو بالتحديد غير قادر على معرفة كنه الحرية الدنيوية الحقيقية.

كما أنه يوجد دواء لكل داء، كذلك كل مصيبة يليها طور التأهيل. كل جهد لإعادة القوى أو لبناء شروط الهارمونيا – مهما يكن صغيراً وبأي شكل كان – هو هام جداً. لكن الأهم، الذي يجب علينا إدراكه، هو عقيدة جميع الأديان وفلسفة جميع الفلسفات، والتي هي عبارة عن وعي الذات. نحن لن نستطيع فهمَ الحياة الخارجية ما لم نفهم أنفسنا. إن فهم " الأنا " بالضبط هو الذي يقدم لنا فهم العالم.

ما هي الصحة؟ الصحة – هي النظام. وما هو النظام؟ النظام – هو الموسيقى. هناك، حيث الإيقاع، الانتظام، التوافق، هناك أيضاً – الهارمونيا والجاذبية. لذلك فإن صحة العقل وصحة الجسد يرتبطان بالاحتفاظ بتلك الهارمونيا وبتلك الجاذبية، الموجودتين في العقل والجسم. الحياة في العالم، خصوصاً إذا فرض العيش وسط الحشد، تختبر صبرنا في كل لحظة من اليوم؛ في مثل هذه الظروف، على وجه الخصوص، يصعب الاحتفاظ بالهارمونيا وبالسلام، اللذين يشكلان أساس كل سعادة. الحياة تعني الكفاح مع الأصدقاء وقتال الأعداء، إنها تعطي وتأخذ طوال الوقت، وبالتالي إن الاحتفاظ بالهارمونيا وبالجاذبية، اللتين تمنحانا الصحة والسعادة، صعب للغاية.

جميع التعاليم والمعارف تكتسب؛ لكن إجادة العيش – عبارة عن هبة ربانية يتوارثها الفرد. بالرغم من استغراقه بالتعليم الخارجي، وقد نسيه، لكنه مع ذلك هذا الفن هو يعرفه بالفطرة. إنه كينونته، المعرفة الأعمق لفؤاده. إن أي تقدم، وفي أي مجال، لن يمنح الإنسان الرضا التي تتعطش إليه روحه، باستثناء الفن الالهي – فن العيش، فن ترحال الروح. ومن أجل المساعدة في إعادة بناء العالم، من الضروري وممكن شيء واحد – هو أن تدرس فن العيش، لكي يصبح مثالاً، قبل أن تحاول خدمة البشرية.

التناغم
(الهارمونيا)

الهارمونيا – هي التي تخلق الجمال، فالجمال بحد ذاته لا قيمة له. ما هو جميل في لحظة معينة وفي مكان معين قد لا يبدو جميلا في ظروف أخرى مغايرة. هذا ينطبق أيضاً على الأفكار، الكلمات، على الأفعال. فالذي نعتبره رائعاً هو يكون كذلك فقط في وقت محدد وفي ظروف معينة – تجعله رائعاً. لذلك فإن الوسيلة الوحيدة التي بواسطتها يمكن أن نَصِفَ الجمال بالحقيقي – هي التناغم. إن التناغم في اختلاط الألوان، التناغم بين الخطوط والرسومات يشكل ما نسميه نحن الجمال. والكلمة، الفكرة، الإحساس أو الفعل، اللواتي تصنع التناغم، هي من مشتقات الجمال. من أين يُخلق السعي إلى الهارمونيا، ومن أين يظهر السعي إلى اللا تناغم؟ إن طموح كل نفس إلى الهارمونيا هو ميزة فطرية، بينما الميل إلى اللا تناغم هو عبارة عن حالة غير طبيعية للعقل أو الأفعال. عملياً، كل ما هو غير طبيعي – يجعل الروحَ تفقد الجمالية. إن التركيبة النفسية للإنسان مبنية هكذا لكي يرتكس على الهارمونيا وعلى اللا تناغم سواء بسواء. وهو لا يستطيع المساعدة في ذلك، لأنه هكذا مُصَمّم. أي يستجيب عقلياً وجسدياً لكل ما يأتيه، سواء كان ذلك متناغماً أو غير متناغم.

نداء المسيح أن: "لا تقاوموا الشر" – هو نصيحة أن لا تردوا على اللا تناغم. على سبيل المثال، كلمات الخير والتودد، أفعال المحبة أو الإلهام يجب أن تجد صدى واستجابة، لكن إذا كانت كلمات الإهانة والأفعال النابعة عن الاشمئزاز والكراهية تلقى صدى أيضاً، فإن هذا سيخلق اضطراباً أكبر في التناغم الكوني. مفسحين الطريق أمام اللا تناغم، نحن نسمح له

بالنمو والتكاثر . مِن أين ظهرت الخلافات الكبيرة، الاضطرابات والشقاقات، التي هي الغالبة والمسيطرة في العالم كما نرى الآن؟ على الأرجح، من الاستهانة بتلك الحقيقة حول أن اللا تناغم يولّد اللا تناغم وأن هذا سيتكاثر. عندما يتعرض الإنسان للازدراء فسوف تظهر لديه حاجة طبيعية لأن يرد بازدراء أكبر. في النتيجة هو يحصل على لذة عابرة من أنه حسناً أجاب. لكن الطاقة التي صدرت عن المؤذي، قد أثرت عليه، وأن هاتين القوتين، إحداهما سلبية و الأخرى إيجابية، قد ولّدا اضطراباً كبيراً في التناغم.

"عدم مقاومة الشر" لا تعني أنه يجب على المرء أن يحملَ الشر في داخله. هذا يعني أن لا تُعيدَ اللاتناغم الذي وقع عليك، أن لا تتماثل مع لاعب كرة التنس، الذي يُرجع الكرة بمضربه. لكن، من ناحية أخرى، هذا لا يفترض أن تتلقى الكرة بيدين عاريتين.

يمكن مقارنة السعي إلى التناغم بالجلمود الصخري في البحر: يقف بثبات في الهواء وفي العاصفة؛ تتناطحه الأمواج بضروة، لكن الجلمود يصمد أمام هجومها، تاركاً لها أن تتكسر عليه. عندما نحارب اللاتناغم، إنما نحن بذلك نسمح له بالتفاقم. وحين نتخلى عن مقاومته، فكأنما نحن نمتنع عن صب الزيت في النار، التي كانت ستضرم أكثر في الحالة المعاكسة ولكانت بالتالي تركت وراءها خراباً أكبر. لا شك في أنه كلما ازددنا حكمةً، كلما اصطدمنا بصعوبات أكبر في حياتنا، لأن أي شكل من اللاتناغم سيتجه ضدنا بالضبط من منطلق أننا لا نقاومه. لكن يجب أن ندرك أن كل تلك الصعوبات إنما هي ستساعد في تفكيك اللاتناغم، الذي كان سيتكاثر في الحالة المعاكسة. لهذه العملية ميزات إيجابية، ذلك أنه في كل مرة نصمد أمام ضغط اللاتناغم – تزداد قوانا، أي أننا نكسب في جميع الاحوال، حتى وإنْ بدا الأمر كما لو أننا نخسر. إن ذاك الذي يدرك ازدياد قوته ويعي ذلك الانتصار – ذلك لن يشعر أبداً فيما بعد بالهزيمة. وسيأتي يوم يفهم فيه الإنسان، الذي كان يصدر عنه اللاتناغم، أنه قد هُزِمَ بالضبط.

يتحاشى المتصوف أية أفعال غير متناسقة؛ هو يحافظ على إيقاع الكلام تحت رقابة الصبر، لذلك لن يقول أبداً كلمة قبل أوانها ولن يبدأ بالجواب قبل أن يسمع كل السؤال. أما " كلمة " عدم الموافقة التي تنطق ولو أثناء الجدل، هو سيعتبرها مجرد تنافر وأن الجدل بحد ذاته يتجه

لينقلب لحناً متناغماً. وأما بخصوص ميل الإنسان نحو الرفض والتناقض سيتفجر في رغبة جامحة لأن يناقض المرء في النهاية أفكاره الخاصة، إذا ما أعرب عنها شخص آخر. لكي يحافظ على الانسجام، إن المتصوف " يلحن " كلامه من مفتاح إلى آخر، أي بكلمة أخرى، ينظر إلى المسألة من وجهة نظر الشخص الآخر ويتبنى رأيه، بدلاً من أن يصرّ على رأيه الخاص. أما رأيه فيشكل القاعدة لأي حديث بمساعدة المقدمة، مما يساعد على تحضير أذني المستمع بحيث يتلقى صدى مكتملاً. هو، أي الصوفي، يراقب بانتباه كل حركة من حركاته وكل تعبير من تعابيره، بنفس الدرجة التي يراقب الآخرين، محاولاً تشكيل تَوافُق يلائم الهارمونيا بينه وبين الآخرين.

إن بلوغ الهارمونيا في الحياة يتحقق عن ذات الطريق، الذي بواسطته يتم تعلم العزف على الآلة الموسيقية؛ لكن الأمر هناك يتطلب دراسة أطول و أعمق و أكثر جدية مما يتطلبه تطوير الأذن الموسيقية والصوت الموسيقي. بالنسبة للصوفي كلُّ كلمة منطوقة تعتبر كما لو أنها نوتة — حقيقية، إذا كانت الكلمة تناغمية، وكاذبة، إذا كانت الكلمة غير انسجامية. هو يجعل سُلَّمَ حديثه عالياً (ماجور) حيناً، وحيناً آخر يجعله صغيراً، حزيناً ومنكسراً (مينور) أو متلوناً، حسبما يقتضيه الظرف. إن كلمة الصوفي ، سواء كانت رفيعة (ديوز) ، منخفضة (بي مول) أو ذي نغمة نظيفة ، فهي تنسكب في اللحن وفق قوانين الهارمونيا.

للحياة الدنيوية تأثير مهيج ومخرّش بشكل مستمر، وكلما أصبحنا أكثر رقة كلما صار الأمر أصعب بالنسبة لنا. يحين زمن عندما تصير الحياة أكثر فأكثر قسوة بالنسبة للإنسان الذي يميل أكثر نحو المسالمة، الإنسان المملوء بالإرادة الطيبة، الأكثر براءة و الأكثر تقوى. وتحت تأثير اليأس والإحباط ينحدر ذلك الإنسان للأسفل؛ لكن إنْ هو حافظ على رباطة جأشه، ففي نهاية الأمر سيكتشف أن ذلك ليس خسارة، لأن قواه قد زادت لدرجة كبيرة وبلغت حداً أصبح معها حضوره، كلمته ، وتصرفه ستتحكم بأفكار، بمشاعر وبأفعال الآخرين . سيصبح إيقاعه عظيماً وسيمنح إيقاعا خاصاً لكل فرد يسير وراءه. هذه الخاصية في الشرق تدعى نوعية عقل الآمر. لكن من أجل أن تصمد أمام ضغط اللا توافق، الآتي من

الخارج، علينا بداية أن نتدرب على المناعة ضد كل شيء يأتي من الداخل، من "الأنا" الخاصة. التحكم بـ " الأنا " خاصتك أصعب بكثير من التحكم بـ " الأنا " العائدة لغيرك. وإذا كان الإنسان عاجزاً عن ضبط الذات فلسوف يصاب بالفشل. ومع ذلك يبقى الصمود بوجه اللاتناغم القادم من الخارج هو الأصعب.

فما الذي يولّد اضطراب الهارمونيا فينا نحن؟ إنه الضعف. الضعف الفيزيائي أو النفسي، لكنه دائماً الضعف. لذلك كثيراً ما نلاحظ أن المرض الجسدي يسبب اضطراب الهارمونيا Dysharmonic والميل نحو اللا انسجام. واللا تناغم. عدا ذلك هناك مجموعة من أمراض العقل، التي ما زالت غير واضحة بالنسبة للعلماء. أحياناً يعتبر الناس صحة وسلامة ما هو في الواقع مرض العقل. لا يُعطى اهتمام كبير للعاهات الخلقية التي تصيب الوعي، والمصاب نفسه لا يملك حظوظاً كثيرة كي يكتشفها بنفسه. هو دوماً يكتشف الأخطاء لدى الآخرين، سواء أثناء العمل في مكتب، في منصب عالٍ، في البيت، أو في مكان ما، فهو يخلق اللا تناغم. لا أحد يدرك هذا، ولكي يخضع للعلاج، يجب الإقرار أولاً بأنه مريض.

إن سبب كل نوع من عدم الراحة وكل فشل هو اللا تناغم؛ والشيء الأكثر أهمية الذي يتوجب التصريح به أثناء التعليم – هو حس الهارمونيا. إن تطوير الشعور بالتناغم عند الأطفال ولفت أنظارهم إلى ذلك ليس بتلك الصعوبة كما يبدو للوهلة الأولى. من الضروري أن نبين للطفل ببساطة مختلف تظاهرات اللا تناغم في مختلف جوانب الحياة.

التوازن

I

إذا نظرنا إلى العالم بعين المتبصر (المستنير)، سوف نكتشف أن الناس الملقبين بالحكماء، وأولئك الملقبين بالأغبياء، هم أقرب إلى بعضهم البعض مما هم يظنون؛ وأن تصرفاتهم متشابهة أكثر بكثير مما يبدو في الظروف الحياتية غير المتوازنة.

التوازن – هو الشيء، الذي نادراً ما يشترك به الروحانيون والناس العاديون. عندما نهتم بأمر ما، فإن فطرتنا ترغب بالمزيد أكثر فأكثر، دون أن تتوقف فيما إذا كان هذا روحانياً أو ماديا. أن نحن بالغنا في روحانيتنا – نخسر الدنيا. لكن، لو لم نكن مدعويين للعيش في هذا العالم، لما كنا أرسلنا إلى هنا.

ذلك الذي يرى الحُسْنَ في الآخرين، سوف يرى هذا الحسْن أكثر و أكثر. ومَن يبحث عن السلبيات – سوف يجد في نهاية المطاف كمية هائلة من السلبيات، لدرجة يبدو الحسن له في النهاية شيئاً سيئاً. حينئذٍ ستصبح عيناه سيئتين. الإنسان الذي يركض يكون معرضاً للسقوط أكثر من ذاك الذي يمشي خطوة خطوة. إن الفائض في الحركة يتسبب بالسقوط.

الإنسان لا يعرف أحياناً الحدود في قول الحقيقة. هو يصرّح: " أنا أقول الحقيقة"، – بدون الاهتمام فيما إذا كانت تلك الحقيقة تتواجد متناغمة مع المحيط وهل الناس على استعداد لسماعها. هو يعلن: " أنا أقول الحقيقة وبدون تردد اشتبك مع كل شخص، لأنني أقول الحقيقة! ". لذلك في مثل هكذا حالة يكون درس الهدوء هو الأكثر أهمية.

الفلسفة نفسها، التي بلغت أعلى نقطة في معرفة الله (و ليس هناك في الكون ما هو أعظم وأرقى منها)، غالباً ما كانت تضيع بسبب غياب التوازن. لهذا بالضبط نلاحظ أن أبسط

الحقائق تُقَدّم في الإنجيل، في الفيدا ، وفي القرآن في صيغة مبطّنة. لو أن الأنبياء والمعلمين نقلوا الحقيقة بكلمات عادية ، لكان العالم مشى في اتجاه غير صحيح . لقد لاحظت مرات كثيرة أنه، حين يقومون بشرح الفلسفة بصيغة مباشرة، فإنها تُفهم تماماً بعكس ما يجب .

تسعى الحركة النشيطة إلى النمو، النمو المطرد ، ولهذا السبب يضيع التوازن . إذا كنا نتحدث، فنحن نسعى للتحدث والتحدث، بحيث نصبح معه هواة كلام لدرجة أننا نرغب بالكلام، بغض النظر عما إذا كان الآخرون يريدون سماعنا أم لا. عندها نقول ما لم نكن نرغب في الواقع قوله؛ ثم نندهش لكوننا ألحقنا إهانة بهذا وبذاك، أو لماذا أفشينا سرّنا له. كتب الشاعر الفارسي العظيم سَعْدي[1] : " أوه، أيها الإنسان العاقل، ما الفائدة من عقلك إذا كان كل ذلك الندم فيما بعد؟ " . ما نحن نفعله، حسناً كان أم سيئاً، يكبر في داخلنا أكثر فاكثر. إذا فكر الإنسان يوماً بالشعر أو بالموسيقى لمدة خمس دقائق فقط، فإنه في اليوم التالي سيكرس للتفكير بها نصف ساعة. إذا كانت توجد في رأسه فكرة صغيرة عن شيء ما مرير، فإنها تكبر من دون وعي لدرجة يمتلئ معها العقل بالمرارة. بهذه الطريقة يتشكل كل ذنب. لقد ميّز زرداشت بين ثلاثة أنواع من الخطيئة: خطيئة التفكير، خطيئة القول وخطيئة الفعل. أن تفكر حول شيء ما مع بعض المرارة، أن تفكر مصحوباً بالحقد يساوي أن تفعل الشر. أن تنطق بالحقد – نفس الشيء أن تفعل الشر. حين يقوم الشخص بتصرف أحمق يصبح كل ذلك محدداً.

نحن نكتسب التوازن في الأفكار، عندما نتمكن من رؤية الأشياء ليس فقط من زاوية نظرنا وحسب، بنفس نظرتنا إلى الافكار والمشاعر التي اعتدنا عليها، بل بشكل شامل. الإنسان أحادي الجانب لا يمتلك التوازن. تخيلوا مثلاً، أن شخصاً ما معبأ وطنياً وهو يرى كل شيء من خلال نظرته الوطنية، يدخل إلى المتجر ويطلب من البائع أن يبيعه شيئاً ما

1- سَعْدي – شاعر وكاتب فارسي ١١٨٤ – ١٢٩١. اسمه الحقيقي مصلح الدين Muslih-ud-Din. قضى معظم حياته بالترحال في جميع أنحاء العالم الإسلامي في ثياب درويش وعاد إلى مسقط رأسه شيراز عجوزاً. أصدر عام ١٢٥٧ مجموعته الشعرية "البستان" وفي عام ١٢٥٨ كتب "الحديقة الوردية" –و هو عمل نثري شعري... المترجم

(لأغراض وطنية) بسعر منخفض جداً. لكن صاحب المتجر قد لا يكون غنياً، وأنه غير قادر أن يبيع السلع بسعر منخفض حتى لأغراض وطنية. وفوق ذلك هو مالك المتجر ويسعى للتجارة. لا يجب أن ننتظر منه أن ينظر إلى الوضع بعيون وطنية. واحد يفكر عن الوطنية فقط، الثاني – فقط عن التجارة. بينما شخص ثالث، موسيقار مثلاً، ربما يقول: "كلاهما مجنونان، الموسيقى وحدها ذات قيمة!" والشاعر سيقول: "لا شيء في العالم له قيمة، باستثناء الشعر". كل واحد يفكر فقط بخصوص ما يهتم به. فالإنسان التقي قد ينشغل بورعه الخاص لدرجة لا يبقى لديه شيء آخر عدا تقواه، الذي سيتحول في نهاية الأمر إلى نفاق.

قد تسألون: كيف يمكن بلوغ الاتزان والرصانة؟ أولاً، هناك توازن بين النشاط والراحة، بين النوم واليقظة. إذا وثق الإنسان، أنه سيصبح عظيماً فيما لو نام كثيراً، وبالتالي سيعوِّد نفسه على ذلك، فهو سيتحول إلى غريب الأطوار، وليس إلى إنسان، لأن الجسد الممنوح له من أجل التعرف على العالم لن يستخدم. وإذا شخص آخر رفض النوم نهائياً، فخلال أيام معدودة سيصاب باضطراب عصبي. وإذا أحدهم مارس الصوم بكثرة، فهو، بالطبع، سيصير بلا جسد. سيكون بمقدوره أن يرى عالم الآخرة، وستكون لديه خطط مغايرة. إذا أدرك أحدهم طريق الإلهام، فإن الإلهام سيجيئه. لكن ذلك الجسد، تلك الأحاسيس ستضعف، بحيث لن تتمكن من إدراك العالم، أي أن تنجز المهمة التي من اجلها كانت هي قد منحت لنا.

هناك في الهند يوجد روحانيون يلقبون بالـMadjzub[1] وهم بلغوا أقصى درجات الروحانية. لقد نسوا "أنا"هم الخارجية إلى درجة انهم، على العموم، تخلصوا نهائيا من عذابات هذا العالم. لكن التطرف غير مرغوب في أي شيء، سواء الجيد أو القبيح. النوم واليقظة، أن تأكل وتصوم، العمل والراحة، أن يتكلم المرء ويصمت – هذا هو المقصود أن تكون في حالة توازن.

1- جاءت بنفس اللفظ في النص الأصلي.. والكلمة عبارة عن مصطلح صوفي يعني أن يكون المرء منتشياً روحياً في حالة الوَجد من "الإنجذاب" إلى الله. – المترجم

في يوم من الأيام طلب محمد من أحد تلامذته أن يتدرب على تمارين يتمكن من خلالها بلوغ النشوة الروحية. بعد أيام جاء التلميذ وهو يحمل بعض الفواكه والأزهار، قدمها هدية للنبي، وراح يشكره بقوة قائلاً له: " إن التمرين الذي وصفته لي كان رائعاً وقيِّماً جداً، لقد منحني فرحاً كبيراً ! صلواتي التي كانت في السابق تمتد بضعة دقائق فقط، أصبحت الآن تتواصل طوال اليوم ". فقال محمد: " أنا سعيد لكون التمرين قد أعجبك، لكن أرجوك: بدءاً من اليوم لا تعد إلى ممارسة هذا التمرين ! ".

يتعلم الصوفي الاتزان عن طريق الوضعيات والحركة، التي تتضمن مراقبة تصرفات و أنشطة الجسم ؛ من خلال ممارسة الصلوات، التعبد Wazifa[1] والذكر (الترتيل)، – هو يتعلم توازن العقل بواسطة التركيز. أن يجلس المرء في المنزل مغمض العينين – هذا ليس تركيز بعد. الأفكار تتواصل رغم إبقاء العينين مغمضتين. من المهم اختيار الهدف الصحيح من أجل التركيز. أثناء التركيز والتدريبات يعيش الإنسان الوجد الروحي. ذلك أنه من خلال مراقبة " أناه " يستطيع المرء أن يعايش العالم العلوي، أو الحالة التي يتوحد فيها كل شيء. من أجل ذلك إن قيادة المرشد أو المعلّم ضرورية، ما عدا ذلك فإن التوازن يُفتقد، لأنه لا يستطيع أي كان أن يحقق ذلك بمفرده. وإذا ما تمكن شخص ما من تحقيق ذلك، فسوف يكون مأخوذاً بهذا الشعور المختبر لدرجة يصبح معها خارج هذا العالم. وفي النتيجة يكون: الشرود والتشتت واضطراب العقل، وغير ذلك من النتائج غير الحميدة.

لا يوجد في الدنيا سعادة أكبر وغبطة أعظم من النشوة الروحية. اعتاد الإنسان أن يفكر: " أنا ذاك الذي أرى؛ تلك القطعة من اللحم، والدم والجلد – هذا هو أنا. لكن أثناء الوجد يتحرر الوعي من الجسد، هذه القشرة المقيِّدة، وينتقل إلى كينونته الحقيقية، التي تسمو فوق كل المآسي والأحزان والآلام. إنها السعادة العظمى. أن ندرك ذلك وأن نحافظ على رقابة جسدنا ومشاعرنا، التي من خلالها نتعرف نحن إلى هذه الحياة الدنيا، هذا يعني أن نكتسب الاتزان والرصانة – وهذه هي أسمى الحالات.

1- جاءت الكلمة في النص الأصلي بنفس اللفظ العربي.. تعني القيام بالواجبات الدينية؛ وفي الصوفية تشير الكلمة إلى تمرين خاص. المترجم

II

ليست فقط القوة أو الطاقة العصبية هي التي تساعد الإنسان على البقاء في الأرض. إلى جانب القوة العضلية والطاقة العصبية هناك أيضاً حس التوازن . التوازن بالضبط يسمح للإنسان أن يقف و أن يمشي دون أن يقع. قد يمتلك أحدهم القوة العضلية والقدرة العصبية، لكن إذا لم يتوفر التوازن فهو لن يتمكن من الوقوف ولا من التحرك. وفي مجال العقل، هل القدرة على التفكير أو هبة التخيل يجعلان الإنسان عميق التفكير؟ لا . إن التوازن هو الذي يؤمن ذلك. لدى الكثيرين خيال جامح يسمح لهم بالتحليق عالياً فوق " الغيوم "، وهناك آخرون يتمتعون ببصيرة قوية، بحيث أن أفكارهم تبقى تمشي على الأرض في ذات الدائرة إلى ما لا نهاية. أما الذي يجعل الإنسان عميق التفكير بحق إنما هو التوازن، وليس القدرة الكبيرة على المناقشة والتحليل، كما وليس الخيال الجامح .

لا شاعرية القلب العميقة ولا اختبار النشوة الروحية، لن يجعلا الإنسان مستنيراً. يمكن أن يعايش المرء النشوة الروحية، أن تتحقق له الرؤية والبراهين دون أن يكون روحانياً . كما يمكن أن تكون لدى الفرد آراء دينية، أن يحيا حياة كلها تقوى وأن يمتلك مُثُلاً عليا دون أن تكون، مع ذلك، له روح مستنيرة. هذا يظهر لنا أنه كي يصبح الجسد ما يجب أن يكون عليه، وأن يحافظ العقل على السمو المطلوب منه، لا بد من امتلاك التوازن. عند دراسة الطبيعة، نحن نلاحظ أن نمو النباتات وحياة الأشجار يرتبطان بالتوازن. حين نفكر بالفضاء ونستقصي النجوم والكواكب، فإن أهم شيء يجب علينا معرفته – أن كل جرم سماوي يدعم الآخر ويحافظ عليه. جميع الكوارث الطبيعية – ثورات البراكين، الفيضانات، الزلازل – تحدث بسبب اختلال التوازن. طالما أن الطبيعة تحافظ على التوازن، يبقى جوف الأرض مستقراً، ويستطيع الناس العيش والسير على الأرض بدون ضرر ومن دون خوف.

العواصف، الجوع ، حتى الطاعون وغيره من المآسي الأخرى، التي تجتاح البشرية، يسببها اختلال التوازن – التوازن، الذي يضمن بقاء البشرية الهادئ والمستقر. هذا يعلّمنا أنّ السرّ في حياة الفرد ، كما الكون ككل، يقوم على التوازن. يمكن القول بلا مبالغة أن السبب وراء جميع النجاحات والإخفاقات هو وجود التوازن أو عدم كفايته . التقدم أو عدم التقدم يمكن أن يُفسَّرَا عن طريق توفر أو اختلال التوازن.

هناك موضوع آخر مرتبط بفكرة التوازن. في الحركة تدوم الحياة. والتوازن – هو ذاك الذي يُبقي الحركة تحت المراقبة؛ لكن التوازن المطلق يقوم بمراقبة فوق العادية للحركة، وهذا بدوره يسبب حالة الخمول. مثلاً، لو كانت قوة اليد اليمنى مساوية لقوة اليد اليسرى، لو كانت الرِجْل اليمنى لا تختلف في شيء عن الرجل اليسرى، لما استطاع الإنسان العمل أو السير. لو كانت للعينين نفس القدرة على النظر، لما كان الإنسان قادراً على الرؤية نهائياً. كل شيء يضبط بواسطة التوازن، لكن الفائض في التوازن يسبب الضرر والخراب؛ فرط التوازن يحمل اللا حركة والجمود. أما التوازن العادي بالضبط، الذي لا يفيض – هو الذي يوصل إلى الهدف. الفن أيضاً يولد من التوازن بين الخطوط وبين الألوان، والعبقري في العلم – من التوازن بين التلقي والفهم.

تكمن المشكلة الرئيسية في كيفية بلوغ التوازن وكيفية المحافظة عليه. بخصوص المسألة الأولى، يمكنني القول أن التوازن شيء فطري، طبيعي، ولذلك ليس بلوغه هو لب المشكلة، إنما القضية هي في كيفية الحفاظ عليه وليس في كيفية بلوغه. إن تأثيرات الحياة في هذا العالم النشط تدفع الإنسان نحو الخروج من التوازن باستمرار. لا يهم، ما هو الطريق الذي يسلكه الشخص في الحياة، ماذا يعمل وبماذا هو منشغل – دوماً توجد صعوبة للاحتفاظ بالتوازن. لقد وجد الصوفيون المفتاح لذلك، وهذا المفتاح هو أن يصبح المرء منفصلاً داخل ذاته، بالتالي أن يحقق التوازن الكامل مع ذاته بذاته[1]. سبق وقلت أن التوازن المكتمل يسبب انهيار الفعل، لكن ذلك الذي يعتقد أن حياته من الصباح حتى الليل لا تتعدى أن تكون عبارة عن حركة، بالطبع هو لن يستطيع الحفاظ على التوازن المطلوب. حين يكرس المرء بعض الدقائق للاسترخاء، للسكينة، فإن الإنسان سيتمكن من ملامسة التوازن التام ولو للحظة؛ ومن ثم سيحافظ هذا التوازن على نفسه تلقائياً من خلال النشاط الحياتي.

غالباً ما يعتقد الناس، مخطئين، أنه بواسطة الاسترخاء أو عبر السكينة يمكنهم تحقيق النجاح في نشاطهم. إذا حدث وتحقق النجاح، فذلك فقط لأن التوازن أثناء الاسترخاء يمنح

1- يجري الحديث هنا حول أن نوع العزلة هذا يتحقق عن طريق الولوج في الذات. متخلصاً من كل التأثيرات الخارجية، يكتسب الإنسان إمكانية تهدئة الموجات الداخلية. عنايت خان

الإنسان القدرة للحفاظ على ذاك النوع من التوازن المطلوب للنشاط أيضاً. تتوقف الحياة الخارجية على حالة الفرد الداخلية. بغض النظر عن الوضع الحياتي – نجاح أم فشل، صعود أو هبوط – الكل يصدر عن الحالة الباطنية، التي يعيشها الإنسان داخل ذاته. الإنسان العاقل سيقول: " لهذا السبب أو لذاك السبب أنت ستحظى بالنجاح أو بالإخفاق". الإنسان النافذ البصيرة سيقول أن الروح أو الطيف (الأشباح) قد أنبأت بأن الظروف ستكون أفضل أو أسوأ. المنجّم سيقول أننا نمرّ بهذه أو بتلك من الحالات، لأن النجم الفلاني يقع في أو خارج مداره. لكن، حسب رأي المتصوفين أن الشروط الحياتية للإنسان تتوقف كلياً وبالكامل على حالة " أناه " الداخلية، على هذا الأساس، يجب تغيير شروط الحياة الخارجية أو إعادة توجيه الذات، بحيث يحقق الشغل على " الأنا " الداخلية التوازن المرجو. إن التوازن، في حال فقدانه، يسترد بصعوبات كبيرة. أولاً، من الصعب المحافظة على التوازن في الحياة اليومية، وحين يتم فقده، يصبح الأمل قليلاً بالنجاح، بالسعادة والتقدم. هذا يشبه ساعة الحائط، التي تعطلت – لن تستطيع أن تعمل ما لم يقوم التوازن المطلوب والضروري. نفس الشيء ينطبق على حالة الروح. إذا الإنسان فقد عافيته، صار مبذّراً، أرعناً ومتهوراً – هذه علامات فقدان التوازن. الشجى المفرِط، الانشغال الزائد، الكسل الفائق – كل ذلك يشير إلى عدم كفاية التوازن. كل ما نعتبر أنه مُبَالغٌ فيه، يخرج من دائرة التوازن.

الاتزان هو عبارة عن حالة التطور الفرداني والانتباه إلى الآخرين. أحادية الجانب – هي نقص في التوازن. عندما نكون غير قادرين على تقبل فكرة الإنسان الآخر – هذا يعني أنه ينقصنا الاتزان. في نفس الوقت، من الصعب القول بدقة متى وأين يبدأ التوازن. هكذا، تقاليد وصِفات الصينيين هو شيء طبيعي في الصين، وأخلاق اليونانيين والرومان القدامى كانت شيئاًطبيعياً بالنسبة لذلك الزمن و لأولئك الناس. نحن نعتبر طبيعياً ما هو شائع ومشترك بين الجميع. لهذا، مثلاً في فترة انتشار فيروس الرشح حتى السعال أو الرشح يكون أمرا عاديا.

لا جدال أن الحياة قاسية وصعبة للكثيرين منا ؛ لكننا نحن، في أحيان كثيرة، نزيدها تعقيداً بأيدينا . إذا لم نفهم الجوهر الحقيقي وطبع الحياة، فنحن نخلق لأنفسنا تعقيدات. حوالي ٥ ٪ فقط من التعقيدات سببها الشروط الحياتية، والباقية الـ ٩٥ ٪ - نحن السبب. لكن كيف، يسألوني، نحن نخلق الصعوبات لأنفسنا؟ نقوم بذلك عندما لا نرغب بالمقاومة في هذه الدنيا ، عندما نرفض الصدام ، ونرغب بالمهادنة وبالتناغم فقط . لكن يجب أن نعرف أنه كي نصنع السلام، يجب علينا بداية أن نخوض الحرب – الحرب مع الذات. العدو اللدود بالنسبة لنا – هو " الأنا " – " أنانا " نحن، أخطاؤنا ، ضعفنا ومحدوديتنا . والعقل عندنا – خائن . هو يخفي أخطاءنا حتى عن أعيننا ، ويشير إلى الأشخاص الآخرين على أنهم سبب مشاكلنا ومتاعبنا . هو يخدعنا باستمرار ، يتستر على العدو الحقيقي ويوجهنا ضد المحيطين بنا ، مُجْبِراً إيانا على معاملتهم كأعداء وأن نجلد بعضنا البعض.

كما أن مناجاة الله ضرورية من أجل المحافظة على الاتزان . كلما سَمونا أعلى، كلما صارت وجهة النظر أكثر ارتقاء ، كلما أصبحت النظرة ثاقبة أكثر وبعيدة أكثر. يتطور الإنسان أكثر و أكثر، تصبح دائرة اهتماماته أوسع وأوسع ؛ وفي كل ما يفعل يتجلى اللحن الإلهي لديه، ذلك اللحن الذي يشفي كل القلوب وكل الأرواح ويمنح لها السلام والسكينة.

الاتزان يحمي الحياة . وليس حياتنا فقط . إنه يساعد على الاحتفاظ بكل ما يحيط من الانهيار ، يجمع ويوحِّد كل شيء حول فكرة واحدة. اعتقد الناس في الشرق دائماً أن التوازن يجب أن يكون المهمة الأولى ، التي نسعى إليها ونحافظ عليها . مختلف التمارين التي وصفوها سواء في هيئة ديانة (عقيدة) أو على شكل عبادة، سواء في مملكة الفلسفة أو في مملكة النفس – كلها موجهة للمحافظة على التوازن.

المكافحة والوداعة

هناك طريقتان للوصول إلى الهدف الروحي، وكل واحدة هي مناقضة تماماً للأخرى: الأولى – درب الحُلُم والاستكانة، والثانية – طريق الصراع. مما لا شك فيه أنه على درب النضال سيتواجد التسليم والخضوع، كما أنه على طريق الوداعة يوجد الكفاح. لكن، إذا اختار أحدهم طريق التسليم فهو يفكر فقط كيف يبقى مستكيناً، ومَن يختار طريق النضال، فسيكون الجهاد غايته الأساسية. كلا الدربين مهمين وأساسيين، لا يمكن تجاهل واحد منهما كما لا يمكن الأخذ بواحد دون الآخر. كثيراً ما يعتقد الناس أن التصوف يعني السلبية. لكن الواقع غير ذلك؛ هو إيجابي وسلبي في نفس الوقت. هو عبارة عن معرفة أسرار الحياة البشرية على الأرض، معرفة ذلك، الذي يحتاجه الإنسان بالفعل بما يتناسب مع طباعه ومع وضعه.

ونحن نناقش الأسلوبين المشار إليهما في الأعلى، علينا أن نشير إلى أنه في بعض الظروف الحياتية، نحن نكون مضطرين للاستكانة. من السهل علينا أن نكون هادئين مسالمين تجاه ما لا يمكن ولا يجوز تغييره، لكن عندما تكون هناك وسائل للنضال، فمن الصعب البقاء بحالة خنوع وتسليم. الإنسان، الذي اعتاد أن يكون مسالماً في ظروف بسيطة، ربما يحسب الأمر سهلاً، لكنه لا يعرف الاستكانة الحقيقية. لنتصور شخصاً لديه أقرباء فقراء يريدون الحصول على جزء من ثروته، لأنهم بحاجة ماسة للمال. هذا الشخص لن يستطيع، رغم كل شيء، أن يستكين ويسمح لهم امتلاك جزء من ماله. بينما لو اقتحم اللصوص بيته في الليل و سرقوا كل ماله لكان سلّم و استكان بسهولة لهذه الخسارة. هذا النوع من التسليم لا يعتبر فضيلة. أن تُخضعَ ذاتك – هذا يعني أن تفعل ذلك حتى عندما توجد لديك إمكانية للرفض

والممانعة. جميع العظماء في التاريخ عرفوا قيمة الاستكانة والخنوع، ونادوا به. المسيح قال، إذا أراد أحدهم أن نمشي معه مسافة محددة – يجب أن نكون جاهزين للسير معه مسافة أبعد (حرفياً :.. ومَن سخّرك أن تمشي معه ميلاً واحداً، فامشِ معه ميلين... – لوقا ٦ : ٢٩ – ٣٦ المترجم). ماذا يعلّمنا هذا؟ الاستكانة. قد يظن البعض أن الوداعة والاستكانة ليست ظاهرة عملية، وأن هذا يسمح للعالم الأناني بالانتصار. هذه حقيقة. لكن الخسارة، إذا استطاع القلب تجاوزها، ستكون تافهة جداً بالمقارنة مع الربح. أما إذا كان الشخص لا يحصل على المتعة من ممارسة ذلك، فعليه أن لا يستكين وأن لا يخنع.

إذا كان الإنسان قادراً على الاستكانة أو الرفض – فهذا شيء رائع. لكن لا يجب عليه أن يقسر طبيعته. مثلاً، طلب أحدهم من الآخر أن يعيره المعطف المطري. على الفور أعطي المعطف؛ لكن مَن أعطاه شعر بالانزعاج لأن هذا الشخص طلب منه المعطف. وحين اضطر هو للخروج تحت المطر – فقد تعرض للبلل وشعر بالتكدّر والأسف. كان من الأفضل له بكثير لو أنه منذ البداية رفض للطالب طلبه، بعد أن يبين له أنه، للأسف، غير قادر على إعارته المعطف. إذا الشخص أعطى يوماً شيئاً ما، عليه أن لا يندم، بل عليه أن يشعر بالرضى من البلل، بينما هو ساعد شخصاً آخر. إذا أعطيت – اعطِ من كل قلبك.

الإنسان الحليم المستكين الحقيقي لن يُظهرَ ذلك أبداً. وهذا ليس سهلاً. هناك عدد كبير جداً من الناس في العالم يحاولون تعلم الأشياء الروحية المدهشة! لكن ذلك الأمر البسيط – التسليم والحُلُم – مع هذا، هو أكثر روعة.

هذه الفضيلة ليست رائعة وحسب، هي عجيبة حقيقية. يقوم الحلم على مجموعة من الأشياء الصغيرة؛ ونحن لا نلحظه بشكل دائم، لكنه موجود فيها. عادة يطلب منا المحيطون أن نفعل لهم ما هو لا يروق لنا. يقولون لنا ما لا يمكننا قبوله والسكوت عليه، نرغب بالرد. وهكذا كل شيء في حياتنا اليومية يسبب لنا وخزات صغيرة. لو لم نوادع ونستكين لكنا أمضينا كل يوم ونحن في حالة توتر دائم. لذلك، أن تكون مستكيناً، حليماً – ليس علامة ضعف. إنها قوة عظيمة. إذا ذهبنا أبعد قليلاً، فسنجد أنه يمكن الاستكانة للبرد وللقيظ، مع الأمكنة المريحة و غير المريحة، وأن كل هذا التسليم له معنى ويجلب لنا الفائدة. كل شخص

يمكنه أن يخلق في نفسه عادةَ الاستكانة؛ وإذا ما عجزنا عن الاستكانة لاختبار قد تتعرض له، قضاء وقدر، نكون فوّتنا فرصة هامة.

يوجد في هذه الدنيا نوعان من القوى: القوة الجمعية والقوة الفردية. في المصطلحات الصوفية يطلق على الأولى الجزاء، والثانية – القدر. غالباً، لا تقبل القوة الفردية بالانسحاب والاستسلام وكنتيجة لذلك تتعرض للتدمير. مثلاً، يستدعى شخص للخدمة الإلزامية للدفاع عن الوطن. هو لا يريد أن يحارب. لكن مهما تكن مثاليته دقيقة وشفافة، فإنها ستبقى عاجزة أمام سطوة كل الأمة. عليه أن يستكين في الحالات التي ينشأ فيها صراع بين القوة الأصغر والقوة الأعظم. التسليم هنا – هو المخرج الوحيد.

بالطبع، يجب فهم كل شيء بشكل صحيح. لا معنى لتلك الاستكانة، التي يجري التبشير بها بطريقة غبية. في يوم من الأيام، كان أحد المريدين، الذي تعلّم الاستكانة على يد أحد المرشدين، يسير في الشارع وهو مستغرق بالتفكير حول الاستكانة والوداعة، وإذ بفيل يخرج من مكان ما ويهجم عليه. عندها صرخ رجل عاقل للمريد أن يبتعد إلى جانب، لكن هذا لم يفعل لأنه حاول ترويض نفسه أمام الفيل، وبالتالي قذفه الفيل بقوة على الأرض. حمل الناس المريد إلى المرشد، الذي سأل كيف حصل أن جرح المريد. فأجاب التلميذ أنه كان يتدرب على الاستكانة. فسأل المرشد: "ألم ينصحك أحد بالابتعاد؟" – "نعم، – أجاب المريد، – لكنني لم استمع للنصيحة". "لكن، – قال المرشد، – لماذا أنت لم تخضع نفسك تجاه ذلك الإنسان؟". غالباً ما تتم ممارسة المبادئ الدقيقة بدون أدنى فائدة. مع ذلك، لقد أثبت التسليم أنه هو طريق القديسين، لأنه ينمّي في الإنسان الصبر. وما هو الصبر؟ أنه جوهرة. ليس هناك من شيء أثمن، وليس هناك ما هو أكثر بركة من الصبر.

إليكم هذه القصة عن نبيٍّ مرض في أحد الأيام. لقد عانى سنوات طويلة. هذه المعاناة زادت من حدة الذهن والفطنة لديه. لكن معاناته كانت قاسية لدرجة أن المقربين منه لم يعد باستطاعتهم التحمل، مما اضطر النبي على البحث عن مخبأ له والانفراد إلى الله في الغابة، لكي يريح أقربائه من تأمله لآلامه. وبما أن نظرته كانت ثاقبة، وآذان قلبه كانت مفتوحة، فقد

سمع صوتاً صادراً عن الأشجار: " أنا – الدواء لمرضك ". فسأل النبي : " وهل حان الوقت لشفائي؟ " فأجاب الصوت: " كلا ". عندها سأل النبي: " لماذا علي، إذن، أن أتناولك ؟ " فيما بعد عاش النبي نفس المعاناة. من جديد سمع هو الصوت. ولكن الصوت أجاب على سؤال النبي حول ما إذا حان وقت شفائه، بالإيجاب. لكن النبي قال مرة أخرى: " ولماذا عليَّ أن أتناولك؟ " – لأنه لم يكن يعتبر نفسه قد بلغ الاستكانة المثالية.

عندما نفكر بالمثل الأعلى، يمكن أن تنشأ عندنا شكوك حول مدى جدواه، خاصة في زماننا هذا، حيث يوجد عدد كبير من العقاقير وكمّ هائل من الأدوات التقنية. لكن الإنسان العاقل يعتقد أن كثيرين من الناس قد دمّروا حياتهم بانتقالهم من علاج إلى آخر دون أن يكون لديهم لا الصبر ولا الاستكانة اللذان يتضمنان شفاءهم الكامل. فالعقاقير لا تكون دائماً هي الحل المناسب للمشكلة. بل غالباً الحل يكون في الصبر. يبدو أن الإنسان مع كل يوم يصير أقل مقدرة على الصبر، وقد غمرته هذه الحياة السطحية. ونحن نادراً جداً ما نحاول الصبر على الصغائر، مع أنه من الواضح تماماً أن الاستكانة هي أفضل بكثير من النرفزة.

حين نسلّط الضوء الروحاني على هذه القضية، فإننا نجد أنه عندما نكون مسالمين فنحن نشكل وَحْدَةً هارمونية مع الخلود. كيف يمكننا تعلّمُ ذلك؟ ربما، عن طريق الاستكانة أمام الله؟ كلا، بل علينا فوق ذلك أن نتعلم درساً أكثر عظمة. أولاً، علينا أن نتعلم الاستكانة تجاه الصعوبات اليومية الصغيرة، أن لا نغتاظ من أجل كل تناقض. لو أننا استطعنا امتلاك ذلك لما كان علينا أن نمجِّدَ القوة العظيمة، ذلك أن تواجد مثل ذاك الإنسان لوحده كاف ليمارس أثراً علاجياً. إن هكذا إنسان هو أغلى من وردة جورية، لأن للوردة أشواك أكثر من الأزهار.

الاستكانة أو الوداعة – هي محصلة تطور الروح؛ نتيجة إما الحب، إما الحكمة. هذه الحقيقة يمكن ملاحظتها في حياة الرضيع والمراهق. إذا أعجبَ الرضيع بشيء ما، فهو يعرف شيئاً واحداً فقط : هو يَريد ذلك. إن لم يكن الشيء المرغوب في متناول اليد، فإن الطفل سيشعر بالخيبة. ولكن كلما نما الطفل وتطور في الحياة، كلما تعلم هو الاستكانة

والخضوع. الفرق بين الروح غير الناضجة والروح المتطورة على طريق الحكمة يقوم في أن الروح الناضجة تبدي بطبيعتها تطور قوى الاستكانة والكبح . بالطبع ، إن الإنسان يمتلك إرادة حرة، لكن قدراته جداً متواضعة بالمقارنة مع السلطان المطلق لإرادة الرب، الذي يكشف عن نفسه من خلال أشخاص أكثر قوة، أو من خلال الظروف، التي لا يمكن تغييرها، وكذلك من خلال أشكال مختلفة. الاستكانة – لا تعني مجرد الاستسلام لأحد ما، بل الاستكانة تعني أن تكون راضياً وأنتَ تستسلم. أن تكون مستكيناً يعني أن تجد الرضى في نكران الذات.

الاستكانة – هي ميزة الأرواح المقدسة. هي مرة المذاق، لكنها حلوة في النتيجة. مهما يكن الموقع الذي يشغله الإنسان في الحياة، مهما تكن السلطة التي يتمتع بها، دوماً ستوجد إرادة أكثر عَظَمَة تتظاهر في هذه الصيغة أو تلك. حقاً، إنها مشيئة الله. وهو يقاوم إرادة الرب، يمكن للإنسان أن يدمّر نفسه؛ بينما الاستكانة تجاه المشيئة الإلهية ستفتح الطريق أمامه. الاستكانة لها طبيعة الماء: إذا ما نشأ عائق على طريقه، فإن الماء يتخذ سبيلاً آخر ويستمر في الجري، متابعاً سيره إلى أن يلتقي بالمحيط. لذلك فإن الأرواح المقدسة قد مَشَت في درب الاستكانة، كما وحافظ أصحابها على إرادتهم حيةً. هذه الإرادة لها قدرة شق طريقها الخاص. الإنسان المستكين بطبيعته يصبح في نهاية الأمر عزاء بالنسبة لنفسه، وسعادة بالنسبة للآخرين.

لا يجب اعتبار الاستكانة مظهراً من مظاهر الضعف ، الكسل ، التخاذل أو قلة في الحماس. الاستكانة في الواقع – هي تعبير عن السيطرة على "الأنا" الخاصة. إن محاولة الاستسلام لإرادة غريبة أو لظروف معينة لا تجلب دوماً الضرر للانسان المستكين . ربما قد يبدو ذلك غير مربح أحياناً، لكن فيما بعد يجري إدراك الفائدة من تلك الفضيلة. إن نقص القدرة على التحمل والثبات يعتبر السبب ، الذي يمنع الروح من بلوغ الاستكانة، لأنها تكون عاجزة عن تحمل الألم أو عن التسليم بالفقدان.

أما القادرين على الاستكانة، فهم يستخدمونها ويمارسونها حتى عند التعرض لأبسط ظروف الحياة اليومية. هم يتجنبون استعمال قوة الإرادة لديهم بلا سبب، من أجل أية صغيرة. الاستكانة – هي سلبية، وأحيانا تكون غير مفيدة في حياة الإنسان الناشط الذي يسعى للهدف. لكن الحيوية الدائمة، حيث تصرف باستمرار الطاقات والقوى ، غالباً ما تؤدي للهزيمة. كل نشاط يجب أن تتم موازنته بسلبية ما . يجب أن تكون نشيطاً عندما يتطلب الأمر ذلك، وأن تصبح سلبياً حين يتطلب الوضع السلبية. بالضبط، عبر هكذا طريق يمكن بلوغ النجاح في الحياة، وربما السعادة التي تسعى إليها كل روح.

إن المعنى الرمزي لدخول السيد المسيح إلى القدس راكباً على حمارة في أحَد الشعانين ، يقوم على أن الحمارة مع الصليب على ظهرها ، وهي تحمل كل الأثقال ، توضح الاستكانة تجاه إرادة السيد. هذا امتياز لذاك الذي يخدم : مهما يكن متواضعاً ذاك الذي يخدم ، فهو مبارك بأن يؤدي الخدمة للرب .

إنكار الذات

نكران الذات والزهد – شيئان مختلفان تماماً. إن الأخلاق الصوفية بخصوص إنكار الذات وغير ذلك الكثير تختلف عن أخلاق الزاهد. فالزاهد لا يتزوج، لا يأكل بشكل جيد ، لا يرتدي لباساً جيداً ولا يقوم بأي عمل مما يسبب المتعة للإنسان . بينما المتصوف يعتقد أن كل ما في الدنيا هو موجود لأجله، ولذلك لا توجد ضرورة ملحة لأن يغادر هذا العالم ، حاملاً معه رغبات لم تتحقق . لكنه يحافظ على ذاته محررة من سلطة تلك الرغبات. هو لا يذهب إلى الجبال من أجل الانفراد ، هو يعيش بين الناس . يمكنه الذهاب إلى الجبال لو أراد ، لكن لا يوجد هناك ما يمكن أن يبقيه في الجبال إلى الأبد. لا شك أنه من السهل أن يصبح الإنسان روحانياً وكهنوتياً أكثر في كهف جبلي، مما بين الناس، وسط العالم ! لكن الصوفي ليس مضطراً للهروب من العالم، لأنه يرى ويعرف صورة معشوقه، صورة الرب في كل مكان وفي كل شيء .

و إذا ما اعترض مرشد ديني قائلاً : " كلا، لا يجوز لكم سماع الموسيقى، لا يمكنكم مشاهدة المسرحيات، مشاهدة الرقص أو أن ترقصوا " – ربما من بين الآلاف سيوجد شخص واحد قد يلتزم بهذا الرأي وسيعتزل في الصحراء. لا شك ، أن ذلك التلميذ سيجد هناك مساعدة أكبر للبحث عن الروحانية، لكنه لن يتمكن من التعرف على العالم الذي هجره، وبسبب ذلك سيبقى دائماً عرضة للإغواء .

من الأهم والأصعب بكثير أن يعيش المرء بين الناس وأن يبقى روحانياً في نفس الوقت. أن تتحمل مسؤولية الحياة، الاهتمام بالأصدقاء وبالأقارب، أن تخدم الأعداء والأصدقاء على السواء وفي نفس الوقت أن تبقى روحانياً. أن تتجاوز الضغط الدائم للمحيط، أن تكون في

خضم المسؤولية، أن تعاني من العداوة – هذا أصعب بكثير وأعظم بكثير من أن تعيش زاهداً في الغابات. إن الدربين كلاهما محفوف بالمخاطر. إذا كان الإنسان يعيش وسط العالم، فإن الميل الدفين إلى الملذات والرغبة في معرفة العالم يمكنهما في أية لحظة أن تعيده إلى الوراء. كما حصل مع اليوغا ماخاتشاندرا Makhachandra، الذي كان مستنيراً عظيماً وكان لديه عدد من المريدين، وجعلت منه الملكة ماخيلا Makhila ملكاً. بلحظة واحدة هوى من القمة، التي ارتفع إليها بفضل الزهد القاسي خلال أعوام طويلة. رجال اليوغا يعتقدون أنه من الأفضل هجر الدنيا؛ بينما المتصوف يختار الحياة وسط الناس، لكن الممتلئة بإنكار الذات. هو يحبذ معرفة العالم عن طريق خدمة الجميع، بشرط أن يمارس نكران الذات في نفس الوقت.

حتى التضحية هي أدنى من إنكار الذات، على الرغم من أن التضحية هي، من حيث المبدأ، عبارة عن نكران للذات. أن تقدم نفسك كقربان – هو درس يقدمه عادة الأنبياء وأساتذة الروح للإنسان من أجل تعليمه إنكار الذات. إن جوهر الفضيلة من جراء التضحية مبني على الاستعداد لتقديمها. مع ذلك، إن نكران الذات لا ينطلق من المبادئ، إنما من المشاعر.

إن نكران الذات يؤثر أوتوماتيكيا على قلب الإنسان، علماً أن هذا التأثير يدركه قليلون، لأنهم قلة أولئك الذين يبلغون المستوى المطلوب من التطور لنكران الذات. ذلك التأثير يُشعلُ في الروح شرارة الروحانية. وعندما يبلغ الإنسان تلك المرتبة، فهو يبدأ الخطوة الأولى على طريق الروحانية. إن الشرارة، التي يطلقها ذلك التأثير في أعماق القلب، تتحول إلى لهيب، إلى مشعل ينير الحياة. هذا يغيّر الأفق الحياتي بكامله. يبدو العالم بلون آخر، ذات العالم حيث الإنسان عاش، عانى، فرِحَ، تعلّمَ ونسي – كل شيء يتجدد بعد أن يتم استيعاب درس إنكار الذات.

نكران الذات يعني التخلي عن " الأنا " والتخلي عن كل ما يعتبر مفيدا للـ" أنا ". كل شيء في العالم يمكن استعماله ببساطة، ويمكن المبالغة في استخدامه – نفس الشيء ينطبق على مبدأ إنكار الذات، الذي يمكن استخدامه أو إساءة استعماله. الناس غالباً لا يفهمونه بشكل صحيح، و أكثر التفسيرات الخاطئة شيوعاً يقوم على أن إنكار الذات هو رفض المتعة والسعادة، اللتين يمكن أن يقدمهما العالم. فإذا ما تم التعامل مع نكران الذات كما لو مع

دوغما، لكان الأمر بدا وكأنه لا معنى لعملية الخلق برمّتها. لِما كان الخلق قد تظاهر أبداً، لو أن النكران كان غاية بحد ذاته. لذلك فإن إنكار الذات بحد ذاته لا يعتبر فضيلة أو إثماً؛ هو يكتسب الفضيلة أو الإثم طبقا لطريقة استخدامه.

إذا ما نظرنا إلى إنكار الذات من زاوية ميتافيزيقية، فإننا سنجد أن هذا المبدأ يؤدي دور السلّم، الذي يرفع الإنسان اعلى من جميع الأشياء. أن طبيعة العيش وسط العالم تجعل جميع الأشياء، التي تجذبنا، تتحول في يوم ما ليس فقط إلى قيود بل والى أعباء. الحياة – هي عبارة عن رحلة أبدية، وكلما كان الحِمْل اثقل كلما كانت الرحلة أصعب. تفكروا كيف أن الروح، التي تسعى دوماً للسير إلى الأمام، تزداد قيودها مع كل يوم، ويزداد حملها أكثر فاكثر! الروح تخطو الخطوة وتلاحظ، أنها مكبّلة بالقيود. هي ترغب بالتقدم للأمام، لكن مع كل خطوة يصبح السير أصعب.

من هنا نرى أن جميع المفكرين والحكماء، الذين تمكنوا من إدراك كنه الحياة قد اتخذوا من إنكار الذات دواءً. كمثال توضيحي يمكننا أن نورد حكاية الكلب والخبز. الكلب، وهو يمسك في حنكه قطعة من الخبز، جاء إلى بركة الماء، وبعد أن احتسب انعكاسه في الماء كلباً آخر، فقد راح ينبح عليه. بمجرد أن فتح فمه سقطت قطعة الخبز في الماء. كلما دققنا في أخطائنا المعيشية، في رغباتنا الحيوانية كلما اكتشفنا أنها ليست بعيدة كثيراً عن الكلب في تلك الحكاية. لنتذكر مآسي شعوبٍ بأكملها، كيف أن أجدادنا الأقدمين كافحوا بضرواة في سبيل ما هو مادي، ما هو متحول، ما هو عابر! كل ذلك يدلل كم كان الإنسان معمياً بالجانب المادي للحياة، كيف اعتاد إهمال الأسرار المخبأة وراءها.

عندما نحاول مناقشة ماذا يجب علينا أن نتجنب، وكيف علينا أن نمارس النكران بالضبط، علينا أن نتذكر قبل أي شيء، أن الفضيلة تنتفي عندما يُجبر الإنسان على القيام بها. ذلك، الذي تثبّت له الفضيلة بالقوة، مَن يمارس النكران مجبراً، ذاك لن يستطيع أن ينكر ذاته بشكل صحيح. الفضيلة، التي تسبب الألم – ليست فضيلة. إذا كانت تفرض المعاناة، فأية فضيلة هذه؟ الفضيلة هي تلك، التي تجلب السعادة، أما ما ينزع السعادة فلن يكون فضيلة

إطلاقاً. إن نكران الذات يكون صحيحا فقط عندما يفهمه ويقدر عليه مَن يمارسه. مثلاً، شخص ما يسافر في قطار ويريد أن يخفف من جوعه بقطعة من الخبز. جاره أيضاً يريد أن يأكل، لكن ليس لديه ما يأكله. إذا اعتبر الأول أن إعطاء الخبز ليجوع سيكون بمثابة دمار ما بالنسبة له، لكنه سيجعله يشعر بالتعاسة فيما بعد، فمن الأفضل له أن يأكل الخبز، لأن ذلك لن يكون إنكاراً للذات. وإذا فعل هذا مرة، فهو لن يفعل ذلك في مرة أخرى بالتأكيد، لأنه قد عانى و إن الفضيلة سببت له التعاسة. لن تنشأ في أخلاقه ميزةُ الفضيلة. فقط مَن يشعر برضى وبحبور أكبر، عندما يرى كيف أن الآخر يأكل خبزه وليس هو مَن يأكله – فقط هؤلاء يكونوا قادرين على ممارسة نكران الذات.

فقط مَن تملأ قلبه الغبطة بعد أن يقوم بفعل النكران، يكون قد مارس النكران. هذا يبين، كيف أن النكران – لا يمكن تلقينه أو تعلمه. النكران يأتي إلى الإنسان من تلقاء ذاته، حين تتطور الروح لدرجة تبدأ معها إدراك القيمة الفعلية للاشياء. كل ما يبدو ثمينا للآخرين يصبح في نظر الحكيم مختلفاً. هكذا، إن قيمة كل شيء، بغض النظر عما إذا كنا نعتبره ثميناً أم لا، تتوقف على طريقة النظر إليه. بالنسبة لأحدهم قد يكون التخلي عن الفرنك أمراً كبيراً، بينما بالنسبة لآخر ربما يكون كل ما يملك – هو لاشيء. هذا يرتبط بكيفية النظر إلى الأشياء. الإنسان يرتفع فوق كل ما استطاع أن يتخلى عنه. هو يصبح مَلِكاً على كل ما تخلى عنه، وعبداً لكل ما لم يستطع أن يتركه. العالم بكامله قد يصبح مملكة الإنسان، الذي يتخلى عنه!

إن المقدرة على إنكار الذات تتعلق بدرجة نمو الروح . و الإنسان القاصر روحياً لا يستطيع الالتزام بالنكران الحقيقي. الألعاب قد تكون ذات معنى بالنسبة للأطفال ولا تعني شيئاً للكبار. من السهل التخلي عن الألعوبات. هكذا هو الأمر مع أولئك المتطورين روحياً – هم يتخلون بسهولة عن كل ما يشاءون.

كيف يمكن السير على طريق نكران الذات؟ بداية يجب على المرء أن يتعلم الاختيار بين شيئين. فالإنسان بـ " طباع الكلب " في تلك الحكاية لن يتمكن من ممارسة النكران. هو يريد هذا وذاك، لكن الحياة مُصَمَّمة بحيث إذا كان أمامنا شيئان مرغوبان ، فيجب علينا التخلي عن إحداهما.

إن الفطنة البشرية يجب أن تقرر بماذا يمكن التضحية ولأجل ماذا. هل يجب تفضيل

السماوات على الحياة الدنيا أم الحياة الدنيا – على السماوات، الثروة – على الشرف أم الشرف – على الثروة؛ هل يجب التخلي عن الأشياء ذات القيمة العابرة من أجل الأشياء الخالدة أم يجب التخلي عن ما هو خالد لصالح ما هو مؤقت؟ من طبيعة الحياة أنها دائماً تطرح خيارَيْن، و غالباً من الصعب اختيار واحد منهما. يحدث أن يكون أحد الأشياء في حوزتنا، بينما الشيء الآخر غير متوفر بعد، ونضطر لاتخاذ قرار حول أي منهما يجب التضحية به، وكيف يمكننا الحصول على الشيء الثاني الذي ينقصنا. غالباً ما تنقصنا العزيمة من أجل نكران الذات. وهذا لا يتطلب فقط المقدرة على التمييز بين الشيئين، بل والإرادة للقيام بما نريد أن نعمل. أن تفعل في الحياة ما تريده ليس بالأمر السهل؛ فالحياة صعبة للغاية. كثيراً ما نكون عاجزين عن إنجاز نكران الذات لأن " الأنا " خاصتنا لا تريد سماعنا. ولما كنا نحن عاجزين عن سماع أنفسنا، فكم بالأحرى من الصعب على الآخرين أن يصغوا الينا!

يمكن اكتساب إنكار الذات بشكل طبيعي. قبل كل شيء، علينا أن ندرّب حواسنا التمييزية، وذلك لكي نجري تمييزا بين ما هو ثمين وما هو أدنى قيمة. يمكننا دراسة ذلك عن طريق الاختبار، تماماً كما يتم تمييز الذهب الحقيقي عن التقليدي. التقليدي لا يعمّرُ طويلاً ويصير أسود بسرعة، بينما الحقيقي – يحافظ على لونه. هذا يشير إلى أن قيمة الأشياء تقاس بثباتها. ربما يسأل أحد، ألا تحدد قيمة الأشياء طبقاً لجمالها. بالتأكيد، يجب علينا أن نعرفها وفقاً لجمالها، لكن من الضروري اختبار الجمال لناحية الثبات والأبدية. تأملوا الفرق في الثمن بين الزهرة والألماس! فالزهرة بالرغم من رقتها، جمال ألوانها ورائحتها الفواحة، هي تذبل بسرعة مقارنة مع الألماس لسبب واحد هو أن جمال الزهرة يبهت في اليوم التالي، بينما الألماس سيبقى بلا تغيير. هذا يوضح المنحى الطبيعي، وهذا لا حاجة لتعلمه. نحن دوماً نميل إلى الجمال، بنفس درجة ميلنا نحو الثبات والديمومة. إذا كانت الصداقة غير دائمة، مهما تكن رائعة – هل هي ذات قيمة؟ ما أهمية المركز الرفيع والاعتبار طالما هما مؤقتان؟ لكن الإنسان، كما لو أنه طفل بالضبط، يجري دائماً خلف كل ما يجذبه ويتبدل باستمرار، في حين أن روحه تبحث عن الاستقرار.

هناك طريقة وحيدة لتعلم نكران الذات – طريق معرفة النفس، التي تشكل جوهرنا، طريق فهم ماذا يشدّها وإلى ماذا تسعى، ومحاولة السير إلى حيث هي تدعونا. الحكمة تتأتى عبر إنكار الذات. الحكمة ونكران الذات يسيران جنبا إلى جنب، لأنه من خلال التخلي عن نفسه يصبح الإنسان أكثر حكمة، والحكيم يكتسب المقدرة على نكران الذات. إن السبب الرئيسي لمعاناة الإنسان بين أفراد عائلته، في وطنه وفي العالم ككل، هو عدم قدرته على نكران الذات.

تطور الحضارة، من حيث المبدأ، هو تطور حس إنكار الذات، الذي يتجلى في احترامنا بعضنا لبعض. كل عمل يتسم بالأدب وبالمجاملة يعبر عن نكران الذات. عندما يتنازل المرء عن مكانه لآخر أو يمنح شيئاً حسناً - هذا هو إنكار الذات. الحضارة في جوهرها هي عبارة عن نكران الذات.

إن واجب كل روح هو الوصول إلى أعظم وأسمى هدف – الله. نكران الذات ضروري في كل شيء، وذلك الهدف يتطلب أسمى آيات الترفع ونكران الذات. أما نكران الذات الإجباري، حتى ولو كان في سبيل الله، لا يعتبر صحيحاً أو حقيقياً. أما نكران الذات المثالي يمكننا أن نجده فقط لدى أولئك الذين هم قادرون عليه. لنتذكر أبرا هام في التوراة، الذي كاد يذبح ابنه كتضحية. الإنسان المعاصر ربما يسخر من القصص القديمة، مفسراً إياها من وجهة نظره. لكن تأمّلوا كم كان كبيراً عدد الآباء والأمهات الذين ضحوا بأبنائهم في سبيل الأمة، من أجل شعبهم ولأجل شرفهم! ليس هناك تضحية أعظم من التضحية في سبيل المثال: مادي أو روحاني، دنيوي أم سماوي، بشري أم إلهي.

طالما أن نكران الذات يمارس من أجل التطور الروحاني، هو يبقى طريقاً صحيحاً. لكن مجرد أن يتحول ذلك إلى دوغما، هو يصبح مبالغاً به أو إساءة للاستخدام. الإنسان، في الواقع، يجب أن يكون سيد الحياة. هو يستطيع استخدام نكران الذات، وليس العكس. هكذا هو الأمر مع جميع الفضائل. عندما تُخضع الفضائلُ حياةَ الإنسان لصالحها، عندئذ هي تتحول إلى معبودات، والانحناء للمعبودات لا يجوز و لا يصح. يجب الانحناء للمثال، الذي يقف خلف المعبودات.

الفرق بين الإرادة، السعي والرغبة

الإرادة — عبارة عن تطور السعي. عندما نقول أن شيئاً ما حدث وفقاً لإرادة الإله، فهذا يعني أن ذلك كان بمثابة الأمر. كان ذلك سعياً وقد تطور إلى فعل. حين يتطور السعي إلى فعل — هو يتحول إلى إرادة، إلى أمر، إلى قرار. السعي يبقى سعياً طالما هو بلا فعل؛ هو قائم عملياً، لكنه لم ينمو، لا زال سلبياً، كما البذور التي تم نثرها في التربة. لكن في اللحظة، التي تخرج فيها البذرة من التربة كنبتةٍ وتبدأ المشاركة في عملية التطور، متحولة إلى نبات، عندها تصبح إرادة. إن السعي والإرادة — تسميتان لشيء واحد، السعي هو حالة غير متطورة أو غير مكتملة، بينما الإرادة — عملية تطور السعي.

أما الرغبة فهي المرحلة الأكثر ضعفاً أو الأكثر بدائية من السعي. حين يتعلق الأمر بفكرة حول أن يكون شيء ما مرغوباً، دون أن تتبلور نهائياً وبوضوح، حيث أن العقل لم يتخذ بعد قراراً محدداً، فإنما هذا يعتبر مجرد رغبة، خيال. حتى إذا ما تطورت الفكرة قليلاً، فإنها تتحول إلى سعي؛ عندئذ هي تتواجد في الوعي بشكل دائم دون أن تتطاير كالغيوم. السعي يكون ملموساً، محسوساً، واقعياً، ولكن لم يتحقق بعد لأنه لكي يتحقق لا بد من أن يتوسع.

هناك في العالم عدد غير قليل من الناس، الذين يزعمون أن الفشل يلاحقهم طيلة حياتهم، دون أن تتحقق مساعيهم. هم يميلون بسهولة للاعتقاد، أن روحاً شيطانية تعرقلهم، أن الله ضدهم، وربما النجوم أو أشياء أخرى لا تسمح لرغباتهم بالتحقق. لكن الواقع هو غير ذلك. أولاً، الإله يريد ما نحن نرغب به. لو أن الله أراد شيئاً مناقضاً لرغبتنا، لما كنا نحن

احترمنا هكذا إله، هو ضدنا دائماً. فوق ذلك، لا يوجد أي مغزى لمناقضة مساعي الإنسان، كما لا توجد فائدة من السير ضد مشيئة الله. أما توضّع الكواكب والنجوم، بالفعل، قد يناقض رغباتنا، ومعروف القول المأثور: " الإنسان يقدِّر، والرب يقرر". ففي هذا المقولة يتم وضع الإله في مكان الأجرام السماوية، مع أن الله – في حقيقة الأمر – من حيث رحمته وعطفه لا يسعى على الإطلاق إلى معارضة رغبة أيٍّ كان، ولماذا الكلام عن الله، فالإنسان صاحب القلب الطيب لن يمانع رغبات شخص آخر، بل هو سيفعل كل ما بوسعه ليساعد في تحقيق تلك الرغبة.

يحدث عادة، أن الإنسان نفسه قد يكون من ألد أعداء رغباته الذاتية. ولهذا أسباب كثيرة، منها – الإنسان لا يكون واثقاً من رغباته أبداً. من بين مئات البشر نادراً ما يوجد شخص واحد يعرف بالتأكيد ماذا يريد، بينما الـ٩٩ ٪ الباقون غير واثقين في ذلك. اليوم قد يشتهون هذا، وغداً – شيئاً آخر، والرغبة تتدمر وتختفي بين شكوك الروح.

هناك صنف آخر من الناس – أولئك، الذين اتخذوا موقفاً سلبياً. هم يعتبرون أنه من الإثم أن يرغبوا في شيء ما، على الرغم من أنهم لا يستطيعون العيش بدون بعض الرغبات. ففي حالتهم هذه هم يقررون عدم التمني، هم يقاومون كل رغبة لديهم. وهناك صنف رابع من الناس: أولئك، الذين يرغبون بشيء ما، لكن غياب التركيز لديهم لا يسمح بتحويل رغباتهم إلى سعي، لذلك تبقى رغباتهم في المرحلة البدائية. وفي النهاية، هناك صنف خامس من الناس، القادرين على تحويل الرغبات إلى سعي، لكنهم وقد أنجزوا ذلك، مثل هؤلاء لا يقومون بالخطوة التالية. لذلك لا تتحقق الرغبة أبداً، إنما هي، كما لو أنها لا تبلغ الذروة، التي يرقى إليها فقط عندما يتطور السعي إلى إرادة.

تلك القضية ذات أهمية استثنائية في حياة كل واحد منا. ليس هناك مَن يعيش في هذا العالم دون أن تكون لديه رغبات ما. وإذا ما وُجِدَ أحد ما لا يرغب بشيء، فهو لن يتابع العيش في هذه الدنيا، لأنه سيتحاشى الحشود، أي أنه سيذهب إلى الجبال، بعيداً عن هذا العالم، لكنه حتى هناك سيكون مضطراً أن يتحول إلى شجرة أو صخرة، لكي يستطيع البقاء، لأن الاستمرار في الحياة ورفض أية رغبة – أمر مستحيل.

يوجد في " الحّيان Hayyan " عبارة قد لا يفهمها الجميع : " كبت الرغبة معناه قطع الطريق للدافع الإلهي " . أولئك، الذين يميزون بين الإلهي وغير الإلهي ، هم يرتبكون خطأ كبيراً ، إما لأن كل شيء إلهي أو لا شيء . الفرق الوحيد هو كالفرق بين الآلة والمهندس . عقل الإله الكلي يعمل وفي نفس الوقت إن الأداة – الآلة الربانية هي أيضاً تعمل ؛ من هنا نجد أن الرغبة الناشئة يكون مصدرها الإله ولذلك هي عبارة عن نبضة إلهية . الإنسان المؤمن ، لعدم معرفته ، قد يتصور عكس ذلك ولذلك هو يجعل من الله أسيراً في السماوات .

سطر آخر من " الحّيان Hayyan " يقول : " كل ما يُشعِل في القلب رغبة جامحة ، هو يحرمه من الحرية " . تكمن الحقيقة في أن الإنسان ، الذي تستولي عليه رغبة جامحة ، يكون مكبلاً بسلسلة أمتن من أية قيود . يجب الحد من الرغبات ؛ هذا ليس مجرد درس في الأخلاق ، بل قاعدة فلسفية . من جهة أخرى ، أن تعيش دون أن تتمنى أو ترغب ، أمر مستحيل . بالطبع ، إذا كنا لا نريد التحول إلى صخرة . بدون شك ، إن مَن يستطيع التحرر من الرغبات ، يكون قد امتلك حرية الصخرة . لكن ، حتى الصخرة ربما تنتظر اليوم ، الذي تستطيع فيه أن تحس بالرغبة . إن الرغبة بالكينونة تجيء عادة مع تطور الشكل الإنساني .

الفروقات بين الناس تتفق ورغباتهم . واحد يحلم بالأرض ، آخر – عن السماوات . أحدهم يرغب الدنيا ، الآخر – الحياة الآخرة . الإنسان هو – عظيم أو تافه ، حكيم أو غبي ، على الطريق القويم أو الطريق الكاذب بما يتفق مع رغبته .

الصوفيون يميزون بين مفاهيم الجزاء – الإرادة الشاملة ، القوة الكونية المطلقة ، والقدر – القوة الفردية . من الواضح ، أن القوة الفردية بالمقارنة مع الشاملة هي أشبه بالقطرة مقارنة بالمحيط . هي عاجزة عن الصمود في وجه الأمواج البحرية ، التي تبيدها . لكن القطرة ، وقد خرجت من نفس المصدر ، الذي نشأ البحر منه ، تمتلك قوتها الخاصة المحددة ، وكذلك الإرادة الفردية للوقوف في وجه القوى المعادية .

إذا كنا نريد أن نوضح الفرق بين الإرادة الفردية والإرادة الشاملة ، فبإمكاننا توضيح ذلك على أشياء بسيطة . الإنسان ، الذي يسير في الشارع وهو يقول : أنا جائع ، أنا ، على

الأرجح، سأذهب إلى المطعم وسآكل " – هذا يبدي إرادة فردية. إنسان آخر يلتقي في الشارع بمتسول، فيقول: " يبدو أن هذا الإنسان جائع وتعيس. كيف يمكنني أن لا أساعده؟ أنا أريد أن أراه سعيداً ولو ببعض الشيء " – في اللحظة التي يريد أن يفعل الخير فيها، تتحول إرادته إلى إرادة شاملة، كلّية.

السبب في ذلك هو أن الإرادة الفردية تتحدد بكون الفكرة تتعلق بالذات، لكن بمجرد أن ينسى الإنسان نفسه، بمجرد أن يفكر بالآخر، فإن تلك الحدود تزول وتصبح إرادته أقوى . من أين شحذوا إرادتهم جهابذة البشرية، الذين قاموا بأمور عظيمة للغاية؟ لقد كانت تلك إرادتهم الخاصة، المضاعفة عن طريق إزالة الحدود التي يفرضها التفكير بالـ " الأنا".

هذا لا يعني أنه لا يجوز لأحد أن يفكر بنفسه وأن يهتم بغذائه وبعشائه. " الأنا " حاضرة، ويجب على الإنسان أن يهتم بها . لكن، في الوقت ذاته، كي تتمكن من التطور، كي تسمح لإرادتك بالنمو – كلما تناسى الإنسان " أناه " كلما ساعده ذلك في هذا الأمر.

هناك مَن يختار سبيل النكران دون أن يفعل الخير لا لنفسه ولا للآخرين. هم يتخذون موقفاً يقوم على أن الخير لا بد سيأتي من مكان ما لوحده، أن أحداً ما سيفعله، وأنه حين يَشْكون الجوع والحاجة سيتقدم أحد ما لمساعدتهم وسيطعمهم. رغبتهم ليست نشطة، هم لا يعطونها المجال كي تتحول إلى إرادة، لتراوح في مكانها، إنهم سلبيون. بالتأكيد، إن السلبية المعقولة والاستكانة أيضاً يمكنهما أن تجلبا بعض النتائج المدهشة. لكن الأكثرية تمارس ذلك بطريقة ذهنية بحتة. من صفات الأشخاص القديسين أنهم يستكينون تجاه كل ما يحدث، لكن رغم ذلك لا تظهر لديهم أية رغبات. هم يتقبلون كل شيء: الزهور والأشواك، هم يتقبلون كل ما يصيبهم . هم يرون الأشواك، لكنهم ينظرون إليها على أنها زهور. هم يغتبطون للمديح وللانتقاص، يتقبلون الارتقاء والسقوط، إنهم يستقبلون الحياة كما هي . هذا هو الطريق العقلاني، أما السبيل غير العقلاني – هو أن ترى فقط الصعاب في كل شيء و تنتظر أن يتقدم آخر ويقوم بكل شيء . هذا عبارة عن شكل من أشكال الكسل وليس السلبية.

توجد في الهند حكاية عن الإنسان، الذي استلقى تحت شجرة كرز وقد راحت الثمار الناضجة تتساقط عنها على الأرض بالقرب منه، لكنه لم يتحرك. وعندما رأى شخصاً يمرّ بالقرب منه، ناداه :

"افعل خيراً، اقترب مني والقِ في فمي كرزة !". كم هم كثر أولئك، الذين يستسلمون بسهولة وقد فقدوا أي حماس، أية شجاعة. وفي نهاية المطاف تذوب قوة الإرادة لديهم فيصبحون بلا إرادة. لا يجوز مقارنة روح المبجّل مع روح العاجز، مع أن كلاهما يصبح مستكيناً. أما الواقع، فإن العاجز هو تماماً كذلك الذي يشتهي الكرز لكن فقط إذا قام شخص آخر بوضعه في فمه. إن المبجّل لا يهتم فيما إذا هو أكَلَ أم لم يأكل، فالأمر بالنسبة له سواء.

يعيش بعض الناس قلقاً كبيراً حول ما إذا كانت ستتحقق رغبتهم. هذا القلق يدمر الرغبة لأن هؤلاء الناس يمارسون تأثيراً ضاغطاً على الرغبة. هذا يقارن بحماية النبتة من الشمس والمطر. إذا قام الإنسان بحماية النبتة من الأشياء التي ستساعدها في النمو، فإن النبتة لن تتمكن من أن تزهر، نفس الشيء ينطبق على الرغبة. إذا كان الإنسان نزقاً أكثر من اللازم تجاه رغبته، وفي نفس الوقت يخشى أن لا تتحقق، فهو سيغرق في الشكوك، المخاوف والريبة، وبذلك يقتل رغبته الخاصة.

آخرون على العكس، هم مستعدون للتضحية بكل شيء في سبيل رغبتهم الصغيرة، في سبيل الهدف الذي هو في حقيقة الأمر ليس مهما جداً بالنسبة لهم. هكذا إنسان يسخّر جميع أفكاره لصالح الرغبة، ويقوم بكل ما يستطيع لتحقيقها. مثل هذا الإنسان يخطو على طريق المهارة أو الحِرفة، كما ندعوها. هو سيحقق النجاح، وهذا النجاح سيجلب نجاحا آخر. إذا كان الإنسان موفقاً مرة، فإن ذلك النجاح الأول سيجلب نجاحاً أكبر. لكن إذا تعرض للفشل يوماً، فإن الفشل سيجرّ فشلاً أعظم. هذا ينسحب أيضاً على أولئك الذين يسيرون على طريق النجاح : كل إنجاز يعطيهم قوة أكثر للسير إلى الأمام، وعندما يكون في انحدار، فإن كل خطوة تقوده نحو الهاوية.

ينشأ تساؤل حول أي من المساعي والرغبات يمكن إهماله، وأية منها يجب تغذيتها ورعايتها. يجب علينا أن نفرق. لو لم يكن هناك فرق لكان من السهل أن نختار الطريق الخطأ. ورغم أن هذا الطريق قد يقودنا إلى النجاح، فإنه سيكون نجاحا مخادعاً. فإذا ما أصرّ الإنسان على تحقيق كل مسعى وكل رغبة لديه وكان واثقاً أنها ستتحقق جميعها، فإن هذا ربما يكون صحيحا وقد لا

يكون كذلك. قبل أي شيء يجب تنمية حس التمييز، لكي نفهم أي الطرق يؤدي إلى السعادة المستديمة، إلى السلام العظيم، إلى الغاية المثلى. لكن بمجرد أن الإنسان قام بالتمييز وباختيار رغبة محددة، فعليه أن لا يبالغ في تحليلها. توجد لدى الكثيرين عادة ممارسة التحليل طيلة النهار. إذا ما حافظ الإنسان عشر سنوات على رغبته، وقام في كل يوم بتحليلها في مخيلته، فهو يقوم بمعارضتها. هو كما لو أنه باستمرار ينظر إليها من زاوية جديدة، يحاول أن يجد في رغبته بعض الآثام، وفي النهاية يدمرها بهذه الطريقة أو بتلك. فخلال عشر سنوات طويلة تنشطر رغبته، التي ربما كانت ستتحقق، إلى أجزاء صغيرة. هناك أشخاص كثر يتمتعون بذهن متقد، أناس بذهن تحليلي — إنهم ألد أعداء رغباتهم.

يعتقد البعض، أنه لا يحق لنا أن نشرح رغباتنا أثناء الصلاة، لأن الله يعرف كل شيء على كل حال. عندئذٍ لماذا يجب التوجه، كما يرون، إلى الله بطلب أن يفعل هذا وذاك؟ فالرب يعلم ما في كل قلب. أو ليس من الأنانية بشيء أن تحمل رغبتك إلى الله؟ إذا كانت هذه الرغبة جيدة فمن الواجب أن تتحقق من تلقاء ذاتها! الجواب هو : إن الصلاة ، في الواقع ، ما هي سوى تذكير للرب، هي كما الأغنية، التي يطرب الله لسماعها، يسمعها فيتذكر أمراً ما. لكن كيف أن صلاتنا، صوتنا الضعيف يبلغ الله؟ هي تبلغ الله عبر آذاننا. الله موجود بداخلنا. إذا كانت روحنا قادرةً على سماع الصوت، فإن الله يسمعه أيضاً. الصلاة — هي أفضل السبل، لأن الرغبة في هذه الحالة تتخذ أروع الهيئات التي تنسجم مع الذات الإلهية، والتي تساعد في بلوغ أكبر تقارب بين الله والإنسان.

أكثر من ذلك، لا يجب التفكر مرات كثيرة أو لفترة طويلة برغباتنا. يمكن أن نحلم بها، أن نتصورها لأنفسنا، أن نتذكرها وأن نحفظها في ذاكرتنا، وأن نعمل كل ما يلزم لتحقيقها. لكن يجب علينا أن نقوم بذلك بهدوء، بصبر وببرودة أعصاب، بثقة وببساطة، دون أن نقع فريسة للوساوس. مَن يفكر بعناد حول رغبته — إنما هو يدمرها. هذا يشبه المبالغة في تسخين شيء ما أو المبالغة في سقي النبات. لذلك فالرغبة تنهار بما كان سيساعدها. إذا كان الإنسان يعاني بسبب رغبته، فهو إما ينقصه الصبر، إما أن الشكوك والمخاوف تساوره — كل هذا يميت الرغبة. يجب أن نهدهد ونلاطف الرغبة بمرونة، بارتياح، مع الأمل والثقة بالصبر.

الشكوك هي أشبه بالصدأ : تنهش الرغبة ؛ والخوف أسوأ – يميت الرغبة. إذا لم يستطع الإنسان التمييز، لم يكن واثقاً، هل رغبته جيدة أم سيئة، هل ستتحقق أم لا، فهو في يوم من الأيام سوف يقول: " كم أتمنى لو أن ذلك يتحقق ! "، – ليقول في اليوم التالي: بالنسبة لي سواء بسواء تحقق ذلك أم لم يتحقق "، – ثم بعد أسبوع يقرر: " أريد أن يحدث ذلك تماماً الآن " – ثم بعد شهر: " لم يعد هذا يهمني ! ". هذا يشبه أن تشعل النار ومن ثم تطفئها على الفور. النار تختفي، وفي كل مرة يتوجب على ذاك، الذي يطفأ النار، أن يشعلها من جديد.

السؤال هو حول ما إذا كانت رغباتنا صحيحة، أم أنها تتوقف على مستوى تطورنا. الإنسان، الذي يجعله مستوى تطوره يفكر فقط بتلبية حاجاته اليومية، لا يحق له الاعتقاد، بأنه مضطر لأن يرغب بما هو أرفع. إذا مالَ قلبه إلى هكذا رغبات، فعليه أن لا يقلق. لكن إذا شعر ضمنياً: " لا، لستُ مضطراً لأن تكون لدي هكذا رغبات، يمكنني أن احلم بما هو أرفع " – عندئذ عليه أن يكون مستعداً لتحمّل النتائج. والنتائج ستفرض عليه أن يمرّ عبر المحن والاختبارات، وسيكون من الأفضل أن لا يزعجه ذلك.

هناك في العالم أشياء كثيرة نرغب بها ونحن بحاجة إليها، لكن ليس بالضرورة أن نفكر بذلك. إذا انقضى الأمر – حسن، وإذا لم يحدث – ليكن، لفترة ما سنشعر بعدم الراحة، لكن هذا الإحساس سينتهي. لا يمكننا أن نسخّر لذلك كل عقلنا وفكرنا، إذا كنا متطورين ونفكر بما هو أعلى وأعظم، مما هي الحاجات اليومية، وأن ذلك الحلم السامي يفرّ منا. من هنا، إن الشعراء العظام، المفكرين والمُبجَّلين، غالباً لا يمتلكون الأشياء الضرورية للعيش اليومي. فالقوة، التي يملكونها، تساعدهم في التحكم بكل ما في الدنيا، هي قادرة أن تقسر الذهب على المجيء إليهم وأن تأمر الجيوش – فقط أن تأمر. لكنهم غير قادرين على أن يسخّروا لذلك عقولهم. هم يرغبون فقط ما هو يتفق ونظام تطورهم الفريد.

يمكن لكل إنسان أن يحلم فقط بما يناسب تطوره. هو لا يستطيع بشكل سليم أن يشتهي ما هو أقل من تطوره، حتى لو اجبروه على ذلك. غالباً، حين أريد مساعدة شخص ما في هذا الظرف أو ذاك، أقول له: " ركّز على ذلك الموضوع ". لكن إذا تبين أن المرء أكثر تطوراً، فقد

كان يشرك عقله فقط، أما قلبه يكون مشغولاً بأمر آخر، ولذلك لم ينجح المسعى . الإنسان قادر على أن يعطي قلبه، عقله وكلَّ كيانه فقط لما هو يتفق مع تطوره ، أما ما لا يناسبه لن يستطيع أن يكرس له نفسه بشكل كامل، بل أفكاره فقط. وما هي الفكرة؟ الفكرة بدون أحاسيس لا تملك القوة ، إذا لم تكن وراءها الروح والنفس، فهي بلا عزيمة.

يجب علينا أن نفهم، أن رغبتنا العليا ستكون مختلفة عما نحن بحاجة إليه في حياتنا اليومية. لا يجوز الخلط بين الأمرين. يجب أن نتقبل حاجاتنا المعيشية كشيء عملي – لا شيء معيب فيها، وإذا كانت هي رغباتنا بالفعل، فكل شيء يكون على ما يرام. أما الرغبة العليا فيجب علينا أن نعتني بها وأن نرعاها كما لو أنها شيء مقدّس قد أعطاه لنا الرب؛ لكي ننميها بعناية فائقة ونوصلها إلى مرحلة التحقق. ذلك أنه فقط في تحقيق الرغبة الأسمى، الأفضل والأعمق يكمن الهدف من حياة كل منا !

الجزء الثاني

قانون الجاذبية

يعمل في الطبيعة اثنان من أعظم المبادئ: جاذبية الشبيه إلى الشبيه وجاذبية المتناقضات.

ماذا نحن نلاحظ في الطبيعة؟ إذا ظهرت على الحائط بقعة غبار واحدة، فسريعاً ستجتمع هناك كمية أكبر من الغبار. أحياناً يصعب علينا مشاهدة ذبابة واحدة في الغرفة، لكن إذا وجدنا واحدة فكثيرا ما نجد بقربها أخرى. حيث توجد نملة واحدة أو عصفور دوري، هناك يوجد نمل أو عصافير. إذا وجد في غابة ولو ببغاء واحد، فهذا يعني أنه في ذلك القسم من الغابات يوجد عدد كبير من الببغاوات. مهما تشاجرت وتنابحت الكلاب على بعضها، هي، مع ذلك، تميل للتواجد مع بعضها البعض. الأرنب لا يسعى للتواجد مع العصافير، والحمار لا يميل للتعامل مع الثعابين. حيث توجد حبة حنطة واحدة، هناك ستنمو مجموعة من الحبات، حيث يوجد ولو برعم أزهار واحد، هناك ستزهر مجموعة من الورود.

كل ذلك يبين لنا، أن الشبيه يجتذب نحوه الشبيه بناء على الميل الموجود لديه. على هذا الأساس بالضبط، أن للأعراق والقوميات مواصفات ومقومات معينة؛ لأن الناس، الذين امتلكوا عبر قرون طباع وخصائص متشابهة، قد اجتمعوا معاً مشكلين الجماعات. الفرنسيون لا يشبهون الإنكليز، وهؤلاء – لا يشبهون السويديين، والسويديون بدورهم يختلفون عن الألمان. بالنسبة للإنسان، الذي قد تدرب عقله في هذا الاتجاه، ليس صعباً أن يميّز من النظرة الأولى المواطن البلجيكي عن الفرنسي، الالماني عن الايطالي حتى ضمن الحشود.

العائلات أيضاً لها وجه الشبه، الذي يقوم على نفس المبدأ . في الهند ، حيث يعطى للوراثة اهتمام كبير للغاية، يبلغ هذا الأمر أدق التفاصيل : هناك كل إقليم، كل منطقة تتميز بطبع خاص. المواطن من غودجاراتا يميل دوماً للتعامل مع مواطن من نفس الإقليم، إذا اجتمع اثنان – ثلاثة من أهالي ماراتا فإنهم سيكونون سعداء مع بعضهم ولن يتمنوا أن ينضم إليهم شخص من إقليم البنجاب. نفس الشيء يقال بخصوص أهالي البنغال أو مدراس. لماذا؟ لأن كل فرد يفرح لعنصره الخاص.

السبب الأول لصالح قانون جاذبية الشبيه نحو الشبيه هو قرابة الدم. لقد خفّ كثيراً الاهتمام بعلاقات القربى في زماننا ؛ نحن لم نعد نعرف انسباءنا تقريباً . مع ذلك، إن رابطة القرابة قوية جداً . إذا كان الدم واحداً ، فإن الشكل يتألف من عناصر متشابهة .

سأورد هنا حكاية ذلك الفتى ، الذي صار مصارعاً لدى قصر الملك الفارسي. لم يكن أحد يعلم شيئاً عن أصوله باستثناء الملك ، الذي قام بتربيته وبرعايته باهتام كبير. هذا المصارع ، الذي كان اسمه غوشتام، فاز بلقب البلاد وحاول أن يفوز بلقب العالم. لكن القيصر منعه من منازلة الأجانب، بل والتحدث معهم. لقد صارع الكثير من الرياضيين وفاز عليهم جميعاً . وقد كان من عادات ذلك الزمن أن يعترف الخاسر بخسارته أو يقتل.

و في يوم من الأيام جاء من بلاد أخرى مصارع مشهور وكان مقرراً أن ينازله الفتى. تم اللقاء وفي اللحظة الأخيرة تمكن ذلك المصارع من رمي غوشتام، لكن الفتى الشاب كان فخوراً جداً كي يعترف بهزيمته، ولذلك كان المصارع مضطراً لقتله. وقد أحسَّ بالفولاذ البارد ، تمكن غوشتام من أن يجد القوة الكافية لكي يهمس قبل الموت " : أنت قتلتني، لكن سيأتي اليوم الذي ستلتقي فيه والدي وسيقتلك " . المنتصر سأل الفتى عن اسمه. وحين سمع الجواب : " غوشتام " – امسك رأسه بكلتا يديه وراح يبكي : لقد جُنَّ إذ عرف أنه إنما هو قتل ابنه.

تحلّ الجاذبية في العقل بتؤدة، لكن لا تُدْرَك دائماً بوضوح لأنها تمارس فعلها من خلال المادة. والفرق بين الروح والمادة يتلخص في أن العقل الإلهي الكلي ينسكب فينا بشكل مباشر – هذه هي الروح، وحين هو يشع عبر الجسد الوسيط – هذه هي المادة. لذلك، إن العقل الكلي موجود في الروح وفي المادة على السواء .

توجد بين التوائم جاذبية هائلة. بل في كلمة " توأم " ذاتها يكمن التصور عن الاتحاد twin (الكلمة بالإنكليزية تعني " التوأم " و" الاتحاد " في نفس الوقت)، مع أن التوأم ليس دائماً معناه الوحدة الكاملة كما يعتقد البعض. إذا كان التوأم بكل ما للكلمة من معنى – بالتحديد إن روحين انطلقتا معا في الطريق ووصلتا الأرض معا – عندئذ تكونان الأكثر اتحاداً . هناك توائم تبلغ درجة الاتحاد بينها حداً يجعل الواحد يمرض عند مرض الآخر، وعندما يكون أحداهما سعيداً – فإن الثاني أيضاً يشعر بالسعادة ، حتى ولو كانا منفصلين. هناك أيضاً توائم تشبه شخصين لجأا إلى مظلة واحدة هرباً من المطر – لكن هذه حالة أخرى تماماً.

كما يحدث، أن روحين مخلوقتين في بلدين مختلفين وتمت تربيتهما في بيئتين مختلفتين، تنجذبان إلى بعضهما البعض وتساندان الواحدة الأخرى طيلة الحياة. ربما تكونان صديقتين، شريكتين أو في وضعية السيد والعبد . لربما أمكن تسميتهما بالروحين – التوأمين. هما تشبهان طفلين لوالدين اثنين، ومع ذلك إن درجة الشبه بينهما ليست كما بين الأخوة والأخوات. هما نزيهتان في علاقتهما مع بعضهما، بدون أية مصلحة، يشدهما إلى بعضهما الأفكار والرؤى ، و غالباً هما تبديان تشابهاً في العمل.

الأساس الثاني لصالح قانون انجذاب الشبيه نحو الشبيه هو التشابه في المهنة. الفلاح، الذي طوال النهار يحرث الأرض، يفضّل قضاء الأمسية مع فلاح آخر والتحدث معه عن المحصول. لن يرغب بالجلوس مع الأدباء . الجندي يختار مجتمع الجنود ، والرياضي سيميل إلى الرياضيين، أما بين العلماء فهو سيشعر بالغربة. مَن لديه ميول أدبية سيبحث عن أجواء محبي الأدب. الموسيقي يجذبه مجتمع الموسيقيين. وقد خبرت ذلك بنفسي: كان يوجد بين المستمعين طلاب هندوس، احيانا من نفس المنطقة حيث ولدتُ، وقد كانوا أقل قابلية للتعلم من الموسيقيين الغربيين، الذين كانوا موجودين هناك أيضاً. بالرغم من أن هؤلاء الأخيرين لم يفهموا الكلمات، التي كنتُ أغنيها، لكنهم كانوا موسيقيين، وقد جعلهم ميلهم للموسيقى يتآلفون مع جوهر الأغنيات.

الأساس الثالث – تشابه المواصفات. الشجاع يفضل مجتمع الشجعان أمثاله، لن يميل لمعاشرة الجبناء. الإنسان الطيب يبحث عن مجتمع الطيبين أيضاً. صاحب الطبع الحار ينجذب نحو أمثاله وليس نحو البرودة. المقاتل يبحث عن مقاتل آخر لكي يتعارك معه. الشبيه دوماً يستكشف بالشبيه. إذا تواجد لصان في مجموعة، فهما سيعرفان بعضهما بالتأكيد. اللص، الذي جاء من باريس إلى نيويورك، سوف يجد مثيله بسهولة. بينما شخص آخر سيحتاج إلى وقت أكثر. أما اللص فسوف يفهم على الفور: " ها هو لص، ها هو اخي ! ". الشخص القاسي يجذب إليه قسوة الآخرين. إذا نحن خدعنا شخصاً ما ولو قليلاً، فسوف يقوم شخص آخر بخداعنا في يوم من الايام، حتى ولو لم يكن الخداع من خصائصنا.

هذا هو التفسير لما نحن نسميه العقاب أو الجزاء عن الآثام والذنوب. ليس الله مَن يعاقبنا، إنما نحن بحقدنا، بأفكارنا السيئة نجلب لأنفسنا الحقد، الأفكار الشريرة للآخرين. أفعالنا الشريرة هي التي تحمل إلينا الشرَّ من الآخر. بعض الطيبة فينا تجذب الخير إلينا. الإنسان الخيّر يلاقي الخير أينما ذهب، حتى وسط القسوة. حضور الحد الأدنى من الكَرَم عندنا يجذب إلينا كرم الآخرين. حين نردد اسم الله، كما لو أننا نوحي لروحنا الطيبةَ، الرحمة والخير الإلهي المطلق، نحن كأنما ننشأ هذه الصفات في أنفسنا ونجذب اليها تلك الرحمة، تلك الطيبة، تلك السماحة، بغض النظر عن الشكل وتحت أي اسم هي تأتينا.

إلى جانب قانون جاذبية الشبيه نحو الشبيه، يوجد قانون جاذبية المتضادات. توجد في الطبيعة قوتان عظيمتان: المبدعة وتلك الأخرى، التي تستجيب لها– المتلقية. يمكن أيضاً تسميتهما – النشطة والسالبة: الجلال والجمال.

يمكن أن نفهم ذلك بمساعدة قانون الإيقاع أو التوازن rhythm. ففي كل إيقاع يوجد جانب قوي وجانب ضعيف. مثلاً، ضمن ربعين اثنين نحن نعدّ: واحد – اثنين، واحد – اثنين: القسم القوي والقسم، الذي يكفي فقط من أجل موازنة القسم الأول. حدود الأشكال أيضاً تحتوي على وجه محدب ووجه مقعر، اللذين يوازنان بعضهما.

إن هاتين القوتين في الطبيعة الحية يمثلهما العنصر الذكوري والعنصر النسائي. على الرغم من أن في كل رجل توجد صفات ذكورية ونسائية، وفي كل امرأة توجد صفات نسائية، وبعضها –

ذكوري، لكن في كل مكان توجد قوة، طاقة مبدعة قائدة – و أخرى مستجيبة مقادة. الرجل يمتلك قوة خالقة مبدعة، وعندما ننظر إلى المرأة نجد أنها دائماً تمتاز باللطف وبالاستجابة. قد يحدث أن تلتقي في المرأة كمية هائلة من الطاقة المبدعة، لدرجة أن الرجل يصبح لطيفاً متجاوباً، وهذا يحوله إلى عبدٍ لها. لكن الرجل هو الذي يملك عادة الطاقة التي بسببها يسود على المرأة.

ربما يرى البعض أن ذلك ليس عادلاً، لكن مهما يكن فإن الرجل بالتحديد، باعتباره يمتلك كمية أكبر من المواصفات السحرية، مدعو لأن يقود، بينما المرأة، التي تتميز بالمأثرة واللطف، مقرر لها أن تقاد. هذا هو الجانب الفلسفي من القضية. أما الجانب الأخلاقي – ليس من الصعب أن ندرك: مَن يُطلب منه التلبية والاستكانة يكون بحاجة للمزيد من العناية، وأن على القوة المبدعة أن تعامل العنصر الضعيف المُقاد بكثير من الاهتمام. ما لم تُعطَ حياة المرأة رعاية أكبر، لن يكون بإمكاننا القول أننا حقاً متحضرون. أما ما يتعلق بالجانب الاجتماعي، فقد سمعت في كل مكان من الغرب مجموعة من الشكاوي؛ لكن في الشرق أيضاً علينا أن نتعلم الكثير من حيث كيفية التعامل مع المرأة.

نحن نعرف، أن الأذنين تتلقيان الصوت، هما لا يبدعان. أما العينان – مبدعتان. الأنف يصطاد الرائحة. هو لا يبدع. الفم والشفاه – تبدع. هي تنجذب إلى بعضها. حين تلتقط الأذنان الصوت، فإن العينين تحاولان على الفور تحديد ماهية ومصدر الصوت. الأنف يخبرنا عن رائحة شيء ما بشكل أسرع وأدق من حاسة الذوق. يسعى الأنف على الفور أن يتدخل في ما هو الفم مشغول به. هو يقول: " لا تلوك هذا أكثر. أنا لا أريد ". أو " امنح اهتماماً كافياً لذلك. هذا يعجبني ". كما أننا نلاحظ، كيف أنه حين تأخذ اليد اليمنى شيئاً ما، فإن اليسرى تحاول مساعدتها؛ وحين تقوم الرِجْل اليمنى بخطوة فإن الرِجْل اليسرى تسعى للحاق بها. حين نثني إحدى اليدين ونضمها إلى الصدر، فإن الأخرى تسعى للتشابك معها. الرِجل الواحدة تسعى للتصالب مع الأخرى. هناك في الهند مقولة مفادها: إذا تصالبت الساقان أثناء النوم – علامة سوء. ومع أن الجميع يعرف ذلك، لكنه من الصعب التخلص من هذه العادة. لأنها فعل طبيعي.

الإنسان غالباً ما يفضّل التعامل مع نقيضه، وليس مع مَن هو قريب له في المستوى. عندما يلتقي اثنان متقاربان من حيث القوة، هما نادراً ما ينسجمان. أولئك الذين يدرسون حركات التنفس يفهمون ذلك بسهولة. هم يعرفون، أنه يوجد تنفس أكثر نشاطاً وتنفس أقل نشاطاً، واذا صار كلاهما نشيطين بدرجة متساوية، فإنهما سيدخلان في صراع. المطرب العظيم والشخص، الذي بدأ أول خطواته على طريق الغناء، سيتفاهمان بسهولة لأنه لا يوجد بينهما منافسة. واحد يريد أن يسمعوه، والآخر – لا. لكن لو التقى مغنيان اوبراليان عظيمان، لكان من الصعب أن يتفقا. ستنشأ بينهما مباراة.

الإنسان الحكيم سيفضّل أن يكون لديه خادماً غبياً وليس نصف ذكي يناقش أوامره. لنتذكر قصة الخادم، الذي أرسله سيده من أجل الطبيب، لكنه بداية ذهب إلى حفار القبور. إذا لم يكن بإمكان الشخص الحكيم أن يتواجد بين الحكماء فهو، على الأرجح سيفضل التعامل مع الأغبياء، أكثر مما مع نصف حكماء.

كثيراً ما شاهدت كيف أن الناس الذين يؤمنون ببساطة، هم قادرون على قبول الاستنارة والإلهام ،بينما المثقفون يناقشون بلا انقطاع دون أن يقوموا بخطوة واحدة. لهذا السبب إن العلماء والغيبيين لا يستطيعون إيجاد لغة مشتركة وانسجام. العلماء يرددون دائماً :" أنت تعرف هذا وذاك، لكن أنا أيضاً اعرف ذلك. أنت تتخيل نفسك كيت وكيت، وأنا أيضاً قادر على ذلك ".

يحدث أحياناً أن الناس، ومن النظرة الأولى، يشعرون بنوع من التنافر Antipathy، لكن بمرور الوقت تتحول علاقتهم إلى صداقة متينة؛ هذا لا يحدث كثيراً. أولئك، الذين يكتب لهم أن يتصادقوا، عادة هم يتآلفون منذ النظرة الأولى. أما في الحالة الأولى، فقد ساعد على حدوث ذلك أن شيئاً ما في البداية مارس تأثيراً منفّراً، لكن بعد فترة – بعد أن صار الاستقبال طبيعياً، تمكن الافراد من تقبل ذلك بسهولة أكبر. ثم وجدوا لدى بعضهم البعض ما هو مشترك، بل وتصادقوا. هذا يشبه الاعتياد على تناول السم.

دائماً توجد مثل تلك الجماعات التي تعجبنا، ودوما ستوجد تلك التي لا تعجبنا. نحن أيضاً – قد نكون ضيوفا مرغوبين عند بعض الجماعات وغير مرغوبين عند أخرى؛ ذلك أننا

نميل دائماً إلى عنصرنا الخاص. لا يجب أن يدهشنا هذا، ولا عيب في ذلك، لأن هذا هو نتاج تأثير قانون الجاذبية. أما الصوفي فينسجم مع الجميع؛ هو يجعل من نفسه عنصراً مشتركاً للجميع. بل هو يخلق العنصر النشط في داخله، وهذا العنصر هو – الحب. نحن نقرأ عن ذلك في الإنجيل، حيث جاء أن الله هو الحب. هذا هو الطريق الوحيد، الذي يقود إلى اتحاد البشرية، إلى الأخوة الإنسانية. الفروقات والاختلافات هي محض خارجية، ولكن الإنسان اعتاد ملاحظتها منذ بدء الخليقة، بحيث لم يعد يرى الوحدة الموجودة خلف كل ذلك.

يعتقد الكثيرون أنه يمكن توحيد العالم بواسطة الإدارة الحازمة. يا له من خطأ عظيم! ماذا يحصل عندما نحاول قيادة عائلتنا بيد من حديد؟ لن تكون فيها أية وحدة. الحب فقط هو الذي بإمكانه توحيد العالم.

يقول الناس: " نحن ننتمي إلى هذا العرق أو ذاك. نحن أسمى، و أنتم – أدنى؛ ديننا هو الأفضل وليس دينكم ". إن سبب الحرب العالمية الأولى يكمن في أن جميع القوميات الأوروبية بلغت مستوى متقارباً من التطور. إذا كانت واحدة منها صنعت طائرة متطورة أو غواصة حديثة، فإن الأخرى كانت تصمم ما هو أفضل وأكثر تطوراً. كانت توجد بينها القوية، لكنها أرادت أن تصبح الأقوى.

ثنائيات المتناقضات

إن قاموس المصطلحات الدينية غالباً ما يتضمن ثنائيات الأضداد : الإله والشيطان ، الجنة والنار ، الذنب والفضيلة . يكتسب الإنسان أولى معارفه ، وهو يتعرف على ثنائيات التناقضات ، وبالتالي ليس سهلاً عليه أن يترفع بلحظة واحدة فوق المستوى ، الذي يسمح له أن يفهم الحياة من دون تلك الثنائيات . من ناحية ، إن هذه الفكرة غير صحيحة ، لأنه ليس منطقياً الاعتقاد بوجود شخصية مناقضة للإله القدير على كل شيء ، أي قوة مضادة هي إبليس . لكن ، من ناحية ثانية ، الله بالنسبة للمؤمن يعني فقط الخير والجمال ؛ أما الفكرة حول أن الله يحتوي في ذاته كل شيء ، بما في ذلك الخير والشر ، تسبب له الارتباك . إن الإنسان المتعبد ، الذي يسعى كي يرفع مثال الله إلى أعلى الدرجات بواسطة العبادة والصلوات ، سيضطرب إذا ما أوضحنا له ، أن كل ما اعتاد اعتباره شريراً ومشيناً ، هو عبارة عن جزء من الذات الإلهية !

مهما يكن ، فإن ذلك التصور يقلل من شأن الرب ، باعتباره يحدّ من الذات الإلهية ويكشف عن قوة – إن لم تكن مساوية له فهي ، على الأقل مقابلة له . لكن بغض النظر عن الوسائل ، التي لجأ إليها الحكماء لقيادة البشرية – سواء بمساعدة ذاك التصور المحدود عن الإله مع مقابلته بقوة أخرى مناقضة – الشيطان ، أو عن طريق التعاليم حول الإله الكلي القدرة – فإن حكمتهم كانت دوماً تساعدهم من أجل فهم أعمق وأكثر كمالا للحياة . بالتحديد ، عندما نحن نتخيل قوة للكذب أو للشر ، إنما نحن نتخيلها كشخصية ، وإذ ندعوها شيطانية بذلك نكون قد قلّلنا من قوة الإله الواحد ، الذي ندعوه دائماً بالقهّار . إلا أن ذلك يقدم صورة أكثر قبولا وأكثر وضوحا كي نقيم تمييزاً بين إله الخير وسيد الشر . ليس نحن أولَّ مَن قارن

وواجه أحدهما بالآخر ؛ لم نضطر لاختراع أي شيء لأن الحياة قد فعلت ذلك نيابة عنا . وإذا نحن لم نختار بين الاثنين، إذا ذهبنا على الفور إلى حيث تسود فكرة التوحيد ، فإننا نفقد ما هو هام وجوهري في الحياة. فقط في حال اخترنا واحداً من اثنين، يمكننا الوصول إلى فكرة التوحيد ، التي سترفعنا فوق كل شيء . على سبيل المثال، إن الإنسان، الذي يعلن رفضه النظر إلى ارتكابات الآخرين ويغلق عينيه، يخسر الكثير . أما الإنسان، الذي رأى كل شيء واستطاع الترفع فوق ذلك – هكذا إنسان يكون قد استحق أن يشيح بنظره عما هو الشر .

إن معنى حياتنا على الأرض يكمن في أن نرى جميع الفروقات والخصائص، لكن دون أن نسمح لها بقهرنا ، لأن هكذا درب سيوصلنا إلى الهاوية . يجب علينا السير نحو الأعلى، لنترفع فوق الفروقات ولنكتشفها في نفس الوقت . لنتصور الإنسان ، الذي قد يقول : " أنا لم أتوقف لحظة عند أولئك، الذين فعلوا الخير لي ، ولم أقلق لثانية بخصوص الشر ، الذي سببه لي شخص ما . أنا أؤمن بهذه الفكرة العادلة لوحدها و دائماً كنت أتقيد بها " . إن مثل هكذا إنسان قد يحظى ببعض النجاح ، ربما صار لاهوتياً وروحانياً ، لكنه بالتأكيد فاته الكثير من الحياة. أما ذاك ، الذي استقبل كل خير يأتيه بجزيل الشكر والعرفان ، وشعر به إلى جانب الشر المصنوع له في نفس الوقت لكنه غفر لصانعه، فهذا هو الإنسان الذي رأى العالم، وهو سيذهب أبعد من حدود هذا العالم .

السماوات وجهنم – لقد تم ابتكار هذين المكانين بما يناسب إدراكنا . الأول – هناك ، حيث الإنسان مرفوع ، سعيد ومكافأ ؛ الثاني – حيث هو معاقب . هذا يمكننا فهمه . ومع ذلك، أين نحن نشعر بكل التعاسات والمرارة والاضطراب و أين نحن نشعر بالسعادة ، بالغبطة وبالفرح؟ أين أيضاً إنْ لم يكن في هذه الأرض، تحت هذه الشمس . لقد حدثونا عن هذين المكانين المختلفين لأنه بإمكاننا أن نراهما كمكانين مختلفين؛ بينما الحكماء والفلاسفة عبر مختلف مراحل تطور الحضارة الإنسانية لم يقدروا فعل شيء آخر ما عدا أن يمنحوا الأفكار المعقدة والدقيقة الشكل الأكثر ملاءمة للتصور الإنساني . مثلاً ، لو قال أحد ما ، أن عالم الأفكار وعالم الأفعال مختلفين، لكان ذلك حقيقة . في نفس الوقت كلاهما ينتميان إلى ذاك العالم، الذي نعيش فيه . ليست القضية في ماذا نقول، بل وكذلك كيف نحن ننظر إلى ذلك.

جاء في "الحيان" ما يلي: " أنا مستعد لأن أتقبل الجنة أو النار، ولكن ليس بالمطهر". إنه كلام ميتافيزيقي، لكن في نفس الوقت يمكن أن نجد فيه حقيقة فلسفية: الحياة تعني الألم أو السرور؛ والحالة التي فيها يغيب الألم أو الإحساس بالفرح – هو الموت. هذه الحقيقة تتكرر في جميع الكتب. الجنة والنار يعنيان إما السرور وإما الألم؛ وما يُفْقِد الألم وما يزيل السرور، لا يمكن أن يوصف بالحياة بالمعنى البسيط للكلمة.

إن فهم جميع الأمور من زوايا مختلفة، ينير الإنسان بالتحديد، حتى ولو لم يكن الإنسان يثق فيها أو كان يؤمن بها بشكل أعمى. هل يمكننا العودة بعقلنا وبظروف حياتنا من جهنم إلى الجنة وبالعكس؟ من أجل ذلك لا بد من رؤية الفرق بينهما وفي نفس الوقت معرفة تطابقهما.

هكذا نحن نقترب من إشكالية الذنب والفضيلة. يمكننا التأكيد أن الفضيلة والإثم هما قياسان للخير والشر تم ابتكارهما من قبل رجالات الدين والفلاسفة، والمقصود منها المحافظة على النظام في الدنيا، في حين أن انهيار ذلك النظام يؤدي إلى تراجع الديانة، الذي ترافقه الحروب، المجاعة والكوارث. من وقت لآخر يظهر للعالم رسل داعمون لهذا النظام، ويتم تعيين حراس روحيين لكل جزء من العالم. لقد كان الناس عبر القرون يعتقدون أن شيئاً ما يعتبر إثماً، وآخر – هو فضيلة. لكن في كل مرة قام فيها الحكماء بتحديد ما هو الخير وما هو الشر، كانوا هم على حق، لكنهم قرروا ذلك على طريقتهم الخاصة. لقد حدث هذا لأنه، كلما ألقي الضوء أكثر على هذه القضية، – بالرغم من الاحتفاظ بالمقدرة على رؤية الذنب من زاوية الذنب وعلى الفضيلة من زاوية الفضيلة – كلما شاهدنا أكثر كيف أنه تحت غطاء الفضيلة يختبأ الإثم، وخلف الإثم – تختبأ الفضيلة.

بما أن مختلف الأعراق، الأمم والأديان تمتلك مقاييس خاصة للخير وللشر وتصورات خاصة عن الذنب والفضيلة، فإنه من الصعب تمييز القانون العام الذي يتحكم بتلك التناقضات. لكن ربما أمكن توضيح السؤال إذا فهمنا قانون الرجرجة أو الاهتزاز. إن المواد والكائنات الحية تبدو منقسمة فيما بينها على سطح وجودها، لكنها تحت السطح هي تقترب من بعضها

عند كل مستوى أكثر، إلى أن تنصهر معا في المستوى الأخير والخفي. كل خرق للاستقرار على السطح مهما يكن بسيطاً ينعكس في الداخل على الكلّي. لذلك، إن كل فكرة، كلمة أو فعل، يسبب اضطراب التوازن هو غير صحيح، شرير وآثم، والتي تعيد السلم — الحقيقة، الخير والفضيلة. إن الحياة هي أشبه بالقبة، وطبيعتها هي أيضاً شبيهة بالقبة. إن الاضطراب في أصغر جزء من الحياة يسبب اضطراب الكل ويرتد كاللعنة على مَن تسبب بذلك الاضطراب. وكل استقرار ينشأ على السطح، يساعد في تهدئه الكلّ ويعود على مصدره في صيغة هدوء. هذه الفلسفة تؤكد مبدأ المكافأة على الأعمال الخيرة والعقاب على الأعمال السيئة، الذي تمارسه القوى العليا.

عندما جاءوا بمرتكبة الخطيئة إلى السيد المسيح، لم يجد المعلّم سبيلاً آخر سوى الغفران لها. هو لم يرَ في الإنسان المذنب ما كان يراه الآخرون. التمييز بين الخير والشر — مهمة فوق طاقة العقل العادي. لكن المفارقة تكمن في أنه كلما كان الإنسان أكثر جهلاً كلما رغب أكثر باطلاق الاحكام. كثيراً ما يحدث أن الزاوية التي منها ننظر إلى الشيء، تجعل هذا الشيء سيئاً أو جيداً، لذلك لو استطعنا النظر إليه من زوايا مختلفة لكان علينا أن نرى الشيء، الذي سبق واعتبرناه سيئاً، صحيحاً وجيداً. ليس هناك شخص يدعي أنه يحكم وفق النتائج، يمكنه الجزم بأن العقوبة تخلو من المكافأة، وأنه في المكافأة — لا توجد عقوبة.

ذلك يوضح لنا أن الحياة هي عبارة عن أحجية معقدة من الازدواجية. إن مبدأ المتضادات يبقينا بحالة وهم. أما الصوفي، وهو يرى أن ذلك من طبيعة ومن صفات الحياة، فيعتبر أنه ليس هاماً التمييز بين المتناقضات، وأن الأكثر أهمية — هو الاعتراف بأن وراء كل شيء يقف الواحد الأحد. بالطبع، عندما يصل الصوفي إلى فهم ذلك، فهو يرتقي ذلك السلّم، الذي يرفعه إلى الاتحاد، إلى فكرة الوحدة الآتية من مزج الحياة مع رؤية الواحد الأحد في جميع الأشياء والكائنات. يمكن افتراض، أن العالم والبشرية قد تطورا باستمرار، أو أنهما قد بلغا ذروة تطورهما ليبدأ كل شيء من جديد، أو أن العالم يتحرك ضمن حلقة، أو ربما هناك آراء أخرى؛ لكن جميع الحكماء، بغض النظر عن توقيت ظهورهم، آمنوا دائماً بشيء واحد لا غير: أنه خلف كل الحياة توجد الوحدة، وحكمتهم تكمن في فهم تلك الوحدة. عندما يهبط على

الإنسان نور الوحدة، فيرى هذه الوحدة خلف جميع الأشياء، إنما تتغير نظرته للأشياء. هو لن يعود ليقول لصديقه: " أنا أحبك لأنك صديقي " – بل سيقول: " أنا أحبك لأنه انما أنت هو أنا ". إنه يقول ذلك، مثلما كان سيقول المتصوف: " ليس مهماً، إن كنتَ أنت ارتكبت خطأً أو أنا ارتكبت خطأً. المهم تصحيح ما هو غير صحيح ".

يبدو أن بعض الناس يكونوا سعداء تماماً، بينما يرتكبون الإثم، لكن الإثم لا يمكنه أن يجعل من أحد سعيداً. حتى لو كان فيه بعض السرور، فإن هذا السرور سيتردد فيما بعد، ولكن صدى النوتة الكاذبة لن يجلب الفرح ابدا للأذن الموسيقية. إذا كان الإنسان بالفعل سعيداً في خطيئته، عندها يمكن التأكيد بأن ذلك هو فضيلته الحقيقية، وهذا يعني أنه فقط بالنسبة لنا، ومن وجهة نظرنا نحن، تبدو افعاله آثمة. لذلك أن الصوفي يمشي في دربه دون أن يدين أحداً. إذا كان يوجد بين الخير والشر، بين الفضيلة والذنب مجرد فرق نسبي، لماذا إذاً يجب أن يكون هناك عقاب بسبب الذنوب ومكافأة بسبب الفضيلة؟ إن نتائج الخير هي بحد ذاتها مكافأة، ونتائج الشر – عقاب، لكن بسبب قصور وجهة نظرنا، نحن نُرجع هذه النتائج لقوة غيبية، للمثال الإلهي.

إن تعاسات ومآسي البشرية لا تصدر عن الخير، لكن الخير يصدر عن القسوة والمعاناة. لو لم تكن القسوة والمعاناة، لما كان الشر، ولما كنا عرفنا مطلقاً ما هو الحق وما هو الخير. إن التصور حول وجود قطبين اثنين بالضبط يجعلنا قادرين على التمييز بين هاتين الصفتين. لو أدركنا إحداهما فقط، لكنا أسميناه الخير أو الشر ولكان بقي وحيداً. إما أن نطلق على الشيء تسميتين مختلفتين، إما نحن نساعد أنفسنا في رؤية الفرق بينهما.

ربما، شخص ما سيتساءل، فيما إذا كانت الأرواح بالفعل تقتل روحانيتها عن طريق أفعالها الشريرة وحياتها السيئة، وبالتالي هي تموت؟ كلا، الأمر ليس كذلك. الأعمال الشريرة فقط تغطي قلوبنا بضباب من الجهالة والفظاظة، اللواتي تتسبب بالإزعاج. الروح ليس مصيرها الموت.

كثيرون أولئك الذين يكفرون بالله لأنه هو، كذا، أرسل عليهم التعاسات، لكن التعاسة – هي جزء لا ينفصم من التجربة الحياتية. قد يغضب أحد ما فيقول: " هذا ليس عادلاً "، أو: "

هذا غير صحيح، وهل يسمح الإله العادل الكريم بحدوث الظلم؟ " لكن نظرتنا محدودة جداً، فهمنا للجيد والسيئ، للخير وللشر – ليس سوى تصورنا الذاتي، الذي لا يتفق مع الغاية الإلهية. بالطبع، طالما نحن نفهم الأمر كذلك، فإنه يظل هو الحق بالنسبة إلينا ولمن يقف معنا، لكن عندما نأتي إلى الرب فإن جميع المقاييس تتغير، كما تتغير وجهة النظر أيضاً.

من هنا إن حكماء كل العصور، بدلاً من الحكم على أفعال الرب، هم لبعض الحين، يمكن القول، وضعوا جانباً إحساسهم بالعدالة؛ هم سعوا لتعلم شيء واحد فقط – التسليم بإرادة الرب. بهذه الطريقة هم بلغوا المستوى، الذي استطاعوا عنده فهم الأشياء من وجهة نظر الإله. لكن حين أرادوا شرح وجهة نظرهم هذه للعالم، فإن العالم عاملهم كمجانين. لذلك هم لقبوا أنفسهم Muni[1] أي ما معناه " المحافظون على الصمت ".

يتساءل الناس، لماذا يحقق النجاح أولئك الذين يقترفون أعمالا شريرة ويمارسون الرياء، بينما الذين يلتزمون الحق لا يحققون النجاح. لكن هذا ليس قاعدة. القاعدة تكمن في أن الفائز على طريق السوء يمكنه تحقيق الفوز فقط على درب الشر، لأنه لو سلك درب الحق لكان أصيب بالفشل. أما ذلك، الذي حقق الفوز على طريق الخير، سيصاب بالفشل إذا ما تصرف بشكل سيئ. غير هذا، بالنسبة لمن يصعد للأعلى، أن الخير والشر يصبحان درجات للصعود، ومَن يسير إلى الأسفل يصبح الخير والشر درجات للهبوط. لا يوجد إنسان في العالم يمكنه القول: " أنا معصوم عن الخطأ "، لكن هذا لا يعني أنه عاجز عن بلوغ هذا الهدف.

مؤسف للغاية، إذا كان الإنسان يقوم بأفعال طيبة وخيِّرة فقط لأنه يريد أن يتطور أو أن يصبح روحانياً. ما هو الخير، في نهاية الأمر؟ إنه ثمن بخس للروحانية. إن الإنسان غير المستقل عن طيبته في مسعاه نحو الروحانية، يمكنه الانتظار ألف سنة. هذا نفس الشيء، كما أن تجمع حبات الرمل واحدة واحدة بأمل أن تصنع منها جبلاً كي تصعد عليه إلى السماء. إذا كان الإنسان يفعل الخير ليس من منطلق حبه للخير، إذا سلك درب الحق ليس من منطلق حبه للعدل، ليس لأرضاء ذاته، فليس هناك معنى للفضيلة في فعل الخير. أن تكون روحانياً يعني

1- Muni في اللغة السنسكريتية هو القديس أو الناسك، الذي أقسم التزام الصمت – المترجم

أن تصبح لا شيء ؛ أن تصبح طيباً هذا يعني أن تصبح شيئاً ما . وأن تكون شيئاً ما يشبه أن تكون لا شيئ ، بينما أن تكون لا شيء هو يساوي أن تكون كل شيء . إن الطموح إلى الروحانية يعيق الكمال الفطري، أما إنكار الذات – هو العودة إلى حديقة الجنة.

لا يجب الخوف من أن الإنسان الذي يسعى نحو التفاني سيذهب ضحية كل الظروف الحياتية – بالتأكيد لا ، إذ أن القوة والحكمة تتجذران في الكمال. غياب الكمال – هو مأساة الحياة. الإنسان المنغلق على نفسه – هو عبء ثقيل حتى على الأرض. الأرض تحمل حتى الجبال على ظهرها بسهولة، أما الإنسان الأناني فهو اثقل بكثير. وماذا في المحصلة؟ حتى الروح الخاصة لا يمكنها تحمله أكثر، هذا يفسر كثرة الإنتحارات. الانتحار يعني فصم عرى بين شيئين متحدين مع بعضهما البعض. هو عبارة عن فصل قسري ما يجب أن يكون متحداً. إنه مشروع الطبيعة، الذي يفترض أن يتحقق، أما تقسيم الكل إلى جزئين يحرمه من إمكانية تنفيذ الخطة التي ابتدعتها الطبيعة. لكن ادعاءات " الأنا " خاصتنا صارت ثقيلة على الروح لدرجة أنها أرادت لو تتخلص منه، أي " الأنا ". هذا ما عناه السيد المسيح حين قال: " طوبى لفقراء الروح ". ماذا تعني عبارة " فقراء الروح " ؟ إنها تعني الإيغو Ego ، الذي تخلينا عنه .

لا تقاوموا الشر

هذه العبارة من الإنجيل: " لا تقاوموا من يسيء إليكم " غالباً ما تسبب الدهشة ونادراً ما يتم تفسيرها بشكل صحيح. لكي نفهمها يجب علينا في البداية أن نحدد ما هو الشر. هل توجد أفعال محددة أو أشياء يمكن الإشارة إليها على أنها الشر؟ من دون شك، إن الناس حاولوا مراراً القيام بذلك، لكنه لا وجود للشر طبقاً لقواعد راسخة. إذن، ما هو الشر؟ إنه عبارة عن كل ما ينقصه التوافق والانسجام (الهارمونيا)، هو ما يعوزه الحب والجمال، وفوق ذلك، هو ما لا يدخل في حياتنا بشكل صحيح. أما ما يتفق مع شروط الحياة، لا يمكن له أن يكون شراً.

يمكن مقارنة الشر بالنار. جوهر النار يقوم في تدمير كل ما يتواجد في دربها؛ ومع أن قوة الشر عظيمة كقوة النار، فإن الشر هو مع ذلك ضعيف – كما هي النار ضعيفة. كما النار لا تقدر على البقاء طويلاً جداً، هكذا هو الشر – ليس أبدياً. كما النار تخرِّب ذاتها، الشر أيضاً يتحول إلى مدمر للذات. لماذا قيل: " لا تقاوم الشر " ؟ لأن مقاومته تمنح الحياة للشر. أما عدم الممانعة فتسمح له بالاحتراق حتى النهاية. تمكن مشاهدة الشر في صيغة الغضب، الشهوة، البخل، وكذلك العناد، أو الخيانة؛ لكن جذر الشر دائماً واحد – الانانية. قد يتظاهر الشر عند أحدهم على السطح، وعند آخر – قد يكون مختبئاً في أعماق القلب.

يوجد في الشرق قول مأثور: " لا تنطق اسم الشيطان، كي لا يخرج من قبره ". إن الناس غير الحذرين أو الساذجين كثيراً ما يخطئون إذ يوقظون الشيطان النائم، لأنهم لا يعرفوا موسيقى الحياة. كي تتعلم العيش بسلام في الدنيا، يجب أن تكون موسيقاراً في هذه الحياة.

كل إنسان في العالم – هو عبارة عن نوتة؛ بالتالي إن الإنسان الذي يستقبل العالم بهذا الشكل، إنما هو يستلم بيديه آلة موسيقية. ويصبح العالم بأكمله مجرد فرقة أوركسترا، مدعوة لعزف مقطوعة سيمفونية.

تمكن ملاحظة تأثير ذلك القانون في أبسط الأمور. إن أصعب مشاكل الحياة غالباً ما تنشأ ليس عن الصعوبات، التي يصنعها لنا الآخرون، بل بسبب عدم قدرة الشخص نفسه على فهم الطبيعة البشرية. بالنسبة لمن أدرك الطبيعة البشرية، يصبح واضحاً أن الدرس الأول والأخير، الذي يجب تعلمه في الحياة – لا تقاوم الشر . ذلك أن المقاومة تتحول مادة مشعلة بالنسبة للنار. وأنت تقول لآخر : " لا تفعل هذا " ، أو وأنت تسأل: " لماذا أنت تفعل ذلك؟، أن تعاقبه: " عليك القيام بهذا وبذلك "، إنما أنت تمارس الشر بشكل أكثر قوة، كما أنك تربط الإنسان بشدة إلى الخطيئة.

كل شخص في هذا العالم يمكنه أن يكون لحدٍّ ما معلّما، لكن ليس معلما بالمعنى الحقيقي للكلمة، لأن المعلم الفعلي هو ذاك، الذي يعلّمُ نفسه دائماً؛ وكلما علّم نفسه أكثر، كلما أدرك بشكل أوضح، أن عليه تعلم الكثير من الأشياء في هذه الدنيا، بحيث لن تكفي الحياة من أجل ذلك. كلما تعلم الإنسان أكثر، كلما لاحظ الشر أقل عند الآخرين. هذا لا يعني أن الشر أكثر أو أقل في الآخرين، – بل يعني أن الشخص المحدد يدرك: العدو، الذي اعتاد رؤيته في الآخرين، هو بالواقع موجود فيه بالذات . أسوأ عدو، الذي سنحت الفرصة بلقائه في الحياة، يكتشف في قلب المرء نفسه. إن ذلك يسبب الشعور بالإهانة، لكن هذا هو درس الحق : ابحث في نفسك عن العنصر، الذي تحاول مقاومته في الشخص الآخر.

الحياة – هي المكان، حيث يجب التحرك بلطف. في الأفكار، الكلام أو الأفعال يجب التزام الإيقاع؛ في كل شيء تفعله، يجب التقيد بقانون الهارمونيا. حتى لو كنتَ تمشي حافياً على الشوك، لن تتحاشى التهم: الأشواك نفسها ستتهمك بأنك تدوسها. إذا كانت الحياة في هذه الدنيا – أمر غاية في الدقة، هل يمكن لأحد أن يدعي أنه امتلك الحكمة الكافية؟ وهل بإمكان أحد أن يأمل بالعيش في هذا العالم، دون أن يفكر بهذه المشكلة؟

سألوني في أحد الأيام، كيف يمكن لرئيس شركة أو مؤسسة أن يتبع قانون عدم مواجهة الشر. كان جوابي: إني رأيت أشخاصاً يقودون مصانع، وقد استطاعوا السيطرة على عقل وقلب كل عامل هناك، بينما رؤساء آخرون كانوا مكروهين من قبل الجميع. ربما أن هؤلاء الأخيرين حققوا أرباحاً أكثر من الأوائل، بالرغم من أنه تبين في نهاية الأمر، أن نجاحات الأوائل كانت أكثر ثباتاً وأكثر تفاؤلاً. لا يجوز وصف دروب الحكمة واللطف ضمن قوالب ثابتة، التي يجب على الناس التقيد بها. الفرشاة لن تستطيع الحلول مكان السكين، لذلك يجب على كل منا أن يستخدم أية وسيلة حسب الظروف. لكن في أساس كل شيء يجب أن تقوم الفكرة حول عدم مقاومة الشر.

إن قضية الشر شائكة وعظيمة. والكثيرون لا يرغبون أن يسمعوا بالشر، على الرغم من أنهم يصطدمون به في كل لحظة من حياتهم، وبقاء المشكلة من دون حل لن يخفف المصيبة. كل شخص مستعد لأن يقرر، أن يشاهد أو يلاحظ الشر في الآخر، دون أن يجهد نفسه بالتفكير في أن سطح الأشياء يختلف عنها في العمق. على الرغم من أن ما قد يبدو شراً – ربما هو يخفي خيراً في جوهره، وما قد يبدو خيراً – يحتوي شرارة من الشر. وطبقاً لأي مقياس يمكننا معرفة الشر من الخير، ومَن هو الذي يستطيع الحكم بخصوص الخير والشر في شخص آخر؟ إذا كان بإمكان الشخص أن يحكم، فعلى الأرجح حول الخير والشر عنده هو نفسه. لا يحق لأحد، باستثناء الله ، الحكم على الآخر. إن الإحساس بالعدل معطى للإنسان فقط لكي يستطيع تقييم أفعاله فقط؛ من أجل ذلك بالضبط أعطي الإنسان ذلك الإحساس.

لو نظرنا إلى الحياة، لوجدنا أنها ليست سوى كفاح – فردي وجماعي. يبدو، أنه إذا كان هناك من شيء في الحياة غير الكفاح، فإنما هو المقدرة على منح وقبول البر والمحبة، وكذلك القيام بأعمال غير نفعية. مهما يكن الإنسان خبيراً في مختلف شؤون الحياة، فإن تجربته تطال نقطة معينة وهو لن يستطيع الذهاب أبعد. أن ما يحوجه بالفعل هو فهم الحياة، فهم القانون، الذي يقوم خلف كل ذلك. إن هذه المعرفة بالتحديد هي قادرة على التقليل من الكفاح المستمر للإنسان، لأنها تجبره على المقاومة بدرجة أقل. هي تجعله أكثر صبراً لحالة

الناس الطبيعية. بمجرد أن يدرك الإنسان ضرورة عدم مطالبة الآخرين بالمستحيل، هو يصبح أكثر صبراً.

تكمن الصعوبة في أن أي منا يطالب الآخر باهتمام أكثر، بعقلانية، بالحب والمباركة، مما يفرضه على نفسه. الإنسان يطلب من الآخر عدالة ونقاء أكثر، مما هو مستعد لأن يقدم؛ وأن مقاييسه قد تكون مرتفعة جداً، بحيث يعجز الشخص الآخر عن الارتقاء إلى مستواها، ولهذا السبب يشعر بالخيبة. هاكم ما يحدث عادة: عندما يصطدم الإنسان بالظلم فهو يلجأ إلى الصمت، إنه يقاوم، وبهذه الطريقة يستمر الكفاح الحياتي. على الإنسان أن لا يتوقع من شجرة الزيتون أن تحمل الورود، أو من شجيرة الورد أن تحمل الياسمين. جميع الناس – كما النباتات، لكنهم غير متساويين. يمكننا أن نحب الورد، لكن ليس كل النباتات تحمل الورود؛ إذا كنا بحاجة للورد، توجب علينا البحث فقط على النبات، حيث يمكنها أن تنمو. فإذا ما اكتشفنا أن ما وجدناه ليس شجيرة ورود، فليس لنا أن نشعر بالخيبة. بهذه الطريقة نكون قد صححنا خداعنا الذاتي.

عندما يقول الناس، أن فلان سيئ، فهذا في الواقع يعني أن السطح قد صار سيئاً. أما العمق، الجوهر فلا يمكن أن يصبح نتناً، مهما كان المرء كريهاً. ذلك أن الحياة بحد ذاتها هي خير، وأن الإنسان الذي يتألف من الشر فقط، لا يمكنه العيش ببساطة. إن مجرد كونه حي يبرهن على أنه يوجد فيه ومضات من الخير. عدا ذلك، إن تعدد نماذج البشر، كما تعدد نماذج الأشياء، هو غير محدود: يظهر البعض كما لو أنهم قساة في الظاهر بينما قلوبهم رقيقة في الواقع، البعض يتظاهرون باللين بينما في الداخل هم قساة جداً، البعض طيبون جداً في الجوهر، لكنهم شريرون على السطح، آخرون شريرون في الظاهر، لكنهم طيبون للغاية في العمق. كلما ازداد التنوع في العالم، كلما كانت الأرواح أكثر تنوعاً.

أية تربية، أية وجهة نظر، أي تعامل مع الحياة – هي الأفضل والتي تمنح السعادة؟ إنها الحالة، عندما لا تلاحظ الشر، بدلاً من أن تقاومه. هناك ثلاث طرق للعيش، وكل منها يمكن مقارنته مع كفاح مَن يسبح في البحر، حيث الأمواج تارة تعلو وتارة تهبط. واحد سيتابع الكفاح طالما تسمح له الحياة؛ لكن ارتفاع الموج وهبوطه سيستمر وسيستمر، إلى أن يغرق

في نهاية المطاف. نفس الشيء مع الإنسان. هو يناضل، وقد أسكره الكفاح، متابعاً إلى أن تنضب الطاقة. قد يتبين أنه قوي في ذلك الصراع، وقد يبدو أنه ينتصر على الآخرين، وقد يبدو مالكاً للأشياء أكثر من الآخرين، لكن ما هي المحصلة؟ هو سيغرق في النهاية. لكن يوجد إنسان آخر يعرف كيف يتحرك بخفة في المياه، هو يفهم إيقاع حركات اليدين والرجلين، أنه يسبح طبقاً لارتفاع وانخفاض الأمواج. هو لا يكافح. هكذا الإنسان يمكنه بلوغ الميناء، إذا كان الميناء قريباً. إذا لم يكن مثاله بعيداً جداً، فإنه سيحقق ما يريد. أما الإنسان الثالث – هو ذاك، الذي يمشي على الأمواج. هذا هو بالضبط المغزى من سير السيد المسيح على الأمواج.

إن الحياة أشبه بالحركة الدائمة للأمواج. مَن يسمح لها بإزعاجه، فإنه سيعيش متوتراً وقلقاً أكثر فأكثر مع كل يوم؛ أما ذاك الذي لا يهتم لها، فهو سيعيش دوماً بهدوء وبلا انفعال. أما مَن يرى كل شيء ومع ذلك هو يترفع فوق الأشياء – هو الذي يمشي على الأمواج. ليس هناك مَن يستطيع في لحظة واحدة بلوغ أرفع درجات الحكمة، أرفع مستويات الفهم للحياة. بل ربما سيكون العمر بكامله غير كاف لبلوغ الهدف. ومع ذلك، إن الأمل ضروري، لأن مَن يحدوه الأمل ويرى الإمكانية – هذا هو الذي يبلغ الذروة. بينما مَن يفقد الأمل، هو كمثل من ليس له أرجل كي يتسلق جبل الحكمة، التي تعتبر ذروتها هي الغاية.

الإدانة

من عادة الإنسان، كقاعدة، أن يصدر الأحكام على الآخرين بدون تحفظ وأن يعلن رأيه على الفور. هو لن يتوقف أبداً ليتساءل إنْ كان هو نفسه قد بلغ مستوى الشخص، الذي يريد إدانته، وهل له الحق في الحكم عليه. قال السيد المسيح عن الإدانة: مَن كان منكم بلا خطيئة فليَرِمْها بحجر. بذلك يكون هو أعطى درساً عظيماً بهذا الخصوص.

بالنسبة للصوفي، الذي يرى الله في كل هيئة، وفي كل قلب - يرى الذات الإلهية المقدسة، لا يمكنه الحكم على أي كان، بغض النظر عن وضعه الاجتماعي، وعن التصرفات والظروف، لأن كل هذا يعتبر منافياً لعقيدته. الصوفي يطور بهذا الشأن فلسفته، التي يتوصل إليها بداية عن طريق التفكر.

إن الامتناع عن إدانة الآخرين، من حيث المبدأ، يتعلق بعملية مراقبة الذات، وهو موضوع اللباقة، الطيبة، التعاطف والرأفة، بل هو موضوع العلاقة التبجيلية تجاه الإله، المبدع لكل الكائنات الحية، مع إدراك أنها جميعها - طيبة وشريرة - بمثابة أبناء الله. إذا كان طفل ما غير جميل من حيث الشكل، هل من اللباقة القول بوجود أهله: " هذا الطفل ليس جميلاً".

الله - وهو الأب والأم لجميع الكائنات - دائماً موجود هنا، يعلم ما يدور في قلب كل واحد. هو يرى كل أخطائنا وفضائلنا قبل أن نقوم بها، وعندما ندين الآخرين بسهولة فإننا نفعل ذلك أمام أعين المبدع العظيم، الذي خلق كل شيء، وليس من ورائه؛ بل يجري ذلك بحضوره. إذا ما أدركنا ذلك، فليس من الصعب الإحساس بوجود الله في كل مكان.

يجيء وقت، بعد التدريب المتواصل على الامتناع عن الإدانة، ندرك الأسباب، التي تقف وراء كل تصرف أولئك، الذين نلتقيهم. عندها نصبح أكثر تسامحاً وأكثر تساهلاً. حين يأتينا مريض مع لهاث وشكاوي، نشعر بداية بالانزعاج. نعلن أن هذا تصرف سيئ، سخيف، وأن هكذا سلوك يشير إلى الطباع السيئة للشخص. لكن، إذا عرفنا الأسباب الفعلية، وأن هذا ليس من طبعه، بل يفعل ذلك لأنه مريض، فسوف نصبح أكثر تسامحاً، أما إذا لم نر الأسباب، فهذا يعني أننا لسنا قساة وحسب، بل وعميان تجاه نور الله، عميان للتسامح – هذه الصفة الإلهية الثمينة، التي يمكن ملاحظتها في قلب كل إنسان.

إن الفرق الموجود بين العدالة الإلهية وبين الفهم البشري للعدالة، يمكن توضيحه على المثال التالي: عندما يقتتل الأطفال بسبب الألعوبة، يكون عند كل منهم سببه الخاص. واحدهم يجد هذه اللعبة هي الأنسب، فلماذا لا يحق له امتلاكها؟ الثاني يعتبر أن الألعوبة أهديت له، فلماذا لا تكون من نصيبه؟ كل منهما يذكر أسبابه وكلاهما محق. لكن الأب يناقش على طريقته: هو يعرف طباع كل منهما ويعرف ما يريد تربيته في كل من الطفلين. لهذا هو يعطي أطفاله ألاعيب ليغير شيئاً ما في طباعهم. أما الطفل لا يعرف ذلك، وإذا كان لم يعد صغيراً، فسيتهم الأب بإهمال رغباته. هو لا يفهم عدالة الأب؛ عليه أن يكبر إلى مستوى ما لكي يفهمها. هكذا الأمر بخصوص عدالة الرب والإنسان. عدالة الإنسان محدودة بالأفكار المهيمنة للمرغوب وغير المرغوب وبمعارفه، التي لا يمكن مقارنتها بمعارف الرب.

السبيل الوحيد للوقوف على طريق العدالة الإلهية – هو الإيمان بالعدل الإلهي برغم كل البراهين، التي، كذا، تناقض عدالته. لو سلّمنا بتلك البراهين، لكنا توصلنا إلى نتيجة مفادها أنه لا وجود لأية عدالة، وأن كل شيء يجري بشكل آلي. إن التصورات حول الكارما[1] وحول دورات التجدد، يمكن أن تكون مرضية، لكنها هي أيضاً تصدر عن الله، الذي يقف وراء كل شيء. ما كان الله القادر على كل شيء، لو أنه كانت لدى كل كائن حيٍّ العظمة الكافية على خلق الكارما الخاصة به. حتى لو أن كل شيء جرى آلياً، فإنه لا

1 – لاحقاً هناك توضيح لمفهوم الكارما.

بد من مهندس – وهل يصح أن يكون معرضاً لتأثير هذه الآلة؟ إذا كان الإله محدوداً – هو لن يعود إلهاً . إن الله يتميز بالكمال في عدالته، في حكمته، في سلطانه . لكن، إذا ناقشنا أسباب الحوادث، التي تبدو غير عادلة، عندئذ سينشأ السؤال التالي : هل يستطيع الملحن الموسيقي أن يعطي شرحاً لكل نوتة من مقطوعته الموسيقية؟ لا . هو يمكنه فقط القول : " شيء ما يشبه التيار عَبَرَ قلبي . وقد حاولت التقيد بقواعد التأليف الموسيقي، لكنني لم أرهق نفسي بالتفكير حول كل نوتة . انصب اهتمامي فقط على الانطباع العام، الذي ستتركه المقطوعة " .

يوجد القانون، لكن يوجد الحب أيضاً . القانون – هو العادة، أما الحب – هو الحياة بحد ذاتها . القانون تم وضعه وتأسيسه، الحب – لم يصنع، هو موجود دوماً . لذلك، إن الحب هو أعلى من القانون ؛ كما إن الرب أعلى من القانون، أيضاً الحب هو فوق القانون . لذلك إذا أردنا، مع ذلك، البحث عن الجواب لماذا هكذا، فيجب أن نفعل ذلك ليس من خلال دراسة القانون . دراسة القانون يمكنها فقط أن تفتح الشهية، دون أن تقدم جواباً مقنعاً . السبيل الوحيد للحصول على الرضا والسكينة – هو الغوص عميقاً في بحار الحب، عندها سيصبح واضحاً أنه لا يوجد شيئ غير عادل في العالم، ولن نعود أبداً إلى اعتبار أي شيء غير عادل . هذا هو المستوى الذي يبلغه الحكماء . هم يدعونه سمْتُ الحكمة .

هناك قول معناه أن الله يغفر أكثر مما يعاقب، لكن من أين لنا أن نعرف فيما إذا كان الله يصفح؟ قبل كل شيء ، العدالة هي مخلوقة، أما الحب فلم يخلق –كان موجوداً دائماً وسيظل . العدالة ولدت من خاصية بشرية معينة – الصدق ؛ تدريجياً ، العدالة تبحث عن الاستواء والانتظام، ليصبح كل ما هو غير منتظم منافيا لها . من أجل تطوير هذا الشعور نحن بحاجة للتأثير الملهم لكل ما يوجد بالأصل : العدالة هي محصلة استيعابنا لكل ما شاهدنا . الحب – ليس كذلك – هو فطري وموجود منذ الأزل . جاء في الإنجيل أن الحب هو الله ؛ لذلك، إذا كانت العدالة هي طبيعة الله، فإن الحب – هو جوهر الذات الإلهية . هو يغفر لأنه هو نفسه الغفران بحد ذاته . وهو يحاسب، لأن هذا من طبيعته – أن يحاكم .

العدالة تنبع من عقلانية الإله، وتظاهرات عقلانيته في هذا العالم من الأوهام محدودة. وعندما نحكم على أشياء محدودة فإن عقلنا يصبح أيضاً محدوداً. نحن محدودين كما هي الأشياء أمام أعيننا. كلما كان الموضوع أعظم، كلما صارت رؤيتنا أعظم.

يدخل في نطاق قدرتنا أمر واحد فقط – أن نقول " لا يجب علي أن أفعل ذلك ". إذا قلنا هذا لآخر، فإنما نحن، على الأرجح، نرتكب غلطة كبرى. إن المتصوف يطور عقله في هذا الاتجاه، عن طريق تنظيفه بواسطة الأفكار، المشاعر و الأفعال النقية والصافية، الخالية من الإحساس بالانقسام، وهو دوماً يفكر على هذا المنوال. مهما يكن الفرق بين الصحيح وغير الصحيح، الذي تشرحه لنا الأديان الأخرى، لا يوجد في الدنيا شخصان يختلفان في المبدأ الحياتي التالي: كل روح تبحث عن الجمال، و إن كل فضيلة، وكل تقوى، وكل فعل خير إنما هو عبارة عن بريق الجمال.

عندما يجعل الصوفي من ذلك المبدأ الأخلاقي أساساً لحياته، لن يعود بحاجة إلى اعتناق هذه العقيدة أو تلك الدعوة، إذ أن ذلك يقيده بدرب وحيدة. هو يستطيع أتباع طريق الهندوسية، طريق الإسلام أو طريق أية كنيسة وأية عقيدة، دون أن يزيح للحظة عن الدرب الملوكي، حيث كل الكون هو عبارة عن الجمال الفطري.

الغفران لا يحاسِب إطلاقاً . إنه مجرد الإحساس بالحب، لذلك، إذا غفر شخص لآخر، فإن كلاهما سيشعران بالسعادة وبالفرح. العدالة لا تمنح هكذا غبطة. ذاك، الذي يحاسب كثيراً هو نفسه ليس سعيداً ويجعل ممن يحاسبه تعيساً أيضاً. أما مَن يسامح فهو سعيد، لا يوجد في قلبه سخط. إنه يجعل قلبه نظيفاً وحرّاً. إن الغفران – واحدة من أعظم صفات الله.

يميل الإنسان إلى اتهام الإله في أن هناك الكثير قد تم تصميمه بشكل غير صحيح. كثيراً ما يصمت الإنسان فقط من منطلق الاحترام أو التبجيل؛ لكن لو أنه أحس " بالأمان " لكان اطلق آلاف التهم. ليس هناك مَن يتعرض للحكم وللاتهام في كل هذا الكم من الاقترافات، أكثر من الرب ذاته. السبب في ذلك يكمن في، أن الذي يحاسب هو " الأنا " المحدودة الضيقة، على الرغم من كون هذه " الأنا " عاجزة تماماً عن الإدراك.

الامتياز أن تكون إنسانا

إن البشرية منهمكة جداً في الأفراح والأتراح المعيشية لدرجة، أننا لا نفكر بالامتياز الممنوح لنا – أن يكون المرء إنساناً. مما لا شك فيه، أن العيش في هذه الدنيا يحمل الألم أكثر من اللذة، وما هو مصدر اللذة فهو يكلف كثيراً، إلى حد أنه لو قورنت بالألم الذي دفعناه في سبيلها، لكانت هي أيضاً تحولت إلى ألم. وطالما أن الإنسان منهمك بالحياة الدنيوية، هو لن يرى فيها سوى الألم والحجج للشكوى. لذلك، ما لن يتغير أفقه، هو لن يستطيع إدراك امتياز أن يكون إنساناً.

لكن، بغض النظر عن مدى شقائه في الحياة، لو سئل الإنسان ماذا يختار: أن يكون إنساناً أم صخرة، فإنه سيفضل الإنسان مع الشقاء على الصخرة. بغض النظر عن ظروف حياته، لو سئل الإنسان أيهما يفضل أن يكون – إنساناً أم شجرة، فهو سيختار الإنسان. وعلى الرغم من أن الحيوانات والطيور تعيش طليقة في الغابة، وهي خالية من الهموم والمتاعب، إذا سألنا الإنسان هل يتمنى أن يكون واحداً منها يعيش في الغابة، فهو بالطبع، سيفضّل البقاء إنساناً. هذا يؤكد أنه إذا ما قورنت حياة الإنسان بجميع جوانب الحياة الأخرى، فإن ميزاتها وحسناتها تصبح واضحة للعيان. لكن إذا لم تقارن مع الأشكال الأخرى للحياة، فإن الإنسان يشعر بالخيبة فقط ويغلق عينيه على ميزة كونه إنساناً.

عدا ذلك، الإنسان – هو أعظم أناني، ويهتم فقط لما يتعلق بحياته الخاصة حصراً. وما لم يعرف المتاعب في حياة الآخرين، فإنه سيشعر بثقل حياته كما لو أنها أثقل من كل العالم. ليت الإنسان يستطيع أن يدرك فقط أن الآخرين يعانون أيضاً، ربما أكثر منه، ليته يفهم من

بين همومه أن لدى آخرين أيضاً همومهم الخاصة، ربما أعقد و أصعب مما لديه ! الشفقة على الذات – هي أسوأ التعاسات. إنها تملأ المرء لدرجة لا يعود يرى سوى مشاكله وآلامه، وعندئذ سيعتقد أنه الأتعس من بين التعساء في العالم.

أحياناً نحن نجد الرضى في الشفقة على حالنا. سبب ذلك هو أننا نسعى بالفطرة لإيجاد العزاء والرضى في الحب، لكن، عندما تكون أفكارنا مقيدة بذاتنا، يبدأ الحب لدينا بالتمركز على الذات، بالتالي يكبر حس الشفقة على الذات لأننا إنما نشعر بمحدوديتنا. لكن حب الذات ينتهي دوماً بعدم الرضى، لأن " الأنا " لم تخلق لكي تكون محبوبة، وإنما لكي تحب هي. أول شرط للحب – نسيان الذات. لا يجوز أن تحب أحداً آخر ونفسك في آن واحد، وإذا قلت: " أعطني هذا، وأنا بالمقابل سأعطيك ذاك " – يكون هذا حباً غريباً ، هو أشبه بالتجارة.

إن أيغو Ego الإنسان – أيغو كاذبة، أما أيغو Ego الله – فهي أيغو حقيقية. لكن ما هي الايغو؟ الايغو – هي جزء من خط : أحد طرفيه – الايغو الإلهية، والطرف الآخر – أيغو الإنسان، علماً أن هذا الطرف الأخير كاذب لأن الإنسان قد أحاطه بالكثير من الأوهام و اعتبره " الأنا " خاصته. لذلك، بمجرد أن تتعرض هذه الايغو للزوال بالحب، بالحكمة أو بالتدريب والمجاهدة Meditation، فإن تلك الأوهام المغلفة لها تختفي، فيعود الايغو الحقيقي – أيغو الله – إلى الظهور.

لقد وصف سَعْدي حادثة في حياته على النحو التالي: " في يوم من الأيام لم يكن عندي حذاء، فاضطررت للمشي حافياً على الرمل الساخن، ورحت أفكر – كم أنا تعس. لكنني التقيت بشخص ذي عاهة، الذي كان يخطو كل خطوة بصعوبة بالغة. عندها انحنيت للسماوات وحمدت على كوني أسعد منه بكثير، إذ لم تكن لديه رِجْلان ليسير عليهما ". هذا يؤكد أنه ليس ظروف الحياة، بل كيفية تعامل الإنسان معها تجعله سعيداً أو تعيساً، وهذا التعامل هو مختلف لدرجة قد يجعل واحداً تعيساً داخل قصر، بينما الآخر – سيكون سعيداً وهو يعيش في كوخ.

تنشأ الفروقات بالتحديد بسبب سعة الأفق، الذي ترى عين الإنسان منه. البعض يلاحظ فقط حيثيات حياتهم الخاصة، والبعض الآخر يرى أول حياة الكثيرين من الناس — هذه هو الفرق بين هذا الأفق أو ذاك.

إلى جانب ذلك، تمارس الدوافع الداخلية تأثيرها على الإنسان. إذا كان يتراكم في الداخل السخط وعدم الرضى بشكل دائم، فإن هذا سيترك أثره على سلوك المرء. مثلاً، إذا ما انطبع أحد بالمرض فهو لن يشفى لا على يد طبيب ولا بالدواء. وإذا ما انطبع شخص بالفقر، فهو لن يحسن أداء أعماله. إذا اعتقد الإنسان أن الجميع ضده، وأن الجميع يظنون به السوء ويعاملونه بشكل سيئ، فإنه سوف يقابل هكذا معاملة أينما ذهب. في الدنيا، في التجارة، في الوظيفة. يوجد الكثير من الناس الذين يفكرون بالفشل، الذي ينتظرهم وهم ذاهبون إلى العمل. إن المرشدين والرسل في كل الأزمان قد نصحوا الإنسان: آمن بالنجاح، آمن بالحب، آمن بالخير وآمن بالله. هذه الا يغو لن تتمكن من التطور طالما بقي الإنسان منغلقاً على نفسه، ومن الواضح أن عليه، بداية، الانفتاح على الآخرين. إذا هو لم يثق بأحد، فستكون حياته صعبة للغاية. إذا كان يرتاب، إذا راح يشك في كل من يلتقيه، فهو لن يستطيع الثقة بالمقربين، حتى بأقرب الأقرباء. ومع الوقت ستبلغ شكوكه حداً لا يعود معه يثق بنفسه.

لا قيمة لثقة الإنسان، الذي يثق بالآخرين، لكنه لا يثق بنفسه. أما مَن يثق بالآخرين لأنه يثق بنفسه، فتلك هي الثقة الحقيقية، بفضل ثقة المرء بنفسه — هو يمكنه أن يجعل حياته سعيدة في أية ظروف.

تحكى في الهند قصة الشخص، الذي سمع بالشجرة التي تحقق رغبات زائريها، فتوجه يبحث عن تلك الشجرة. قطع الغابات والجبال، وحين وصل إلى مكان ما في النهاية، استلقى تحت شجرة وغفا دون أن يعلم أن هذه هي الشجرة العجيبة. وهو يغفو راح يحلم: " ليتني أملك الآن هنا فراشاً وثيرةً، منزلاً جميلاً وجنينة مع نافورة، و خدماً من حولي ينتظرون أوامري! " وقد غفا مع هذه الفكرة، وعندما فتح عينيه لاحظ أنه ينام على فراش

وثيرة في بيت رائع مع حديقة ونافورة، ومن حوله يقف الخدم منتظرين أوامره. أدهشه ذلك لأنه تذكر أن هذا ما حلم به قبل النوم. عندما تابع طريقه وراح يناقش في عقله ما عاشه، أدرك هذا الإنسان أنه بالفعل نام تحت الشجرة التي بحث عنها، وأن تلك العجيبة قد حققتها هذه الشجرة.

إن تفسير هذه الأسطورة بحد ذاته هو فلسفة. الإنسان نفسه هو الشجرة، التي تحقق رغباته، وجذور الشجرة تنمو من قلب الإنسان. الفروع والأغصان مع الأزهار والثمار، الحيوانات صاحبة القوة والخفة، الطيور مع الأجنحة لا تستطيع الطيران عالياً كما الإنسان، لهذا هو يدعى بالانسان – هذه الكلمة باللغة السنسكريتية لها نفس الجذر مع الكلمة "عقل".

إن الأشجار في الغابة، وهي تقف بهدوء وبصمت، تنتظر تلك البركة وتلك الحرية، المتوفرتين عند الإنسان، كذلك هي الجبال وكل الطبيعة، على ما يبدو، تنتظر هذا الكشف – امتياز أن تكون إنساناً. لهذا إن الأسطورة تقول بأن الإنسان قد خُلِق على شاكلة الرب. من هنا يمكن اعتبار الإنسان – الأداة الأكثر مناسبة لعمل الإله. لكن من وجهة النظر الصوفية – يمكن القول أيضاً أن الخالق يتخذ قلب الإنسان ليجرب عليه كل ما أبدعه. كل هذا يثبت لنا، أنه ما من كائن على الأرض أكثر قابلية للسعادة، للرضى، للفرح وللسلام، أكثر من الإنسان. من المؤسف جداً أن لا يعي الإنسان امتياز كونه إنساناً، لأن كل لحظة من الحياة يقضيها في خطيئة عدم إدراك ذلك، هي ضائعة عليه – وهذا فقدان كبير.

إنه لامتياز عظيم للإنسان – أن يكون أداة مناسبة للرب، وما لم يفهم ذلك هو لن يدرك رسالته الفعلية. أن السبب في المأساة البشرية يكمن في إهمال هذه الحقيقة. بمجرد أن يدرك الإنسان ذلك، هو يبدأ العيش حياة واقعية صحيحة، حياة التناغم بين الله والإنسان. عندما يقول السيد المسيح: " ابحثوا قبل كل شيء عن مملكة الرب وعن حقيقته، وهذا يحسب لكم " – فإن هذه الكلمات جاءت جواباً على نداء البشرية. صاح البعض: " ليس لدي ثروة "، آخرون قالوا: " لا راحة لي "، أو: " وضعي المعيشي صعب للغاية "، أو: "أصدقائي يسببون لي المتاعب"، أو: " أنا اريد أن اشغل مكانة اعلى ". وجوابا على كل الطلبات جاءت كلمات المسيح تلك.

ربما يسأل سائل ، كيف يمكن فهم هذه الحكمة من الناحية العملية، من وجهة نظر علمية؟ الجواب يقوم على أن الأشياء الخارجية لا ترتبط بنا بشكل مباشر، ولهذا غالباً ما تكون غير متوفرة لنا. أحياناً تسنح الفرصة لنا تحقيق رغبتنا، غالباً – لا. لكن أثناء البحث عن مملكة السماء، نحن نبحث عن مركز الكل، من الداخل ومن الخارج، لأن كل ما يوجد في السماء وعلى الأرض، مرتبط مباشرة مع المركز. هكذا، من المركز يمكننا الوصول إلى كل شيء على الأرض وفي السماء؛ لكن إذا كان ما نبحث عنه بعيداً عن المركز – يمكن عندها أن يسحب منا.

جاء في القرآن، أن الله هو نور السماوات والأرض. إلى جانب السعي لبلوغ شيء ما دنيوي، لدينا رغبة أعمق، تعمل من دون وعي في كل لحظة – وهي الدخول في احتكاك مع الخلود. عندما يرسم الفنان لوحة أو عندما يعزف الملحن أو يغني، فهما – إذا كانا يفكران مثلاً : " هذه لوحاتي أو : " هذه بقيادتي، موسيقاي " – قد يحصلان على رضى معين، لكنه سيكون أشبه بقطرة في المحيط. أما إذا جمعا رسومهما أو موسيقاهما مع إدراك الإله، أي أن يفكرا : " هذه لوحاتك، وليست لي " أو : " هذه موسيقاك، وليست موسيقاي " – فهما إنما يتحدان مع المركز، وبالتالي تتحد حياتهما مع الإله.

إذا ما تم التسليم بهذه العلاقة، فسوف يظهر في الحياة الكثير مما نسميه الخير، وهذا بدوره سيجلب الرضى والانشراح؛ هذا قد يجعل الإنسان راضياً ويعطيه حياة سعيدة. الله – هو المبدع لكل هذا الفن الرائع، وإذا نحن لم نتحد مع الفنان المبدع، لن يكون بإمكاننا أن نبتهج بالعمل الإبداعي. إذا كنت تسير باتجاه بيت صديق تحبه وتعجب به، كل شيء مهما كان صغيراً يبدو لك لطيفا ومريحاً، أما إذا كنت ذاهباً إلى بيت عدو – كل شيء يزعجك. بإمكان تقديرنا، محبتنا، صداقتنا مع الله أن تحول العالم بأكمله إلى مصدر للسعادة. في منزل الصديق حتى قطعة الخبز أو كأس اللبن يبدوان من أفضل الطيبات، وفي بيت العدو أفضل الضيافات تبدو بلا طعم. وبمجرد يدرك الإنسان أن في بيت الآب، في هذا العالم، يوجد عدد من الأديان، من الاعراق و الأمم ، وأنها جميعها موجودة في بيت الإله، عندها مهما تكن

حياتنا في هذه الدنيا متواضعة أو معقدة، فإنها ستصبح أفضل وأكثر سعادة عاجلاً أو آجلاً، لأننا نشعر أننا جميعاً إنما موجودون كضيوف عند ذاك، الذي نحب، وبالذي نُعْجَب، وكل ما يحصل لنا نحن نتقبله بسرور ومع الشكر، لأنه يصدر عمن نحب.

بالرغم من جميع ادعاءاتنا عن الحضارة والتقدم، يبدو كأنما الإنسان قد سقط في خطأ عظيم. لقرون لم يشهد العالم ما هو الآن، حيث الأمة الواحدة تكره الأخرى وباحتقار تنظر إلى الثالثة. ماذا يمكن تسمية ذلك؟ هل هذا تقدم أم انحطاط؟ أو ربما أدنى وأسوأ؟ وهل لم يحن الوقت لكي تستيقظ النفوس المفكرة من النوم ولتكرس نفسها للإنسانية، دون أن تضنَّ بالطاقات من أجل عمل الخير لها، ساعية إلى تحسين شروط الحياة في العالم، بدلاً من الاهتمام فقط بالمصالح الشخصية الضيقة؟

الجزء الإلهي والجزء البشري فينا

قبل كل شيء إن الإنسان كان قد أدرك في العصور الغابرة، كما هو الحال في زماننا، وجوده الخاص المحدود، المغلف بالمادة والذي أسماه " أنا". لم تكن هذه غلطته، بل هي حدثت لأن الأديان قد فُسِّرت بقصد الهيمنة على البشر، مبقية إياهم في الطاعة لدى مَن فهم معاني الدين. لقد سمح رجال الكهنوت للناس بالاطلاع على القليل فقط، بينما تركوا الباقي لأنفسهم. هم قالوا: " أنتم كائنات عادية. الله عظيم جداً بالنسبة لكم لكي تستطيعوا فهمه. نحن يمكننا التواصل معه، وأما أنتم فألزموا مكانكم ".

لقد أمضى بوذا كل حياته وهو يقاوم هكذا فهم للأشياء. عندما كان أحد ما يحدثه عن الروح، عن الإله أو يعرض القداسة والحياة الروحية، كان هو يقول: " أنا لا أؤمن بذلك ". لكن هذا موقف متطرف أيضاً، لأنه كان يدفع الناس إلى خطأ آخر، فكانوا يؤكدون أنه لا وجود للإله ولا للروح.

هناك سبب آخر للانقسام وهو الرغبة المتأصلة عند أولئك، الذين كانت لديهم نفس وجهة النظر، نفس الاعتقاد أو منظومة الآراء حول ضرورة التجمع والتكتل في جماعات من أجل دعم وجهات نظر بعضهم البعض. بهذه الطريقة هم ابتعدوا عن بقية البشرية.

الصوفي لا يؤمن مطلقاً بطريقة عمياء. بل في الحقيقة هو بصورة عامة لا يؤمن – هو يجرب. هو يتعرف أن هو هو نفسه عبارة عن الكون كله. قال أحد الشعراء الهنود في قصيدته ما يلي:

الله مستتر خلف وجه الإنسان ،

لم أكن أعلم .

غطيت عيناي بالخمار وابتعدت عن الحقيقة ،

لم أكن أعلم .

هذا البيت من الشعر له مغزى كبير جداً . يوجد في كل منا جزء إلهي وجزء بشري. يتألف الإنسان من عنصرين – الروح والجسد . الروح – هو الجزء الأكثر دقة، والجسد – الجزء الأكثر ثخانة . الجزء الدقيق، الروح، تحول إلى الجزء الأكثر كثافة . أحد الجزئين، كما رأينا ، هو الخارجي ، " أنا " المحدودة، والجزء الآخر – هو الجوهر اللامحدود .

يتكون الغلاف الخارجي للإنسان من خمسة عناصر ، لكن الواقع هو أن الإنسان يشكل أكثر من ذلك بكثير ويمتد أبعد بكثير ، مما جرت العادة على الاعتقاد . مثلاً، عندما يقف شخص ما أمام المستمعين، فإن حجمه يبدو كما هو بالفعل ، لكن حين يتكلم – يبدو هائلاً كما الفضاء الذي يُسمع فيه صوته . قد يكون الصديق أو المعشوق على بعد ألف ميل ومع ذلك يشعر بتعلقنا وبوفائنا . الإحساس ينشأ هنا ويتظاهر في مكان بعيد ؛ من هنا نرى كيف أننا نصبح أرحب مع المشاعر .

ينتشر التنفس أوسع فأوسع . بمساعدة التنفس يمكننا إرسال أفكارنا حيثما نشاء ، كما يصبح بإمكاننا معرفة أفكار وحالة كائن آخر . إن فكرة الشخص، الذي يحلم ببلوغ هدف ما ، تطير في المقدمة كي تجهز كل ما يلزم . يمكن مقارنة الإنسان بالتليسكوب : في جهة يوجد الجزء البشري، العنصر المحدود ، وفي الطرف الثاني – الجزء الإلهي، العنصر غير المحدود . من ناحية الإنسان صغير لدرجة كبيرة، وفي الناحية الأخرى يصبح بلا نهاية كما الكون كله .

إذا كان كل واحد منا عظيم لدرجة يبلغ معها حدود الكون ، فسوف نسأل عندئذ : كيف يتسع المكان للجميع . أم أنه يوجد بضعة كائنات متواجدة في كل مكان؟ كلا . ولكن بسبب جهلنا نحن نرى التعددية ونصيغ الفروقات، قائلين : " هذا أنا ، هذا أنتَ، هذا صديق، وهذا عدو ، يعجبني هذا ، وهذا لا يعجبني " . أما في العالم الغيبي الكل مترابط . هناك نحن جميعنا نصبح واحداً .

هناك طبيعتان للإنسان : Pharishtagi أو ملائكية، وحيوانية . الحيواني يتضمن الجسد البشري وذلك الجزء منه الذي يتطلب الطعام والشراب، النوم وإشباع الرغبات . الحقد والغيرة عند الإنسان ذات طبيعة حيوانية، كما هو الخوف تجاه مَن هو أقوى منه، وكذلك الحسد تجاه مَن هو أفضل . الإنسان يشبه الحيوان في هذا كله .

فاريشتاغي – عبارة عن ذلك الجزء من الطبيعة البشرية، الذي سيعود إلى أصله . هذا ليس العقل البشري . فالحيوانات أيضاً لديها عقل، لكن الحيوان لا يمكن أن يسأل : " من أين جئت؟ لأي هدف أنا هنا؟ " عندما يتعرف الإنسان على ذلك، يتعرف على مصدره، هو يصبح كائناً ربانياً . يعود الفضل في طبيعة الإنسان الملائكية إلى طيبته، محبته، تعاطفه ورغبته بالاطلاع . لقد جاء في قصيدة أحد شعراء الهنود العظام ما معناه : " لقد خلقنا الإنسان للإحساس، وإذا بدا غير ذلك ففي السماء ملائكة كثر ليغنوا المديح لنا " .

في عبادته، وهو يظن أنه يمجد الرب، إنما الإنسان ينتقص منه . نحن نتخذ جزءاً و ندعوه " الأنا " . نحن ننتحل هذا الجزء وبذلك نكون قد سلبناه من الإله . إني أذكر كيف أن مرشدي حين كان يصطدم مع صعوبة كبيرة، كان يقول وهو يتنهد تنهيدة عميقة : " بانداغي بيشيريغي Bandahi becherehy " أي ما معناه : " بعد أن جاء إلى هنا، هو أصبح بلا حول" . المقصود الله .

ما هو الرابط بين الله وBandahi، الرب والإنسان، وما هي العلاقة بين الإنسان والإله؟ . إن ما ندعوه " الأنا " – تم خلقه من انطباعات العالم الخارجي – عالم الأوهام، الذي هبط على الروح . الرضيع لن يقول " أنا " مطلقاً . إذا كان يمسك شيئاً في يده، ثم أخذها أحد ما، فالرضيع لن يتكدر . الرضيع لا يميز الكبير من الصغير . بغض النظر مَن يوجد بجانبه، صديق أو عدو، كلهم سواسية بالنسبة للرضيع . إن الإدراك، الذي يتعرف على الأشياء عن طريق اختلافها، هو يخدع الروح .

ليس صعباً ملاحظة : ما نحن نسميه " أنا " ليس دائماً من الطبيعة الحقيقية للروح عندنا، لأننا لا نكون سعداء بالفعل أبداً . مهما حاولنا، مهما تملكنا، مهما نلنا من سلطان، نحن لا

يمكن أن نكون سعداء . نحن نقول، إن هذا أو ذاك يجعلنا تعساء ، لكن السبب الحقيقي – في الابتعاد ، فالروح تكون تعسة في عزلتها .

يرى الإنسان أن بدلته مستعملة وفقيرة، فيقول : " أنا فقير" . يرى طقمه جديداً ثميناً ، ويقول : " أنا غني" . رغم أنه ليس غنياً ، بل طقمه غالي الثمن . الروح هي كما " الأنا " تعترف بكل ما هو موجود أمامها . لكن ما هو " الأنا "؟ البدلة ليست " أنا " ، لأنه حين تنزع البدلة، فإن " الأنا " تبقى . يمكن أن لا نخبر أي شيء بواسطة أعضاء الحس، أما الوعي فسيحضر بالتأكيد .

إن الصوفي ، ومن خلال سلبية الحواس التي يبلغها عن طريق التدريب والتمارين ، يصنع السكينة . ثم ، وهو يردد اسم الرب، يوحّد إدراكه مع الإدراك الكلي في الإله . لقد فهم فلاسفة اليونان القدماء هذه العملية، وكذلك أتباع الفيدانتا . الصوفي يشعر بالخشية والخشوع أمام الرب، إنه ينحني ويخرّ على وجهه أمامه. هو يمنح الرب الاسم الرائع المعشوق . هو يفهم أنه حين يقول : " هذا أيضاً الرب " – إنما هو يمجّد الرب هو لا يقلل من شأنه . بكل استكانة، بكل إخلاص هو يدرك اتحاده مع الخالق الأعلى .

يصعب الفصل بين الله وبين الإنسان . في الواقع لا يوجد هكذا فصل . أفعال الرب وأفعال الإنسان هي ذاتها ، مع فرق وحيد هو أن أفعال الرب مثالية كاملة، وأفعال الإنسان – ناقصة . على الأرض نحن مرتبطون بأشياء كثيرة . أولاً ، نحن بحاجة للطعام . لولا الحاجة للطعام لما اضطر الإنسان للعمل . كان بإمكانه أن يجلس مع أصدقائه ويتفكر بالله أو بشيء آخر . كما أننا بحاجة للنوم . وهناك جملة من الحاجات الأخرى .

جاء في قصيدة للشاعر زهير : " الباحثون أضاعوا أنفسهم، قبل أن يجدوكَ " . أما الشاعر العظيم أمير فقد قال : " لا تقل أن الإنسان هو الله، لأنه ليس الله . لكن لا تقل أيضاً أن الإنسان منفصل عن الله، لأنه غير منفصل عنه " .

ليس صعباً امتلاك قوة غيبية أو جسدية ؛ ليس صعباً أن تكون فاضلاً وأن تعيش حياة نقية . لكن أن تكون رحوماً ، أن تكون شفوقاً ، أن تكون إنسانياً – أمر صعب . هناك أسماء كثيرة للرب : العظيم، الكلي القدرة، السيد ، – لكن غالباً ينادونه بالغفور والرحيم . من

ناحية هذه الصفات نحن لسنا كاملين أبداً ومن غير المنتظر أن نصبح كاملين. اعزل نفسك في غرفة ولتتب عن كل شيء سيئ سبق وفعلته، وعن آلاف الأفكار السيئة، التي كانت لديك تجاه الأصدقاء والأعداء. قال أحد الشعراء الفرس: " سِّرُ الوجود في العالَمَين يكمن في كلمتين: كن لطيفاً مع الأصدقاء، كن لبقاً مع الأعداء ".

إذا فهمنا ذلك، فإن الدنيا بالنسبة لنا لن تساوي شيئاً؛ وإذا عرفنا أن كل ما في هذه الدنيا هو عابر، فلماذا لا نسمح للآخرين بالاستمتاع بينما نحن نراقبهم؟ لماذا لا نسمح للآخرين أن يلبسوا ثياباً جميلة، حين ننظر إليهم؟ لماذا لا نسمح للآخرين أن يأكلوا طعاماً لذيذاً بينما نحن نحضّر الطعام في المطبخ أو نقوم بحراستهم؟ لماذا لا نسمح للآخرين بالسفر في عربة، بينما نحن نقوم بجرّها، بدلاً من أن نجلس فيها ونجبر الآخرين على سحبها؟ أن تعيش حياة فاضلة، كريمة يعني أن تكون رحيماً ورؤوفاً. لكن الواقع هو أن كل شخص يحاول سلب ما هو الأفضل عند الآخر، إن هذه الرغبة تتجلى حتى في الصداقة. كل واحد يركض وراء ملذاته ويترك الأسوأ لغيره. أما مَن يبحث عن الرب، عليه أن يختار طريقاً مناقضاً، حتى ولو تطلب ذلك السير ضد العالم بأكمله.

هناك ثلاثة اتجاهات. الأول – إنكار الذات، طريق القديسين والحكماء، الذي يتطلب التزام المثال وتقبل كل الشرور، الاختبارات والعذابات التي يمكن أن تقع على عاتق الطالب. الثاني – الأنانية. السير في هذه الدرب يعني أن يكون المرء أكثر أنانية من جميع أهل الأرض. الاتجاه الثالث – الطريق الأكثر عَظَمَةً والأصعب – يعني تحمل المسؤولية الكاملة والقيام بما يلزم تجاه الأصدقاء، وأن يكون المرء قدر المستطاع غير محب لمصلحته الشخصية، وأن يكون خيّراً وفي نفس الوقت أنانياً كفاية كي لا يسمح بالدوس عليه.

عندما يدور الإنسان ضمن حلقة، فهو في البداية يتحرك ببطء، لكن في المرة الثانية – يصبح أسرع، في الرابعة – أكثر سرعة، وفي المرة الخامسة، السادسة، السابعة وفي، ربما، التاسعة قد يقع. في المرة الأولى هو يشعر بالفرح من دورانه، في المرات الثانية، الثالثة والرابعة تزداد فرحته أكثر و أكثر، إلى أن يسكر بفرحته – فيسقط، وقد عاش الفرح كاملاً.

هذا يحصل مع المجرة أيضاً، يوماً بيوم، منذ لحظة خلقها وإلى اليوم. يمكن بلوغ النشوة في كل عمل. بغض النظر ماذا نفعل، نحن نرغب بالوصول إلى هذه المرحلة. الوطني الغيور يصبح وطنياً أكثر. المطرب يغني أغنية بعد أغنية إلى أن يبح صوته. المحب لألعاب اللهو يريد أن يلعب ويلعب. إذا ما شرب الإنسان أو تناول المخدرات، فهو يشتهي الخمر أكثر أو جرعة أكبر من المخدرات.

شمس الدين حافظ[1] قال: "صُبَّ الخمر قبل الشروق. الخمرَ، المأخوذ من عيون السَّقا[2] — ربَّ الخمر". السقا — هذه الظاهرة التي تسكرنا بحيث نعتقد معها أن ذلك هو الواحد الموجود، وفي النهاية يتبين أننا مستعبدون إلى درجة لم نعد قادرين على التحرر من ذلك.

1- شمس الدين حافظ الشيرازي حوالي ١٣٢٥ — ١٣٩٠ شاعر فارسي. أستاذ الغزل. دواوينه الشعرية مؤلفة من هذا النوع من الجنس الادبي ومليئة بروح العصيان المستتر خلف نصائح وتعاليم صوفية — المترجم.

2- السَّقا — يقصد به الشخص المسؤول عن حفظ الخمر وتقديمه والعناية به وتقديمه في الاوقات اللازمة. وقد كانت توجد مثل هكذا وظيفة في ممالك تلك الأيام - المترجم

الإنسان - بذرة الرب

هناك عدد كبير من الآراء والمعتقدات بخصوص العلاقة بين الإنسان والرب – وهذا شيء طبيعي، أن توجد قناعات مختلفة لأن كل إنسان يمتلك تصوره الخاص عن الإله. لا توجد مقارنة بين الله والإنسان: الإنسان، ذلك الكائن المحدود، تمكن مقارنته مع كائن آخر، أما الله، الكائن المطلق الكمال، فهو خارج المقارنات. لقد حاول الأنبياء وأوصياء البشرية، عبر مختلف مراحل التاريخ، أن يقدموا للناس تصوراً معيناً عن جوهر الإله. لكن هذه المهمة كانت على الدوام غاية في الصعوبة، لأنه يستحيل تعريف الله بالكلمات. هذا أشبه بمحاولة حصر المحيط في قارورة. الكلمات، التي نستخدمها في حياتنا اليومية، هي تسميات لأشياء محدودة، وعندما نمنح اسماً للرب، الذي هو أسمى من كل الأسماء، فإنما نحن نفعل ذلك من أجل راحتنا. الإمكانية الوحيدة لإدراك الله وجوهره –عبر إيجاد طريقة للتواصل بين الله والإنسان. إن السبب، الذي يجعلنا ندعو الإنسان بذرة الله، يقدم لنا إلى حد ما التصور عن فكرة العلاقة القائمة بين الإنسان والله.

هناك الجذر، الذي منه يخرج الجذع ، ثم الأغصان، فالأوراق، و أخيراً الزهرة، التي تحتوي في المركز ما يمكنه شرح تاريخ هذا النبات. أحياناً، يبدو الأمر وكأن النبات قد خلق خصيصاً من أجل الزهرة، لكن في الواقع، هو خُلِق من أجل الحبة، المخفية في قلب الزهرة والتي تضمن استمرارية هذا النوع من النباتات. هذه البذرة – هي سر النبات، أصله وغايته. هي كانت البدء، منها خرج الجذر، ثم نشأت الساق وصارت البذرة نبتة. بعد ذلك اختفت البذرة، لكن بعد ظهور الأغصان، الأوراق والأزهار، البذرة تظهر من جديد. لقد عادت إلى الوجود ليس

كبذرة واحدة، بل كمجموعة بذور، لقد تضاعفت وفي نفس الوقت ظلت مجرد بذرة. ولأية غاية حدث ذلك؟ لكي تظهر للحياة بذرة واحدة كحصيلة لحياة النبتة ككل.

بالنسبة للشخص صاحب العقيدة البسيطة، الذي يؤمن فقط بفكرته الخاصة، لا توجد أية علاقة متبادلة بين الله والإنسان. لكن بالنسبة لمن يريد فهم هذه العلاقة، فإن البراهين على وجودها جليّة للعيان وفي كل مكان. يجري الحديث عن هذا في الإنجيل، حيث جاء أن الله قد خلق الإنسان على صورته. كما هو الأمر بالضبط مع البذرة، التي منها خرجت النبتة، فيمكنها القول: " على شاكلتي وصورتي أنا خلقت البذرة الجديدة، التي بدورها ستخرج من قلب الزهرة. أنا سأخرج من جديد مضاعفة كمجموعة، على الرغم من أنني في البداية كنت مجرد بذرة وحيدة ".

هذه الفكرة من جديد تشرح لنا، لماذا خلق الإنسان على شاكلة وصورة الرب، بينما كل ما عداه من مخلوقات، كل عالم الظواهر نشأ (بشكل مباشر) من ال له. الأوراق، الأغصان والجذع أيضاً نشأت من البذرة، لكنها لم تنشأ على صورة البذرة. إن صورة البذرة هي البذرة بحد ذاتها. أكثر من ذلك، في البذرة يكمن جوهر البذرة. بالطبع، توجد الطاقة الخاصة، القدرة الخاصة، اللون الخاص والروعة المميزة في كل من الزهرة، وفي الأوراق، وفي الجذع، لكن جميع الخواص المميزة للجذع، للزهرة، للبتلات وللأوراق يمكن إيجادها في البذرة.

هذا يبين لنا أن الإنسان هو ذروة الخلق كله، وأن الكون كله يتظاهر فيه. مملكة المعادن، مملكة النبات ومملكة الحيوان يمكن رؤيتها في الإنسان، في روحه. إلى جانب كون مختلف الأحجار والنباتات تتظاهر في الجسد المادي، الفيزيائي، الذي خلق من أجل الإنسان، فإن عقله وقلبه يمتلكان جميع خواص تلك الخواص. القلب قد يكون إما كالأرض الخصبة أو كالصحراء الجدباء: تُظهر الحب أو غياب الحب، القدرات البنّاءة أو الميل للتدمير.

هناك أنواع مختلفة للحجارة؛ منها أحجار كريمة، منها الحصى وأحجار الزلط، لكن بين قلوب الناس يمكن مصادفة تنوعاً أكبر. لنتذكر أولئك، الذين كانت أفكارهم ومشاعرهم أثمن بكثير من أية كنوز في الدنيا — الشعراء، الرسامين، المبدعين، المفكرين، الفلاسفة، خدم

الإنسانية، الملهمين والفضيلين في البشرية. ليست هناك ثروة، ليست هناك أحجار ثمينة، لا الألماس ولا الياقوت، لا تمكن مقارنتها بهم، ومع ذلك توجد لديهم نفس الخاصية. وهناك قلوب هي أشبه بالصخور الصلبة: يمكن الاصطدام بها، بل يمكن التكسر عليها، دون أن تتأثر. قد تكون للقلب خاصة الشمع أو خاصة الحجر. هناك قلوب تذوب وهناك قلوب لا تحس بالدفء أبداً. وهل يوجد في الطبيعة ما لا يمكن إيجاده في الإنسان؟ ألا يوجد في مشاعره، أفكاره وصفاته خصائص المياه الجارية، الأشجار المثمرة؟ ألا يوجد في قلب الإنسان ما يماثل النباتات أو الأزهار الغضة؟ لكن الأزهار، التي ذبلت في قلب الإنسان، ما زالت تحيا، يفوح عطرها في كل الدنيا، ويرى لونها كل الناس. كم هي رائعة وسحرية الثمار، التي تنضج في قلب الإنسان؛ إنها تمنح الروح الخلود وترفعها نحو الأعلى!

من ناحية أخرى، هناك تركيبة من العقول، حيث لا يمكن أن ينمو فيها شيء سوى الرغبة في إلحاق الألم والضرر للقريب، وذلك عن طريق دس السم في الأزهار وفي الثمار، مما يسبب جرح الآخرين بفكرة، بالكلمة وبالفعل – وهكذا جرح أصعب من وخز الشوك. وهناك مَن تكون كلماته وأحاسيسه كالذهب والفضة، وآخرون – أفكارهم كالحديد والفولاذ. إن التنوع الكثير للطباع البشرية يبلغ حداً، بحيث يصعب على جميع أنواع المادة في العالم الطبيعي أن توازيها.

إن الإنسان بطبعه، بخصائصه، بجسده، بأفكاره وبمشاعره، يحمل إرثَ لا الأرض وحسب، بل والسماء. فالإنسان معرض لتأثير الكواكب، الشمس والقمر، الحرارة والبرودة، الهواء، الماء والنار، وغير ذلك من العناصر، التي تتألف منها منظومة المجرات. يمكن اكتشاف جميع هذه العناصر في أفكاره وأحاسيسه، في جسده. يمكن مصادفة شخص دافئ كممثل لعنصر النار، أو شخص بارد يمثل الماء. أما الثالث فيمثل الهواء بمشاعره وبأفكاره: سرعتها، ديناميكيتها وعدم استقرارها – شواهد على حضور عنصر الماء في الإنسان.

ألا يعكس الإنسان، في طبعه الإيجابي والسلبي، الشمس والقمر؟ ألا تشهد على ذلك ثنائية الجنس؟ في كل رجل وفي كل امرأة توجد خصائص شمسية وقمرية، تحقق التوازن في الطباع. عندما تهيمن واحدة منهما، وتغيب الثانية عملياً، فإن الطبع يفقد التوازن.

إذا تعمق أحد ما في جوهر الصوفية، فإنه سيكتشف أن الإنسان لا يتضمن الخواص الظاهرية وحسب، بل وكل ما هو غير مرئي. إذا كانت الملائكة، الساحرات، الأشباح وغيرها من الكائنات الأخرى، التي قد يتصورها العقل البشري، موجودة في مكان ما – فإن هذا المكان هو الطبيعة البشرية. خلال كل العصور كانت الملائكة ترسم في هيئة بشرية.

إذا كان كل ما هو كائن في العالم وفي السماوات يوجد في الإنسان، فما الذي بقي؟ الرب نفسه قال في كتبه أنه خلق الإنسان على شاكلته. بكلمة أخرى، لقد أعلن: " إذا كنتَ تريد أن تراني، فسوف تجدني في الإنسان ". كم هو مخطئ الإنسان حين يقوم، وهو منهمك بالمثال السامي، بمعاتبة وإدانة الإنسان، ويتطلع إليه من فوق إلى تحت! مهما يكن الإنسان صغيراً، ضعيفاً ومذنباً، دوماً تبقى لديه الإمكانية ليرتفع أعلى من شخص آخر، بكل جوانحه، سواء في الأرض أو في السماء. لن يستطيع بعد الآن أحد أو شيء أن يرتفع إلى المستوى، الذي تقرر أن يكون عليه الإنسان. لهذا، إن تلك الرؤية المتفق عليها عند الصوفيين والحكماء، قد تجلت في سلوكهم، الذي يحمل دائماً طابع الاحترام تجاه جميع الناس.

يمكننا على مثال حياة السيد المسيح التأكد من درجة المعاناة والتسامح، درجة الصبر والتفهم التي أبداها الرب تجاه المذنب، الذي وقف بين يديه. الإنسان، الذي يحتقر قريبه وابن جلدته، قد يكون مؤمناً أو رجل دين، لكنه لن يكون أبداً كما يجب روحانياً أو حكيماً، بغض النظر عن مكانته. الإنسان، الذي لا يحترم الإنسانية، هو غير مستعد لعبادة الرب. مَن لا يعرف صورة الله في الإنسان، مَن لم يرَ خالق هذا الإبداع، فقد اضاع قداسة، الأكثر طهراً. مَن يؤمن بأن الإنسان مجرد كائن دنيوي، ارضي، هو لا يعرف كيف نشأت روحه. الروح جاءت من الأعلى، وفي روح الإنسان بالتحديد ينعكس خيال الله. الإنسان، الذي يعيش مشاعر الحقد والاحتقار هو، بغض النظر عن دينه، لا يعرف اسرار جميع الأديان المؤتمن عليها قلب الإنسان. وبالطبع، مهما يكن المرء طيباً، فاضلا، متسامحاً ورؤوفاً، هو لن يعتبر رجل دين، ما لم يتعرف على الله في الإنسان.

يوجد جانب آخر لهذه المشكلة. إن الإنسان، وهو يتطور، يلاحظ القيود والتحديدات، الأخطاء ونقاط الضعف في الطبيعة البشرية، لذلك يصبح صعباً عليه العيش في هذه الدنيا وتقبّل كل ما يجري له. ثم يصبح عسيراً عليه أن يكون خيّراً، طيبا، وصاحب واجب، وفي

نفس الوقت متسامحاً. يظهر ميلاً للتذمر والانعزال عن كل الآخرين. لكن الهدف من الوجود في هذه الدنيا لا يكمن في ذلك. بل في الوصول إلى الكمال، الموجود داخل الإنسان. قد يكون الإنسان جيدا، وطيباً، لكن ما لم يكتشف الهدف من وراء ظهوره إلى الدنيا، هو لا يكون قد حقق مهمته في الحياة.

إن الأهداف من الولادة متعددة وكثيرة كما هو عدد الناس في الدنيا، لكن الهدف الأسمى من بينها كلها، يمكن اعتباره الهدف الأكبر من كل عملية الخلق. هذا الهدف يتم بلوغه حين يرى المخترع صورته في ابتكاره؛ حين يدخل المصمم إلى البيت، الذي شُيِّد وفق مخططه، ويرى كم هو جميل تنفيذه؛ يتحقق ذلك الهدف، عندما تعرض مسرحية على المنصة، بينما المؤلف يجلس في القاعة – هذا هو تحقيق هدفه. يوجد لدى كل إنسان هدفه الخاص، لكنها جميعها – مجرد درجات نحو الهدف الوحيد، الذي هو هدف الرب. إذا تحققت رغباتنا الحالية، ستظهر لنا غداً رغبات جديدة، مهما تكن الرغبة التي تحققت اليوم، غدا تظهر رغبة جديدة. هذا يبين لنا، أن كل البشرية متوجهة نحو رغبة واحدة، التي هي هدف الرب: العمل، قدر المستطاع، على معرفة أكثر كمالا للحياة الداخلية والخارجية، وتوسيع الأفق قدر الإمكان – بحيث ينعكس كل شيء في الروح، التي صارت اشمل من العالم، بحيث يكتسب النظر حدّة تسمح له باختراق حجب الأرض والسماوات. هذا هو الهدف الرئيسي للروح، والروح التي لا تفعل كل ما يجب وتضحي بكل ما يلزم، لن تتعرف إلى الدين. ما هي رسالة التصوف؟ إنها مدرسة ايزوتيرية، تمارين وعمل مدى الحياة، مكرّس من أجل بلوغ الهدف – الهدف الإلهي.

التطور
Evolution

هناك جانبان بخصوص تطور الإنسان في مختلف الممالك. الأول – الجانب البيولوجي. تمكن ملاحظة، كيف أن مملكة الحيوانات تولد من مملكة النباتات عبر أشكال الميكروبات، الديدان والحشرات. اطرادا مع تطورها يتم استعمال المادة من قبل منظومات أكثر تطوراً، ولهذا هي، أي المادة، تتطور أكثر. لكن قانون التطور معقد. على العموم، إن المادة تتطور باتجاه الحالة الأفضل والأكثر حداثة.

و ها هو يظهر الإنسان الفطري. لقد عجز العلم الحديث عن إيجاد حلقة الوصل بين الإنسان والقرد، لكن كانت هناك أعراق كثيرة سبق أن ظهرت وانقرضت؛ حتى في أيامنا هذه بقيت بعض تلك الأعراق، التي تعيش في مناطق نائية وغير مكتشفة من قبل العلماء. إذن، على الرغم من أن العلاقة لم توجد بعد، فإن هذا لا قيمة له. في النهاية، يوجد بهذا الخصوص ليس فقط نظرية علمية، بل وصوفية. الفرق هو أن النظرية العلمية تشرح الأمر ببساطة وبشكل مباشر، بالرغم من أنها تعجز عن تحديد الحقيقة الثابتة، في حين أن النظرية الصوفية تدرس الموضوع بصورة عامة، مانحةً إياه مسحة أسطورية وشاعرية. لنتذكر، بالمناسبة راما وجيش القردة ، حيث كلمة " قرد " تستخدم بسبب غياب مفهوم آخر يصلح لهذه الحلقة المفقودة في سلسلة التطور.

لكن هذه العملية – ليست الوحيدة. يجب النظر إلى كل جانب من هذا الموضوع من زوايا مختلفة ؛ إذا لم يبحث الموضوع من زاويتي نظر على الأقل، فإنك لن تتخلص من الصعاب في سبيل فهمه الكامل. لنراقب الفخاريَّ (صانع الخزف) : إنه يخلط الصلصال، يلونه

ومن ثم يصنع منه مختلف الأوعية. طالما يوجد لديه احتياطي كاف من الطين بألوان مختلفة، فهو لن يضطر إلى بدء العمل في كل مرة من الحصول على الطين، ثم خلطه وتلوينه. هكذا هو الأمر في ممالك الطبيعة: النبات ينشأ من مملكة النبات، والإنسان يولد من الإنسان.

إذا نظرت إلى هذه القضية من الزاويتين، فسوف تقتنع أن كلتا العمليتين ضروريتان. مثلاً، هناك أساتذة متخصصين في تحضير الألوان ، وهناك الرسامون. وظيفة بائع الألوان – أن يحوز على مختلف العناصر وأن يخلطها، ليحصل على اللون المطلوب. أما الفنان فهو ليس مضطراً للقيام بذلك؛ هو يستلم الألوان جاهزة من البائع. بكلمة أخرى، لا توجد ضرورة كي يعبر كل فرد من خلال ممالك الحجارة، النباتات والاشكال الأخرى للخلق، أي لا حاجة للقلق أبداً.

إن الله يمنحنا تنفيذ رغباتنا في حالتين مختلفتين. أولاً، عندما يكون قلبنا حراً من أية أفكار ومشاعر، ويعيش حالة السكينة والاستقرار. في هذا الوقت، كل رغبة يمكن أن تنشأ لدينا، هي أشبه بالبذرة المزروعة في التربة الملائمة. وإذا كان لدينا ما يكفي من الصبر والقوة كي ننتظر ونثق في السلطان العظيم للرب، فإن رغبتنا ستتحقق مهما كانت ومن كل بد. ثانياً، هذا يحصل عندما نكون راضيين وسعداء بالمطلق. كل ما يمكن أن تشتهيه سيتحقق في هذه الفترة – تماماً مثلما المطر يُنضِج الثمار و الأزهار في الوقت المناسب.

إذا كان موضوع معين هو ما تبحث عنه الروح، وموضوع آخر مرتبط بتلبية الحاجيات اليومية، فمن الأفضل التضحية بهذه الاخيرة واختيار ما تميل إليه الروح. لكن، من ناحية أخرى، هذا لا يعني أنه علينا أن نصبح غير دنيويين، إذا أردنا أن نكون روحانيين. نحن بإمكاننا، بالفعل، أن نعيش في هذا العالم، وفي نفس الوقت لا نكون أرضيين.

كل شيء في الكون له نقيضه: الشمس والقمر، الرجل والمرأة، الليل والنهار. الألوان، كما الأشكال، تختلف بين بعضها بحكم تنوعها. كي نميز شيئاً ما، يجب أن نرى نقيضه. كل ما ليس له ضد، لا يمكن أن يكون مميزاً. لكي تكون الصحة، علينا أن نميزها عن المرض.

في الأيام الغابرة سعى الكثيرون لمساعدة خيال الناس، الباحثين عن الخير، عن طريق زرع في نفوسهم الإيمان بالشيطان، والتأكيد على أن الله هو كل الخير في الكون، والشيطان – كل الشر. كان يحدث ذلك لتوضيح مصدر الشر لمن لا يعرف. أما الواقع، أن الشر – عبارة عن ظل للخير،

ليس أكثر. وكما أن الظل لا يمتلك كياناً مستقلاً، فإن الشر هو أيضاً لا وجود له. الخير يتحرك دوماً للأمام، وما يبقى في الخلف هو أيضاً خير لكن بدرجة أقل. وما يتقدم في الأمام – خير بدرجة أكبر. لكن حين نقارن شيئين، نحن ندعو أحدهما شريراً، والآخر – خيِّراً. لذلك، إن الناس قد أطلقوا اسم الشيطان على كل الشر في العالم، واسم الله، الذي يجب الإيمان فيه، على كل الخير. لقد كان هذا أسلوباً بسيطاً لتعليم الناس القدامى. بينما في الواقع، إن الله فوق المقارنة، بالرغم من أن الكثيرين منا يوازنون بين الله وبين شيء ما، عندما ندعوه بالطيب. وما هي طيبتنا الخاصة؟ إنها قليلة للغاية. هي لا تصلح أساساً للحكم على الله.

إن تطور الإنسان هو عبارة عن المرحلة، التي تعطي عندها الحياة من حولنا الجواب على أسئلتنا. سواء كان يوجد في مجتمع الكائنات الحية أو منفرداً مع الطبيعة، نائماً أو يقظاً، فإن الجواب على سؤاله يأتي كما لو أنه الصدى بالضبط. كما أن بعض الآلات تخدم كمأوى للريح، إذ تحولها إلى صوت، كل شيء يتحول إلى مأوى لأية فكرة من أفكار الحكماء، إذ تساعدها في الانتشار، وفي هذا الانتشار يوجد الجواب. عملياً الجواب موجود سلفاً في السؤال نفسه. فالسؤال لا يوجد بشكل مستقل عن الجواب. إنما التصور المحدود للإنسان يجعله يتلقى الحالة بحيث يرى السؤال ولا يرى الجواب.

كما أن لجميع الأشياء أضدادها، صحيح أيضاً أن في كل تناقض يوجد روح التضاد. في الرجل توجد بعض صفات المرأة، في المرأة – يوجد روح الرجل؛ في الشمس يوجد شكل القمر، وفي القمر – ضوء الشمس. كلما اقترب المرء من الواقع، كلما صار أقرب إلى الوحدة. هذا يبين لنا أنه ما لم يكن السؤال صادراً عن القلب، فإن الجواب لن ياتي على شكل صدى من الداخل أو من الخارج. إذا كنا ننظر للأمام، فالجواب أمامنا؛ وإذا نظرنا إلى الوراء – الجواب وراءنا، إذا كنا ننظر إلى الأعلى – الجواب ينتظرنا في السماوات، إذا نظرنا إلى الأسفل – فالجواب محفور في الأرض. وإذا أغمضنا العينين، فسوف نجد الجواب بداخلنا. يمكن مقارنة ذلك مع صعود جبل باسم "لماذا؟". عند بلوغ القمة نفاجأ بالمثال وجهاً لوجه. ليست الدراسة هي التي تقود إلى فهم ذلك. يتم بلوغ ذلك عن طريق الارتقاء فوق كل ما يعرقل إيماننا في الحقيقة.

دوران الروح في أوعية الطبيعة

إذا ما تفحصنا الطبيعة في هذا العالم الشديد التنوع، فسوف نصل إلى نتيجة مؤداها أنه خلف التعددية تختبئ حياة واحدة وحيدة، مصدر وغاية كل الأشياء. هذه الحياة يمكن تسميتها الدم الكوني، الذي يدور عبر أوردة الطبيعة. يمكن اعتبارها مادة و روحاً؛ هي شيء ما موجود في كل شيء ، والعقل بأكمله قد تشكل من أجل تواجده في الحالة الحية، الفاعلة. هذه الحياة بالتحديد هي التي نقصد بها العقل.

إن العقل (Mind) الكلي ، الذي غالباً ما يتم الخلط بينه و بين الإدراك (Intellect) ، إنما هو موجود حتى في أحط المخلوقات. يمكن إيجاده في النبات والإحساس به في قلب الصخرة. غالباً يعتقد أن الإدراك – هو نتيجة التطور المعبر عنه في الحياة البشرية كعقل ، وأن الكائنات السفلية لا تملك هذا العقل ، و أن العقل هو الشكل الأكثر تطوراً، كذا، للمادة، المرتبطة بالدماغ. لكن المتصوفين عبر جميع العصور ، وكذلك الأنبياء أصحاب النفوس الخاشعة يقولون : كل ما كان ، ما هو كائن وما سيكون، هو هو ذات الجوهر من الحياة، الذي لا يتبدل ولا يتطور. المرحلة الأخرى من التطور تجعلنا قادرين على الفهم وتمنحنا الإحساس بأن العقل هو عبارة عن نتيجة تطور المادة. إن الأشخاص العظام ، الأرواح الذين انعزلوا في الصحارى والغابات وتعايشوا مع الطبيعة المحيطة بهم هناك، قد أدركوا هذه الحقيقة، هم كثيراً ما شعروا بالهارمونيا العظيمة، بالسكينة وبالسمو الروحي بالضبط هناك، حيث لا توجد حياة حقيقية. الحياة هي عبارة عن العقل في كل مكان، وكلما تعايش الإنسان مع الحياة، كلما أحس أنه حتى الحجر ليس محروماً من الحياة، وأن فيه أيضاً تدور دماء الكون. عندما ننظر

إلى الحياة من وجهة النظر هذه، نحن نرى أنه لا يوجد فيها مكاناً، ولا شيئاً، لا يمكن اعتباره مقدساً؛ إذ في الحجر أيضاً يمكن أيجاد أصل وغاية كل الأشياء في صيغة محددة.

إن الكثيرين ممن يفهمون عالم النباتات، يعرفون كم هي النباتات تستجيب لاهتمام وملاطفة الشخص، الذي يعيش بقربها ويعتني بها. ثابت أن النباتات تتنفس، وبما أنه يوجد تنفس في حياة النباتات، فلا بد أنه يوجد العقل أيضاً. سنحت لي الفرصة برؤية حجر كان صاحبه يدعوه بالسحري، على الرغم من أنه كان حجراً عادياً بكل ما للكلمة من معنى - فقط كان يبدل لونه وبريقه، خصوصاً عندما يلتقطه شخص ما. هذا يعني أنه حتى الحجر يستجيب لعقل الإنسان، وهذا بدوره يعلمنا أن في مملكة المعادن هناك الكثير جداً ما يحتاج للدراسة. هذا الاكتشاف ليس ابن اليوم، بل عرفه البشر منذ القدم. ففي القصائد الفارسية يعتقد جلال الدين رومي، أن الإله ينام في مملكة المعادن، يغفو (يستلقي إنْ صحَّ التعبير) في مملكة النباتات، يكتسب الإدراك في مملكة الحيوان، ويدرك ذاته في الإنسان.

لكن هذه الحياة المتوحدة إنما هي تصبح واضحة بصورة أكبر في البشر، في إدراكهم، في نشاطهم، في المقدرة على مغنطة الغلاف الجوي، في الطاقة الصادرة عن أفكارهم، في قدرتهم العلاجية. على الرغم من أن كل شخص منفصل عن الآخر، بالرغم من غياب علاقة ظاهرية بينهما، من الممكن أن نتلمسَ تأثير الأفكار والمشاعر عبر المسافات. أثناء الحروب كثيراً ما يحدث، أن أمهات وزوجات الجنود يشعرن بآلامهم، بمعاناتهم وبموتهم، أنهن يشعرن بتعاستهم بدون أية وسائل اتصال. كثيراً ما يحدث، أن الناس القريبين من بعضهم البعض يكونوا قادرين على التنبؤ عن حالة بعضهم ليس فقط عن طريق الموجات الذهنية، بل وفي مجال المشاعر أيضاً؛ هذا يبين أنه يوجد جسم واحد تدور فيه حياة وحيدة كما الدم في الأوعية.

من هنا ينطلق التفسير المنطقي لقانون السبب والنتيجة. فالإنسان، الذي يفعل السوء ربما يتجنب العقاب الأرضي، لكنه لن يستطيع تجنب تلك الحياة الوحيدة، التي فيها يعيش، يتحرك ويفعل. أما الإنسان، الذي يفعل الخير تجاه الآخر، قد لا يلتقيه مطلقاً. لكن الخير لا بد سيعود على الإنسان، لأن الجسد - وحيد والحياة - وحيدة. كذلك هو الأمر مع ظاهرة

الدوران في العالم الفيزيائي: جلّ ما نتناوله في الطعام يجري امتصاصه في الدم، هكذا كل فكرة من أفكارنا، كل كلمة وكل فعل يؤثر على الحياة الوحيدة.

كثيراً ما يشكك الناس ويسخرون من خرافات معينة. هم يتساءلون، كيف يمكن قراءة الماضي، الحاضر والمستقبل بواسطة أوراق اللعب. لكن هذه، كما هو علم الفلك أو التنبؤ بمساعدة البللورة السحرية، يمكن تفسيره بوجود حياة واحدة وحيدة، تدور وتنبض باستمرار، بوجود الموسيقى الوحيدة، الايقاع الوحيد. ويجب على الإنسان أن يعرف فكرة القطعة الموسيقية لكي يستطيع سماعها وفهمها.

يمكن معرفة الماضي، الحاضر والمستقبل ليس فقط عن طريق أوراق اللعب أو البللورة السحرية، بل وبواسطة مجموعة من الوسائل الأخرى. لو كان بإمكاننا الدخول في احتكاك مع وعاء واحد فقط من الحياة الواحدة، لكنا بذلك دخلنا في تفاعل مع المنظومة الوعائية لكل المجرة. بعض الوسائط أسوأ، بعضها الآخر أفضل، لكن يمكننا عبر أي وسيط أن نبلغ الفهم، وهذا يبرهن أنه وراء الكل تختفي حياة وحيدة. قد يكون الإنسان تربى على السلوك الحسن، قد يكون تعلم الصدق، لكن جميع هذه الفضائل ستفرض عليه كنتيجة لتعليم معين؛ بينما الفضيلة الحقيقية تنشأ من تلقاء ذاتها كنتيجة لفهم الحياة الوحيدة، وهذا يربط ذاك الشخص مع صديقه كما مع عدوه. لقد علمنا السيد المسيح أن نحب أعداءنا، لكن بما أنه قد يصعب علينا أحياناً محبة أصدقائنا، لذلك لن نتمكن من محبة أعدائنا، ما لم ندرك سر الحياة الوحيدة، المخفية خلف الكل، بغض النظر عن كون العالم المتنوع يخلق الأوهام باستمرار.

إذا كان هذا الفهم قد تم عن طريق الدين، الفلسفة أو التصوف، فإن الإنسان يلامس بذلك أسرار الحياة ويكتسب قوة عظيمة من دون أية طقوس سحرية. ليس صعباً تقبل هذا الدرس عن طريق التثاقف، بل يجب ابتلاعه كاللقمة دفعة واحدة، لكن هذا غير كاف. من أجل هضم هذا الطعام قد لا تكفي الحياة بأكملها، لأن الحقيقة تختلط مع الوقائع، وعندما تتحول الحقيقة إلى واقعة، فإنها تفقد أهميتها. ونحن مشغولون بعالم التنوع، فقد اكتسبنا الميل إلى نسيان الحقيقة، لأننا غرقنا في التفاصيل. لذلك، إن الأشخاص الذين يكرسون جل

وقتهم للتدريبات، يحاولون التركيز على وحدة الكون وأن يتأملوا الحقيقة الرئيسية للوجود . هذه يشبه تعبئة الساعة : تصرف دقيقة لأجل ذلك، بينما الساعة تعمل يوماً بكامله . نفس الشيء أثناء التدريب : تجيء فكرة، وفي كل ما يقوم به وما يقوله الإنسان هو يستخدم تلك الحقيقة بذاتها .

كم هو كبير حجم الضرر الناجم عن عدم فهم هذه الحقيقة! إن جميع المصائب : الحروب، الفيضانات، الزلازل، الجوع والمآسي الرهيبة الأخرى، التي يعجز الإنسان عن التحكم بها — تنتج من اضطراب النشاط في جسد المجرة . عندما يكون الدم مريضاً ، فإن كل شيء يجري بشكل سيئ، وبالرغم من أنه يبدو ، كما لو أن ما هو مميت للبعض هو مفيد بالنسبة للآخرين — هو مفيد ، لكن على مدى فترة زمنية طويلة من الواضح أنها تعاني جميع أجزاء الكل . النتائج تنعكس على العالم ككل في صيغة ألم، توتر ومختلف أشكال المعاناة .

لو حاولنا صرف الانتباه عن عالم الأوهام، لو نظرنا إلى الأعلى وطلبنا من الرب أن يكشف لنا السر والغموض عن إبداعه، فسوف نسمع في الجواب، أن كل شيء وكل كائن موجود في مكانه، وأن كل شيء مشغول بتنفيذ الجزء المخصص له من العمل، الذي يجب أن تنجزه الطبيعة ككل . الحياة — هي سيمفونيا ، ونشاط كل كائن فيها — هو تنفيذ الدور الخاص في هذه السيمفونية .

أثناء الحروب يتم استدعاء الناس إلى الجيش وبمعزل عن مهنتهم، عن كفاءتهم وعن القواعد الاخلاقية لكل منهم هم مدعوون إلى حيث هم ضروريون أكثر . هذا يوضح أنه في البداية كان يجب الإصغاء إلى " صوت الضرورة " . إذا كان التزام السكينة يقدم خدمة ما إلى المفكر ، فإن ذلك هو إدراك هذه الفكرة بالضبط . المقولة : أن المعاناة هي نتيجة للذنوب في الحياة السابقة، يمكن أن تخفف عن العقل المتسائل والمناقش، وللحظة تردعه عن الانتفاض، لكن هل هي قادرة على إطفاء الألم، الذي تبعثه التعاسة في القلب؟ هل إن هكذا عقل سيسامح يوماً ما الربَ، الذي عاقبه بمثل تلك القسوة؟ يمكنه أن يعترف بأخطائه السابقة، لكن هل سيستطيع يوماً ما أن يؤمن بالله كإله للحب والرحمة، كإله للرأفة والغفران؟

لو أن الله مفصول عن الإنسان، لو أنه كان يفرح لمآسي الإنسان، لكان بمقدور الإنسان أن يُنْكِرَ هكذا إله. لكن الصوفي يدرك، أن الله هو المعاناة وهو المُعَذَّب، لكن في نفس الوقت هو أرفع من جميع العذابات. من أجل فهم ذلك لا يكفي الإيمان بالله، بل ومعرفته أيضاً. إذا أفلتَ من أيدينا حمل ثقيل، سقط على أقدامنا وجرحها، فهل لنا الحق في لعن أيدينا؟ كلا، لأنها هي أيضاً تعاني من الألم، مع أنها جرحت القدمان فقط – لكن الجسم كله يشعر بالألم، وليس الساقان أو اليدان فقط.

نفس الشيء يمكن سحبه على الرب: حيواتنا – هي أيضاً حيواته، وهو يشاركنا كل إحساس بالفرح أو بالألم، بالرغم من أن كينونته المثالية ترفعه عالياً فوق الأفراح والمآسي الأرضية، في حين أننا، نحن المحدودين بعدم كمالنا، نخضع لتأثير جميع الأفراح وجميع الآلام، حتى التافهة.

غالباً ما يسأل الناس، لماذا يجب على الإنسان أن يعاني ويضحي بشيء ما في سبيل الرب. عندما تكون التضحية قد أنجزت، والمعاناة مضت، فإن الإنسان يكتشف أنه، وإن قام بذلك من أجل الله، قد فعل ذلك خدمة لنفسه في النهاية. فقط الإنسان الأناني بشكل غبي هو الذي يكون أنانياً بالفعل. أما الأنانية العقلانية فتتحقق عن طريق إثبات الذات أو إدراك الذات، وقبل كل شيء يجب على الإنسان أن يدرك نفسه ويكتشف مما هو يتألف. يتكون الإنسان من روح ومادة. هو يحتوي بداخله عوالم المعادن، النباتات والحيوانات، وكذلك عالم الملائكة وعالم الجن؛ ومهمته تحقيق التوازن بين جميع هذه الأجزاء، دون أن ينسى أنه قد خلق لا ليكون روحانياً كالملاك أو ماديا كالحيوان. وإذ يتوصل الإنسان إلى الوسط الذهبي فإنه سيكتشف بالتأكيد الطريق، الذي يجب أن يسير عليه والذي سيقوده مباشرة إلى الهدف. " الأبواب ضيقة، والدرب أيضاً ضيق " – ضيق لأن كل خطوة منحرفة إلى جانب تبعد عن طريق الحقيقة إلى الطريق الموازية. التوازن – هو النوتة المفتاحية لبلوغ الروحانية.

إن روح كل ما هو مخلوق واحدة، والحياة، التي تخترق الأشباح والأطياف المتحركة إلى ما لانهاية، هي أيضاً واحدة. التفكر بهذه الحقيقة والتنبه إليها يشكلان المدخل نحو حالة

التناغم في العالم. حين تبدأ الروح إدراك الحقيقة فهي تولد من جديد ؛ كل ما يبدو حقيقياً بالنسبة لهكذا روح، يبدو كاذباً بالنسبة للانسان العادي، وما هو حقيقي للروح المتنبهة، يكون بلا قيمة بالنسبة للانسان العادي. ما تحسبه الروح العادية هاماً وثميناً في الحياة، هو بلا قيمة ولا معنى له بالنسبة للروح المتنبهة. بهذه الطريقة، الإنسان مع هكذا روح سيجد نفسه وحيداً حتى وسط الحشد، الذي يوجد في عالم مختلف عن العالم، الذي يعيش هو فيه. تصور أنك تعيش في عالم، حيث لا أحد يتكلم لغتك ! ومع ذلك، إن هكذا إنسان قادر على العيش في هذا العالم، لأنه يعرف لغته، بالرغم من أن العيش في الدنيا هي بلا فائدة بالنسبة له، كما هو العيش بالنسبة للكبير في عالم الأطفال، الذين يلعبون مع العرايس.

من وقت لآخر يأتي إلى هذه الدنيا الأنبياء ومتصوفون عظام، مثلما يأتي الطبيب إلى المريض ليساعده في استعادة عافيته المتدهورة؛ وحين يأتي العظام، فإنهم يجلبون إلى العالم حياة جديدة، فيساعدون الجسم الكوني على العمل أفضل. لقد عاش الصوفيون دائماً كروحانيين Mystics، مكرسين حياتهم للتدريبات وللتمارين الروحانية. فما الذي حملوه منها؟ لقد وعوا جوهر كل ما هو حي، وحدته؛ بالضبط عن طريق التفكر بالوحدة، إدراكها، والعيش فيها يمكن للإنسان أن يحقق هدفه في هذه الحياة.

القدر و الإرادة الحرة

غالباً ما يكون ، أن الذين يؤمنون بالقدر هم لا يؤمنون بالإرادة الحرة. إن الإنسان ، وبعد أن تمكن من تحقيق النجاح في عمله، يبدأ الاعتقاد بأن نجاحه كان مجرد نتيجة للعمل وحسب، أي أنه يوجد مَن يعتقد أن النجاح هو نتيجة العمل، ولذا هم يعتقدون بأن كل ما هو موجود يمتلك إرادة حرة، وبالتالي فإنهم يحققون النتائج الطيبة طبقاً لما قاموا به. بينما آخرون يعتقدون أنهم مهما عملوا لن يحققوا النجاح. عندئذ ينشأ عند الإنسان إحساس بان هناك ما يعيق نجاحه، فيبدأ الظن أنه يجب أن يكون هناك ما يسمى القدر، وأنه هو الذي يكبح نجاحه. كثيرون يعتبرون الجبرية نوعاً من الكسل وأن الاعتقاد بالقدر هو مجرد خرافة، لكن هناك آخرون يرحبون بالإرادة الحرة كنظرية، كفكرة، لكنهم مقتنعون في أن العالم يخضع في الواقع لتحكم المصير أو القدر.

و مفهوم الإرادة الحرة غير خال من المغزى، و الإيمان به يعطي نتائج محددة في الحياة. في نفس الوقت، إن فكرة المصير عميقة جداً، وبغض النظر عما إذا كان الإنسان يؤمن بها أم لا، فإنها ستبقى جذابة دوماً. أولئك الذين يستطيعون التنبؤ بالمستقبل لا بد يجذبون مَن يعتقد بالقدر ومَن لا يشاطرهم ذلك. الصنف الأول يأتيهم مع إيمان، الثاني – مع ابتسامة، لكن هؤلاء وأولئك يجيئون إلى المتنبئين، لأن ما يقوم به هؤلاء ينطوي على سرٍ عظيم. كل إنسان يهتم قبل أي شيء بحياته الخاصة، التي هي عبارة عن سر وغموض – غموض أكثر جاذبية وعظمة، من كل شيء آخر في الأرض. لن يقول أحد : " لا يهمني أن اعرف حياتي، لا يهمني لأنه كان عندي هكذا ماض نتج عنه حاضري ومنه سينشأ مستقبلي ". إن الحصول على أجوبة لهذه الأسئلة – هو أهم رغبة جامحة لكل واحد.

حين تفكر بالمصير، يطرح نفسه السؤال التالي: هل يوجد خطة معدة سلفاً وبالتالي كل شيء يحدث في الدنيا طبقاً لها؛ وإذا كانت توجد هكذا خطة، فمن وضعها وعلى أية أسس؟ إذا كان الرب هو الذي أعدّها، فالى أية درجة يمكن إلقاء المسؤولية عليه عن كون واحد صار سعيداً، وآخر – تعيساً، واحد – عظيماً، والآخر – تافهاً؛ عن أن واحد يفرح، بينما آخر يعاني، مع أنهما يعيشان تحت شمس واحدة ويمشيان في أرض واحدة؟ إذا لم يكن سبب كل شيء في القدَر، بل في السلوك البشري، فهل تؤثر التصرفات في الماضي على الحاضر، وإذا كان الجواب نعم، فلأية درجة يتحمل الإنسان المسؤولية عنها؟ هذه الأسئلة تجرّنا إلى الأسرار العميقة للحياة. لو استطعنا الإجابة عليها، لكنا وجدنا الحل لأعظم إشكالية فلسفية.

يكتشف المتصوف سر الحياة عن طريق امتلاك فن تصميم الخطة الحياتية بما يتفق مع أهوائه ورغباته. لكن من أجل بلوغ هكذا مستوى عليه بداية أن يتخلى عن خطته الخاصة. بالنسبة للإنسان، الذي لا سلطان له على خطته الخاصة، من الأفضل له أن يترك نفسه بين أيدي الرب. كلما كان الإنسان مرتبطاً أكثر بواضع هذه الخطة، كلما كان قادراً أكثر على أن يصممها هو بنفسه. هذا يشبه حالة الأم، التي لا تسمح لطفلها بالمشي لوحده، طالما هو لا يقدر على السير. حتى عندما يقوم بأولى خطواته تقوم الأم بمساعدته لكي لا يقع. عندما يمسك الإنسان زمام المسؤولية بيديه، معتبرا ذلك بمثابة إرادة حرة،، فهو كما لو أنه يفقد اعتماده على الرب، الاعتماد الذي سانده وجعل الله مسؤولاً. لذلك إن الإنسان المستنير بداية يقوم بتسليم ذاته لإرادة الرب، ومن ثم يطور ذلك إلى إرادة حرة لتصبح إرادته في النهاية هي إرادة الرب. ها هو الفرق بين سلوك المستنير وسلوك المعلّم: المستنير يخضع بالكامل لإرادة الرب، أما المعلم فيجد إرادة الرب في إرادته الحرة الخاصة به.

كثيراً ما نتساءل، لماذا الله – طالما هو موجود، طالما هو المحبة وبما أنه رؤوف رحيم – لماذا يسمح بأن يعاني الناس كثيراً لهذه الدرجة، كما لو أنه يعاقبهم لسبب ما؟ لكن هذا ينشأ بسبب محدودية رؤيتنا. لو أن عيوننا كانت مفتوحة ونظرنا أعمق إلى الحياة، لكنا فهمنا أنه لا يوجد أي عقاب. بل في كل شيء تُرى رحمة الإله، لكننا ندعو رحمته فقط ما نحن قادرين على فهمه وإدراكه. أما ما لا نستطيع فهمه وإدراكه، نحن نعتبره عقوبة. حين

يشتم الأهل الطفل أو يلاطفوه، ففي كل الأحوال الباعث على ذلك هو محبتهم لطفلهم ولا شيء آخر. قال طاغور: " حين تضبطني على نغمة عالية أكثر، أنا أشعر بالألم. لكنني اعرف، إلهي، أن الألم ضروري لكي تضعني على النغمة الصحيحة ".

عندما نتمكن من كبح اضطرابنا والوصول إلى السكينة وتسليم إرادتنا الخاصة إلى إرادة الرب، عندها نبدأ ربط محبة الإله إلى إرادة الرب، عندها نبدأ رؤية محبة الإله في كل شيء، دون أن نقع مطلقاً فريسة الضلال، كما لو أن الله يمكن أن يكون شيئاً آخر غير الحب. لهذا بالضبط نجد أن الصوفي لا يدعو الله، كقاعدة، بالمبدع، بالملك أو القاضي والحاكم، بل يدعوه المعشوق، العاشق والحب ذاته.

توجد لدى غالبية الناس قناعة مسبقة حول قضية ما، وهذه القناعة تحجب نظرهم كالجدار. بل إنهم لا يحاولون النظر أبعد قليلاً ويرضون بما يعرفون. لا شك، أن الإنسان يولد مع خطة جاهزة محددة، التي سوف تتحقق في حياته والتي لا تحدد فقط غرائزه، خصاله ومواهبه، بل وكذلك تقرر مجرى حياته بالكامل. يقولون في الشرق أنه بالإمكان قراءة حياة الطفل من خلال قدميه. حتى القدم الصغيرة للطفل تحمل إشارات تلك الخطة، التي يجب أن تتحقق في حياته.

توجد أسطورة تلقي الضوء على العلاقة المتبادلة بين القدر والإرادة الحرة. في يوم من الأيام عاش متنبئ. كان يخدم بواباً في بيت أحد الأغنياء. توجد في الشرق مقولة أن الطفل يولد فقط بعد أن ياتي الملاك ويرسم مصيره على جبينه. هكذا حدث، أن ذلك البواب كان شخصاً رائعاً، وعندما جاء الملاك لاقاه البواب عند الباب وقال له: " قف، إلى أين أنت ذاهب؟ أنا هنا السيد ولن أسمح لك بالدخول ما لم تخبرني مصير الطفل ". فقص الملاك له. هكذا تصرف البواب في المرة القادمة، حين ولد طفل في البيت.

بعد بعض الوقت مات الوالدان. كانا أغنياء في وقت ما، لكنهما أفلسا لسبب ما، بحيث أن الأطفال اضطروا لهجر البيت والبحث عن السعادة بأنفسهم، من دون أية مساعدة. عندئذ أخذ البواب العجوز على عاتقه أن يساعدهم، لكن الأولاد بمجرد أن كبروا تفرقوا في بلدان مختلفة.

وفي أحد الأيام قرر البواب أن من واجبه الذهاب ليرى كيف هم يعيشون. يجب القول أنه بالنسبة للمتنبئ لا يوجد ما هو أكثر متعة، من الاطلاع على الظواهر المادية لما قد رأى في داخله كرؤيا. إنها متعة بالنسبة له، حين يتحول كل ما رآه بداخله، إلى واقع مادي ويتأكد من حدوثه في اللوحة الخارجية. ليس هناك نشوة أكبر بالنسبة له.

إذن، انطلق البواب في الطريق و أخيراً وجد أول الشبان، الذي كان يعمل حوذياً ولهذا كان حزيناً جداً. قال للشاب: " لا يمكنك تجنب ذلك، كان مقرراً أن تصبح عربجياً. لكن سأقدم لك نصيحة، لأنه يصعب علي أن أرى كيف أن مَن كان في بيته ذاك العدد الكبير من الخيول، هو مضطر للعناية بأحصنة شخص آخر. خذ بعض النقود، اذهب إلى مدينة أخرى وحاول أن تعمل مدربا للخيول، وأنا واثق انك ستكسب الكثير. سأله الشاب: " أيمكنني أن أعمل شيئاً آخر؟ " فأجابه: " لا، هذا طريقك الوحيد. كنت ستعمل طيلة حياتك حوذياً لولا نصيحتي. لا يمكن فعل أي شيء، هذا هو الباب الوحيد المفتوح لك. افعل ما قلته لك، وستحقق النجاح ". تقيد الشاب بالنصيحة وحقق نجاحا هائلاً.

وجد البواب الفتى الثاني وسأله " كيف تعيش؟ "، فأجاب ذاك : " كيف أعيش؟ امشي أياماً كاملة في الغابة، اصطاد الطيور وأبيعها في المدينة، لكن هذا يكاد لا يكفيني للعيش ". في تلك الفترة ظهرت عند الحكام موضة أن يقتنوا في قصورهم الطير الملكي، الباز. فقال له البواب: " لا تصطاد الطيور ذوات الريش، فتش عن طير الباز فقط ". لكن الفتى احتج: " لكن إذا لم استطع التقاطها، فسوف أموت من الجوع! " فقال العجوز: " هل تذكر مَن كان أبوك، ومَن صرتَ أنت؟ " – " نعم، أنا اعرف، أنني ولدت سعيداً ". فقال البواب: " أنت ستصبح أكثر سعادة إذا سمعت كلمتي. عليك أن لا تغير شيئاً. ستبقى صياد طيور. لكن التقط طير الباز، وسوف تبيعها بملايين. ذاك هو الطير، الذي عليك اصطياده ".

هذه الحكاية تفيدنا في فهم تصرفات المتنبئ. فقد كان مرسوما خط حياة أولئك الشبان، وفي نفس الوقت كانت هناك إمكانية لحركة الإرادة الحرة، لكن ضمن حدود تلك الخطة المقررة. لو لم يعرفوا بتلك الفرصة، لكانوا اضطروا أن يعيشوا حياة بائسة. إنه درس عظيم، ومَن يستطيع فهمه، سيربح الكثير الكثير.

سَعْدي، الشاعر الفارسي العظيم، قال: "كل روح تولد لغاية معينة، ونور تلك الغاية مضاء في تلك الروح".

يؤمن الهندوس في أن البشر يولدون مع ما يسمونه الكارما[1] – التصرفات الماضية والانطباعات، التي تحملها الروح معها إلى الأرض كتأثير سيئ أو جيد، والذي يجب أن تحاسب عليه. لا شك، هناك بعض الحقيقة في ذلك التصور، ونحن كثيراً ما نرى البراهين عليه كما في الحالة، مثلا، عندما تفرض الظروف على الإنسان أن يكون خادما، كما لو أنه يدفع دَيناً لشخص ما. قد لا تكون لديه أدنى رغبة في أن يعمل خادماً، لكن في الوقت نفسه أن ذلك يتع على عاتقه، بحيث لا تبقى له حيلة. كما لو أن القوة العليا قررت له هذا الطريق، طواعية أو مرغماً هو مضطر أن يقدم كل وقته، أفكاره، عاداته وخدماته لشخص آخر.

في الوقت ذاته نحن نرى، كيف أن هناك أشخاص يحصلون على الجاه، الراحة، المحبة والارتباط بالآخرين، بغض النظر عما إذا كانوا يستحقون ذلك أم لا. هذا يبين لنا، كيف أنه على الرغم من وجود علاقة بين ما تأخذ وبين ما تعطي، فإن كل شخص يولد مع مهمات معينة. من الواضح أيضاً أن الإنسان، مهما كان قادراً وعظيماً، حين يوضع في شروط غير ملائمة بتاتاً، فهو لن يقدر فعل شيء إذا كان مقرراً له أن يعيش مشاكل محددة هي حتمية في هذه الحالة. وفي مرة أخرى – بالرغم من جميع العقبات، فجأة تُفتَح طريق في الحياة، بحيث لا نضطر إلى جهود كبيرة – كل شيء يسير من تلقاء ذاته. هذا يبرهن على وجود خطة، حيث توفر المهارة والفطنة لا يكفي لتحقيق النجاح. فهناك لحظات، عندما يكون مقدراً لنا أن نعيش حياة سهلة، النجاح في تحقيق الرغبات، وهناك مراحل نكون فيها مرغمين على العيش بدون ذلك، وليس في اليد حيلة.

1 – الكارما في اللغة السنسكريتية – تعني الفعل، العمل أو الأداء – واحد من المفاهيم الرئيسية في الديانات الهندية (الهندوسية، البوذية والجانيزمية).. ويقصد به المحصلة النهائية لنتائج الأفعال والتصرفات السابقة... وعليها تتحدد طبيعة الولادة الجديدة للإنسان (التقمص) – المترجم

ماذا يعني القدر – هل ما يولد معه الإنسان، أم هو – نتيجة لسلوكه في الأرض؟ إنه هذا وذاك. لنتخيل فناناً يخطط لوحة في البداية. يبدأ العمل ويشعر بالإلهام – تنشأ لديه رغبة بتغيير الفكرة الأولية. وهو يعمل عليها – يغيرها باستمرار لدرجة، أنها تصبح مختلفة نهائياً عن اللوحة، التي أراد تصميمها في البداية. لهذه الدرجة يمكن تغيير الحياة بواسطة تصرف ما. فالتصرف الصحيح ، التصرف الجميل يبعث قوة منتجة وإبداعية ويمكنه تقديم مساعدة أكبر بكثير مما نحن نتصور.

القضية تكمن في مدى استعداد الشخص لمساعدة نفسه. هناك جانبان مميزان للإنسان. أولاً، الكينونة الميكانيكية، عندما يكون شبيها بالآلة، التي تتحكم بها شروط الحياة، الانطباعات أو التأثيرات الخارجية والنجوم، والتصرفات الفردية الخاصة؛ كل شيء يسير وهو يعمل بشكل ميكانيكي، وطبقا لذلك تتغير حياته. هو غير متحكم بظروفه، هو مجرد أداة للتأثيرات. كلما كان هذا الجانب أكثر وضوحاً، كلما كان الإنسان أقل تطوراً. إن هذا عبارة عن مؤشر لدرجة متدنية من التطور. لكن هناك جانب آخر في الإنسان – خلاّق، يوضح كيف أن الإنسان ليس فقط جزء من الرب وحسب، بل هو مرتبط مع الله، لأن " اناه " الحقيقية هي جوهر الذات الإلهية. لذلك لا تندهشوا للقصص عن الحكماء، المعلمين، القديسين والأنبياء، الذين كانت أوامرهم تؤثر على الفضاء وكانت تتحرك حشود البشر وفق إرادتهم. لا يوجد ما يدهش في ذلك. ظاهريا الناس متساوون في المقاييس، لا يوجد بينهم مَن هو بارتفاع الجمل أو بحجم الفيل. فهم خارجيا لا يختلفون كثيراً. لكن من الداخل، لا تمكن مقارنة الناس بعضهم مع بعض من حيث عظمة الروح، لا يجوز مقارنة المقدرة على الفهم عند أحدهم مع الاخر. واحد يمشي، آخر يركض، الثالث يطير، الرابع يزحف، مع انهم جميعاً يسيرون على أرض واحدة، كلهم يعيشون تحت شمس واحدة وكلهم يدعون بشراً. لكن، لا يوجد شخص لا يحتوي ولو بريقاً من بعض القوة، أو محروماً من إمكانية تغيير ظروف حياته عن طريق إظهار إرادته الحرة – يلزم إدراك مضمونها فقط. عدم فهم الإنسان لذلك بالضبط يجعله مجرد آلة.

أما المصير فيمكنه أن يتغير ليس تحت تأثير التصرفات الخاصة فقط، بل وتحت تأثير أفكار الآخرين. لقد شاهدت أمثلة كثيرة، حيث أن الأمّ المحبة لم تكن راضية عن سلوك طفلها، الذي راح يكبر ليس كما كانت تتمنى. وهذا كان يجعله دوماً غير موفق. كان يمكن للطفل أن يصبح شخصاً ناجحاً بكل المقاييس، أن يتحول إلى عالم متميز، لكن بما أنه لم يحقق أمل والدته، فإن ذلك كان كافياً لكي يعيش إخفاقات دائمة. أن الدراسة المتأنية تساعد في فهم كيف أمكن لذلك أن يحصل، لكننا منذ الطفولة الباكرة نكون مشغولين بحياتنا الخاصة وباهتماماتنا، بحيث لا نكترث لتأثير أفكارنا ومشاعرنا على الآخرين.

الإنسان الثري، الذي يكون غير راض عن خادمه ويخاطبه بخشونة ويعاقبه، قد لا يدرك في حينه كم هو حساس هذا الخادم، المرتبط به والذي أوجدته الظروف عنوةً في هذا المكان. لكن عندما يأتي هذا الثري إلى مكتبه ويباشر العمل، هو قد يصبح ضحية التأثير المنعكس لتلك الوخزة، التي أصاب بها روح الخادم. بل إنه قد لا يعرف عن ذلك. كان واثقاً أن الخادم، الذي أهانه ليس قادراً على فعل نفس الشيء له، لكن الجزاء لا بد سيأتي من شخص آخر، دون أن يدري الظالم أن هذه العقوبة هي جزاء تلك الحماقة. كلما فكرنا بذلك، كلما صار واضحاً لنا، كيف أن الله يتصرف من خلال كل ما هو حي، بما في ذلك الحيوانات والطيور. وحين نصبح قادرين على الإيمان بذلك، لن يبقى لنا سوى أن نؤمن بكلمات بوذا: إن جوهر الدين هو عدم إلحاق الأذى. لا تضرّ الآخرين - لا يعني الامتناع عن القتل وحسب. إن الكثيرين سبق وقتلوا من دون قتل؛ لكي تميت شخصاً ليس من الضروري أن تقتله. النظرة، الكلمة، الفكرة - كل منها يمكن أن تقتل لدرجة تصبح الحياة معها أسوأ من الموت.

هذا ما قصدته بالضبط حين كتبت في " الحيان Hayyan ": " قدماي الحافيتان! سيرا بحذر في طريق الحياة، كي لا تتذمر الأشواك من أنكما تدوساها ".

لا توجد حدود للاحترام، عندما يبدأ المرء التفكير بذلك. إذا كانت توجد أية ديانة في ذلك، فإنها تكمن في احترام تلك المشاعر، التي يمكن أن تكون مجروحة في لحظة غفلة. إذا

كان هناك مكان، حيث يقيم الرب، فهذا المكان هو قلب الإنسان. إن الملامسة الخاطئة للقلب تترك تأثيراً على المصير ككل. حتى أننا لا نتصور كيف أن المشاعر الغريبة يمكنها تغيير مصيرنا؛ هي قادرة على التأثير في مصيرنا أكثر من مشاعرنا الخاصة. والإنسان يتمنى لنفسه الخير فقط، إذ لا أحد يريد أن يكون تعيساً.

هناك أيضاً تأثيرات كوكبية. ما هو دورها وكيف هي تؤثر علينا؟ الجواب هو أن الإنسان بحد ذاته يشكل كوكبا أيضاً. وكما هي الكواكب مرتبطة بعضها مع بعض، الكواكب أيضاً مرتبطة مع البشرية. بالطبع، إن أي تغيير في حالة الكوكب له تأثيره في حياة الإنسان. يمكن السؤال: أيعقل أن الإنسان صغير لدرجة أن تمارس الكواكب تأثيرها عليه؟ نعم، إذا حكمنا من ناحية المظهر، فالإنسان ظاهرياً صغير كما القطرة في المحيط. إذا اعتبرنا المجرة هي المحيط، فالإنسان سيكون هو القطرة. لكن من وجهة نظر العالم الداخلي إن المجرة هي القطرة في محيط الإنسان – محيط قلبه. كتب الفيلسوف العظيم أحمد آصفي[1] Asefi: "يا جهلي، في اليوم الذي ستتراجع أنتَ فيه، فإن قلبي سيكون مفتوحاً وسيكون الكون كله مجرد فقاعة في محيط قلبي".

إن المحدودية، التفاهة وعدم الكمال هي من محصلات الجهل. لكن حين يفتح القلب، فإن الكون كله يدخل فيه، وبالتالي إن أصل المصير، لغزه وغموضه يكون في قبضة الإنسان. إذن، بأي شكل يتوجب الإيمان في القدر وفي حرية الإرادة؟ إن السبيل الأفضل للأيمان في المصير – هو الاعتقاد في أن جميع المآسي، التي مرّت ما هي سوى جزء من المصير وهي تتبع الماضي، و الإيمان في أننا أحرار منها. و أفضل وسيلة للحكم على الإرادة الحرة – الاحتفاظ في الذهن أن كل ما يجري، كل ما هو أمامنا – عبارة عن نتيجة للإرادة الحرة، أن تحتفظ في المقدمة بالتركيز على أن لا شيء سيئ سيصيبك وأن كل ما هو جيد ينتظرك في الأمام. من الخطأ التفكير بأنه ينتظرنا فقط كل ما هو سيئ، إن القدر يحفظ الكارما خاصتنا ليهلكنا بالمآسي، مقرراً العقاب

1- احمد آصفي – حوالي ١١٠٥ – ١١٦٦ شاعر صوفي ومبشّر من آسيا الوسطى. من أعماله ديوان أشعار روحانية " المكنون " الذي ترك أثراً كبيراً على تطور الأدب التركي – المترجم

طبقاً للكارما. مَن يعي الكارما بهذا الصيغة، ذاك سيدفع فوائد عالية؛ كلما شعر الفرد بالكارما أكثر، كلما توجب عليه دفع فوائد مرتفعة.

و أخيراً، يصل الإنسان إلى قناعة ، أن الإرادة التي تتبلور في جميع الأشياء وفي جميع ظواهر الحياة، إنما لها جانبان: إذا أهمل الإنسان المشيئة الإلهية، بالطبع، فإن إرادته البشرية ستخسر، وبالتالي سيلقي نفسه في الصعوبات، لأنه يسبح ضد التيار. في تلك اللحظة، عندما يعمل الإنسان بالتوافق، بالانسجام مع المشيئة الإلهية، فإن كل شيء عنده سينجح.

يمكن الاحتجاج، بأن الحياة لم تكن سهلة بالنسبة لهكذا شخصيات عظيمة كالسيد المسيح. منذ الطفولة كانت مليئة بالمتاعب: اضطر الأهل للهرب إلى الصحراء ، ثم، بعد أن ظهر بين الناس، أصبحت الحياة أصعب. إن جميع القديسين والحكماء العظام عاشوا حياة صعبة ، لم يكن سهلاً عليهم أي شيء. لكن، هل هم ساروا ضد القدر، ضد إرادة الرب؟ بهذه الطريقة نحن نتوصل إلى اعتقاد، كما لو أن إرادة الرب تصطدم بالعوائق عندما تترجم إلى واقع. قيل في الإنجيل: " لتكن مشيئتك في الأرض كما هي في السماء " — لكن في الأرض إرادة الرب لا تحكم بسهولة كما في السماوات.

إنه درس عظيم بالنسبة لنا، وفحواه يكمن في أنه توجد إرادة تمارس عملها بوعي، وهناك إرادة تعمل بلا وعي . و إن العمل الواعي هو عمل إلهي . يمكن أن يحدث، أن الإرادة الربانية قد تصطدم بالصعوبات، لكن في تلك الصعوبات دوماً يوجد مغزى بالنسبة لها. بكلمة أخرى، ليس مهماً، هل هذا نجاح أو فشل بالنسبة للرب، بالنسبة للإرادة الإلهية هذا غير مهم، لأن كلا النتيجتين بمثابة نجاح بالنسبة للرب؛ وغير مهم أيضاً ربح أو خسر الإنسان، لأن كلاهما فشل بالنسبة للإنسان.

إذا تمكن الإنسان من تحصيل كمية أكبر من الثروة والجاه أو تحقيق مكانة اجتماعية أعلى، فعلى ماذا سيحصل هو في النهاية؟ سيترك كل شيء لشخص آخر، الذي سينزع كل شيء من يديه. لذلك ليس مهما أن نحقق الربح أو الخسارة في الحياة، لكن إذا كان فردياً، ففي النهاية سيكون فشلاً. لكن في حالة الأشياء الإيمانية، سواء كانت نجاحاً أم فشلاً، ففي

نهايـة المطـاف – هـذا دومـاً نجـاح. ولا يمكـن أن يكـون غـير ذلـك، هنـا وارد النـصر فقـط. Nanak[1] قـال: "حبـة القمـح، الـتي تجـد ملجـأ في قلـب رحـى الطـاحون – سـتنجو". هكـذا الإنسان، الذي يحرص على القرب من الله. هو يتسلم قوته وإلهامه من الرب، وإذا سارت حياة الإنسان طبقاً لهما، فعلى الرغم من كل المعوقات سيكون الطريـق دائمـاً سـوياً وسـيوصـل في النهاية إلى حيث يجب.

1 - Guru Nanak ١٤٦٩ – ١٥٣٩ – فيلسوف هندي، روحاني وشاعر، مؤسس ديانة السيخ. أنشأ وقاد طائفة السيخ. وقد تم ضم أشعاره إلى الكتاب المقدس للطائفة. – المترجم

الدافع الإلهي

إنَّ أول سؤال يطرح نفسه عند تناول الموضوع : ما هو الباعث الإلهي ومن أين ينشأ كل باعث ؟ كل حركة ، كل اهتزاز، كل دافع له مصدر. الإنجيل يلمح إلى ذلك، حين يعلن أن "الكلمة كانت الله" (" في البدء كانت الكلمة " – المترجم). الكلمة هنا تعني الاهتزاز، والاهتزاز يعني الحركة.

الاهتزاز – هذا أولاً ، هو نقطة البدء لبراهما ، المبدع . كل دافع، كل فعل وعلى أي مستوى من صيرورته يستمد بدايته من مصدر واحد . جاء في القرآن حول ذلك: " الله على كل شيء قدير ؛ لا حول ولا قوة إلا بالله " . كل ما يحدث إنما يحدث بأمر من عنده.

طالما أن جميع الكتب السماوية تتفق في ذلك، فمن أين ظهر الشيطان؟ ما هو القصد من قوة الشيطان؟ يفترض أنه توجد قوة أخرى إلى جانب قوة الله، واحيانا تكون هذه القوة، التي تنسب إلى الشيطان أكثر عزماً من قوة الإله. هذا يضع الكثيرين في مأزق. شرحَ ذلك يعتمد على فهم الميتافيزيقا وقوانين الطبيعة. هناك قانون واحد – القانون الطبيعي ؛ كل ما يحدث طبقاً لهذا القانون، يتخذ أشكالاً تناغمية. الجنان، التي أنشأها الإنسان، قد تبدو للوهلة الأولى إنجازاً بالمقارنة مع الطبيعة المتوحشة الفطرية. لكن في نهاية المطاف يبدأ عندك إحساس، كما لو أن تنظيمها الاصطناعي ينقصه التناغم والجمالية. الإلهام، الذي يمكن الحصول عليه في الغابة، بالقرب من المدينة، أعمق وأقوى مما في الحديقة، التي خططها الإنسان ؛ حيث الإنسان يمتلك امكانيات محدودة للالهام بسبب كون الحياة، التي يدرسها الإنسان محدودة. يبتكر الإنسان القانون، ثم يكتشف أنه لا يستطيع الالتزام به، فيخترع

قانوناً جديداً دون أن يبلغ الرضى مطلقاً، لأنه لا يتقيد بالقوانين الطبيعية للسلام والهارمونيا .

يقال أن الطبيعة قاسية. هذا صحيح، لكن الإنسان أكثر قسوة بكثير من الحيوانات. الحيوانات لا تحرم على الإطلاق أحداً ما حياته بنفس القسوة، التي بها يفعل الإنسان. كل القسوة الظاهرية للطبيعة هي لا شيء مقارنة مع قسوة، فظاظة ولا عدالة الإنسان . قال السيد المسيح : " لتكن مشيئتك " . يجب أن تعلمنا هذه الكلمات الكثير . الإنسان يغير العالم، الذي يعيش فيه بما لا يتفق مع إرادة الرب وقوانين الطبيعة، وبالتالي لا تكون إرادة الرب قد تحققت. تلك الصلاة تعلم الإنسان أن عليه أن يبحث عن معرفة وفهم المشيئة الإلهية. بالنسبة للطيور والحيوانات ليس ضروريا البحث عن معنى المشيئة الإلهية، لأنها تتحكم بها الدوافع الفطرية؛ هي أقرب إلى الطبيعة من الإنسان. لكن الحياة البشرية قد ابتعدت عن حياة الطبيعة، بحيث أن صار ينال كل حركة بصعوبة. نحن لا ندرك ذلك في الوقت الراهن ؛ وعلى الرغم من كل معارفنا نحن نجعل حياتنا أعقد أكثر فاكثر، ولذلك اضحى الصراع حاضراً أكثر و أكثر . لقد أصبحت الحياة بالنسبة لكل إنسان – عجوز أو شاب، فقير أو غني – عبارة عن صراع قاسٍ، لأننا رحنا نبتعد أكثر عن الدافع، الصادر مباشرة عن المصدر الأساسي لجميع الدوافع.

من وجهة نظر ميتافيزيقية، تتحكم بشروط الحياة البشرية إيقاعات خاصة، تدعى في الفيدانتا[1] : ساتفا[2] Satva، راجْس[3] Rajas وتاماذ[1] Tamaz . – هذا الأخير هو إيقاع

1- الفيدانتا – باللغة السنسكريتية " نهاية الفيد " – منظومة فلسفية روحية في الهند، التي تكرست كمدرسة لتفسير المضمون الخفي للاوبانيشاد (مجموعة الأساطير حول خلق الكون، حول الطبيعة والإلوهية، حول العلاقة بين الروح والمادة وعن طبيعة النفس البشرية والايغو) وهي تعتبر من اكبر التيارات الدينية والفلسفية في الهند. الهدف من الحياة حسب الفيدانتا هو " التحرر " وبلوغ التساوي بين الاتمان والبراهما – المترجم.

2- الساتفا – تعني الطهارة أو النقاء في اللغة السنسكريتية – واحدة من ثلاثة اجزاء الطبيعة – وهذه هي التظاهرة الأعلى للروح في المادة – المترجم

3- رادجاس- صفة الاتساخ، الحماس والنشاط، واحدة من الصفات الثلاثة في الفلسفة الهندية. إنها تمثّل الشكل والتغير – المترجم

فوضوي، مدمر، وكل باعث ينطلق من الإنسان في حدود هذا الإيقاع سيؤدي إلى نتائج تخريبية. أما الدافع الصادر عن الإنسان، الذي يعمل على إيقاع الراجْس، سيكون بالتأكيد إيجابياً. لكن الباعث، الذي يسببه إيقاع الساتفا فهو يحمل الإلهام ويكون متناغماً مع إيقاع الكون.

إن الحياة النشيطة للإنسان لا تترك مجالاً كبيراً للتركيز ومن أجل تهيئة العقل والجسد للحالة، التي يمكن فيها اختبار الإيقاع المسبب للإلهام، وبالتالي الإلتقاء مع مشيئة الرب. هذه التجربة يمكن أن تحصل كاستجابة لصلاة السيد المسيح، التي سبق وذكرتها أعلاه: " لتكن مشيئتك في الأرض كما هي في السماء ". عندما يبلغ العقل والجسد هكذا حالة، فإن الإنسان يوجه نفسه على موجة معينة متناغمة ومتسامية، وفي ذلك البناء تكون مشيئة الله نافذة بيسر كما في السماء. وفي هذا الإيقاع فقط يمكن لمشيئة الرب أن تتحقق.

إن الشخصيات الروحانية العظيمة عزلت نفسها في الغابات والجبال ليس من باب الرفض للعالم وللدنيا، إنما لكي تنتظم على الإيقاع، الذي يسمح لها معرفة السماوات. السماوات – ليست عبارة عن بلد أو قارة، إنها الحالة الداخلية، التي نشعر بها فقط حين يكون الإيقاع الداخلي مثالياً ويعمل بلا تعطل. مَن يفهم ذلك، سيفهم أيضاً أن الإنسان نفسه هو المسؤول عن سعادته الخاصة. الإنسان هو العدو لذاته؛ هو يبحث عن السعادة في الاتجاه الخاطئ ولذلك لن يجدها أبداً. أنه وهم لا يتوقف. الإنسان يفكر: " لو أنه كان لدي هذا وذاك فقط، لكنت أصبحت سعيداً للأبد " – لكنه لا يصير سعيداً إطلاقاً، لأنه يسعى خلف الوهم، وليس وراء الحقيقة. فالسعادة موجودة فقط في داخل ذاتك، وإذا ما توجه الإنسان بشكل صحيح، فإنه سيجد في داخله كل ما تتمناه الروح، روحه.

1- التاماز – صفة الظلمة في اللغة السنسكريتية، الإتساخ والكسل وكذلك الجهالة. إنها الأدنى بين الدرجات الثلاث – المترجم.

إن طبيعة كل دافع تكمن في أنه يمر عبر ثلاث مراحل؛ وبمجرد أن يخرج فإنه يتحقق كنتيجة، جيدة أم سيئة، مفيدة أو مضرة. لا يوجد دافع يكون سيئاً بعد ولادته على الفور، بلا فائدة أو غير متناغم، لأن لكل دافع، طبقاً للحسابات البعيدة، مغزاه المحدد. نحن نحكم عليه من زاوية نظرنا الضيقة، في حين أن العدالة، التي تكمن خلف كل شيء، هي مكتملة لدرجة أن النتيجة النهائية تضع الأمور في نصابها الصحيح. وبما أن لكل بداية هدف، والنهاية هي الجواب على السؤال، فإنه لا البداية ولا النهاية، بل فقط من خلال عملية التطور سيمر الدافع عبر ما سيصبح صحيحاً أو غير صحيح. هذا موضوع ميتافيزيقي، وتجب مناقشته من وجهات نظر مختلفة، لكي لا يحصل التباس. فالإنسان مع معارفه المحدودة يكون مستعداً للإدانة أو الابتهاج، وفي آلاف وآلاف الحالات هو لن يحكم بشكل صحيح. هذا ما أدركه جميع القديسين العظماء، الذين بلغوا صحوة العقل والاستنارة. يعلمنا المسيح: " لا تدينوا.. " عندئذ يجيء الإنسان إلى التسامح، وعندها سيدرك ماذا يقف وراء الدافع، وبالتالي نادراً يتكلم.

بدايةً إن الدافع يسمو إلى مجال المشاعر، حيث إما يترسخ هو أو يتفتت. والإحساس يمكن أن يكون أي منها: المحبة أو الكراهية، الطيبة أو الحقد، – لكن في كل حالة يبلغ فيها الدافع هذا المجال، هو إما يكتسب القوة للسير نحو الأمام أو يتدمر. مثلاً، ربما توجد في شخص ما صفة الطيبة العظيمة، لكن حين ينهض عنده الشعور بالثأر، فإن هذا الدافع ينتهي قبل أن يتحول إلى واقع مادي. قد تكون ميزة الخيبة عند شخص آخر قوية، لدرجة أن دافع التسامح سيتحلل قبل أن يلامس العقل. بل أنه لن ينتج فكرة العدالة لأن الشعور بالمرارة سيدمره. أو، إذا نشأ في شخص حاقد دافع الخير، فإنه سيتدمر قبل أن يبلغ مملكة الوعي – المرحلة الثانية، التي يجب أن يعبرها في تطوره. إذا، مع ذلك، ارتفع إلى هذا المستوى، فإن الإنسان يبدأ التفكير: " لماذا عليّ أن أساعد؟ لماذا يجب أن أسدي خدمة؟ هل يستحق الشخص الآخر ذلك؟ هل سيكون ذلك في صالحه؟ هل هذا صحيح؟ ". جميع هذه الأسئلة تجري مناقشتها في فضاء العقل. وفي المرحلة الثالثة يبلغ الدافع مملكة الفعل. إذا رفض العقل هذا الدافع فهو لن يتابع مسيره، أما إذا باركه العقل، فإنه يرتقي إلى حقل الممارسة ويتحول إلى نتيجة.

يمكن أن يُسأل، كيف أن الحكماء والمفكرين قادرون على تمييز الدافع الإلهي عن مجموعة الدوافع الأخرى، التي تظهر في قلب الإنسان. قبل كل شيء يجب فهم ماذا يقصد تحت مفهوم " إلهي ". هذه الكلمة تعني حالة الكمال، التي يدركها الله من خلال الإنسان. بكلمة أخرى، عندما يبلغ الإنسان مستوى من التطور، يستطيع معه تأدية دور مثالي في أيدي الرب، حين لا يكون شيء ما في كيانه عائقاً على طريق الدافع المباشر، النابع من الداخل، فإن هكذا كائن يمكن أن يدعى مثالياً. هذه هي القيمة الأساسية، وأن هدف الحياة البشرية يكمن في ذلك، أي أن يبلغ الإنسان تلك الحالة من الكمال، حين يصبح معها أداة مثالية في يد الرب.

عندما يبلغ الإنسان هذه الدرجة، فهو في البداية يدرك الله في لحظات محددة؛ ثم، حسب التطور، يطول هذا الإدراك أكثر، أما أولئك الذين تقدموا أبعد فإنهم يقضون القسم الأكبر من وقتهم في عملية المعرفة. إن مشاعرهم وأفكارهم لن تعود تحجب الدافع الإلهي، بل هو سيرتفع بحرية ليكتشف مشيئة الله. إن رسالة الأنبياء والمعلمين في كل الأوقات كانت تُعلّم البشرية الاتفاق مع الإله. إذ أن تنفيذ الغاية الحياتية يتبلور في الوصول إلى حالة التناغم مع الله، وهذا يتحقق فقط عن طريق المقدرة على تحديد الدافع الإلهي.

يمكن تمييز الدافع الرباني عن أي دافع آخر، تماماً كما يمكن في الموسيقى التمييز بسهولة بين النوتة المغشوشة وبين الصافية، بين الصوت الأصيل وبين التشويش (Dissonans). هذا يتعلق بتمرين الأذن فقط. الإنسان، الذي يمرّن سمعه، يلحظ حتى أبسط صوت غير مناسب. كلما كان الموسيقي أكثر موهبة، كلما كانت أعلى قدرته على تمييز الهارمونيا Harmony عن اللاهارمونيا Disharmony، والنوتة الصافية عن المغشوشة. يعتقد الكثيرون، أننا ندعو شيئاً ما صحيحا أو غير صحيح، جيداً أو سيئاً، فقط وفق ما اعتدنا عليه أو ألِفناه. هذا واقعيٌ بالنسبة للحق وللباطل، اللذين أوجدهما الإنسان، لكن كل طفل يمتلك حس التمييز بين الحق والباطل. الطفل يشعر على الفور بالاهتزاز المضطرب. هو يشعر، هل متناغم محيطه أم لا، بينما الإنسان الناضج يربك نفسه لدرجة، بحيث أنه يفقد المقدرة على التمييز الواضح. أن يتعلم المرء القدرة على التمييز من تلقاء نفسه – نجاح باهر وعظيم في طريق الروحانية. إذا

كان واضحاً للإنسان أي إحساس يختبر هو عند كل دافع، فهو قد تقدم كثيراً. غالباً ما يقول الناس، بعد أن يأتوا عملاً سيئاً: " يؤسفني ذلك " – لكن فات الأوان جداً، بالتالي هذا ليس " تدريباً صحيحاً للأذن وللسمع ".

إن الدافع الإلهي مليء بالمحبة؛ هو يمنح السعادة، إنه يصنع السلام. تكمن الصعوبة في أن ليس كل شخص يكون قادراً على التقاط لحظة ولادة الدافع، الغالبية ترى النتيجة فقط. هؤلاء هم أشبه بالسكارى ومع الوقت، كما يحدث مع السكارى، يشعرون بالارتباك والكبت، يصارعون ويعانون. لكن الإنسان لا يولد لهذه الغاية. هو يولد من أجل السعادة. السلام، المحبة، الطيبة والهارمونيا – كل ذلك عبارة عن أجزاء من كينونته، وإذا كان الإنسان تعيساً، فهذا يعني أنه أضاع نفسه ولا يعرف أين هو.

يتعطش الإنسان للأعاجيب، للتعامل مع الأرواح والأشباح. إنه يبحث دائماً عن كل ما هو معقد، في حين أنه لا يوجد في الحياة ما هو أكثر بساطة وأكثر قيمة، من أن يعرف حقيقة جوهره.

قانون الحياة

إن كل ما يتسلمه الإنسان إنما يحققه، في الواقع، هو بنفسه. أنا لا أريد أن أقول، أن الإنسان لا يمكنه فعل شيء ما، لا يمكنه خلقه، اكتسابه، استحقاقه أو تلقيه مصادفة. كل ما يحدث مع الإنسان، يمكن أن يأتيه بواسطة واحدة من تلك الطرق الخمس، لكن في ذات الوقت هو يبلغ كل ذلك من تلقاء نفسه. هذه هي الطرائق الخمسة – الحقول أو المجالات، التي من خلالها يمكن أن يأتي إلى الإنسان شيء محدد، لكن يبقى سببه الإنسان ذاته. هذه الفكرة الطيارة تبقى مخفية عن الإنسان، إلى أن يتمكن هو من الولوج في جوهر قانون الحياة ويطلع بوضوح على آليته الداخلية. مثلاً، حين يقال أن فلانا بلغ مرتبة عالية، مكانة مرتفعة، أصاب ثراء أو مجداً بعمله، فقد يبدو هذا صحيحاً من الظاهر؛ لكن آخرين كثر أيضاً يعملون دون أن يحققوا ذلك. رُبَّ قائل، أن برَكة العناية لإلهية تنزل على مَن يستحقها، لكن توجد في الحياة أمثلة كثيرة متناقضة، حين يكون النجاح من حظ ذاك، الذي لا يستحقه.

لكل مثال من تجليات المشيئة الحرة يوجد برهان على العجز المطلق للإنسان في جميع مجالات الحياة. بالمناسبة، ما يتعلق بموضوع الصدفة هناك الكثير من الاحتجاجات ضدها، لأن التعمق أكثر في قضايا الحياة يثبت أن ما قد يبدو صدفة هو في الواقع ليس كذلك، بل يبدو هكذا فقط لأن الوهم هو من طبيعة الحياة والأشياء.

كل روح، إنْ صحّ التعبير، تشق لنفسها الطريق دوماً نحو شيء ما، أحياناً بوعي، وأحيانا بدون وعي. إن التصرفات، التي يقترفها الإنسان في الجانب الشكلي للحياة، هي عبارة

عن صورة للفعل ولا تمت بصلة إلى النشاط الداخلي، الذي يمكن مقارنته بالرحلة. ليس كل شخص يدرك إلى أين يسير، لكن كل واحد يسير في طريقه الخاص؛ هل يسير إلى الهدف المنشود أم إلى الهدف، الذي لم يتمناه مطلقاً، فهو لا يعرف. لكن عندما يتم بلوغ الهدف على أرض الواقع، فإن الإنسان يعي ذلك ويقول: " أنا لم اعمل من أجل هذا، أنا لم ابتكر ذلك، لم اسعَ لأستحق هذا ولم اعمل على انجازه. كيف أمكن أن يحصل هذا؟ " إذا كان هناك هدف يتمناه الإنسان، فإنه ربما يمنح نفسه سلفةً لأجله ويحاول إقناع نفسه أنه سيحققه بهذه الطريقة أو تلك. أما إذا لم يكن يرغب بذلك أبداً، فهو يريد ربط ذلك بشخص آخر أو يعتقد أنه لسبب ما كان لا بد أن يحدث هكذا. في الواقع، مع نهاية الرحلة يصل الإنسان بكل بساطة إلى المكان المنشود؛ هو لا يستطيع الإدعاء بثقة أنه خلق ذلك، عمل على تحقيقه، استحقه أو استلمه بالصدفة. يمكن الجزم في شيء واحد فقط: سار الإنسان إلى ذلك، بوعي أو من دون وعي، وفي النهاية توصل إلى ما أراد. لهذا السبب بالضبط، ليس هناك شخص، بغض النظر عن خبرته، لا ينحرف عن الطريق إلى الهدف المنشود.

مهما يكن، فإن المهم — هو الربط بين الفعل الخارجي والإرتحال الداخلي، لأن الهارمونيا في ذلك الترحال ستكون، بلا شك، مصدراً للبساطة والراحة. هذا ما يُقصَد بالتحديد عندما يقال أنه يجب على الإنسان أن يكون منسجما مع ذاته. بمجرد أن تنشأ هكذا هارمونيا، فإن الإنسان يبدأ برؤية الأسباب الكامنة وراء جميع الأشياء بوضوح أكبر بكثير.

يطرح نفسه سؤال حول كيفية الحصول على الهارمونيا بين الترحال الداخلي والفعل الخارجي. في أغلب الحالات يحدث أن الإنسان يكون مُستغرقاً بالفعل الخارجي لدرجة تصبح معها علاقته الداخلية مع ما يحدث مخفيةً عنه. لذلك، يجب قبل كل شيء إزالة الشاشة، التي تحجب الموقف الداخلي عن الرؤية. كل شخص يدرك ما يقوم به، هو يعي حالته الداخلية، بكلمة، كل واحد يفهم ماذا يفعل، لكن ليس بالضرورة أن يفهم كل شخص إلى أين يسير.

دون أدنى شك، كلما أدرك الإنسان أفعاله بدرجة أكبر، كلما صار هذا الفعل أقل. على الرغم من أن الفكرة تضبط الفعل، فهي فقط تحدد الإيقاع والتوازن في الحياة. بالمقارنة مع ذاك، الذي يركض دون أن يعرف إلى أين يتحرك، فإن مَن يمشي ببطء ويعرف إلى أين يسير — سيربح أكثر.

لكل فعل جانبان مختلفان: هناك فعل الحياة الداخلية وفعل الحياة الخارجية – العالم الداخلي والعالم الخارجي. العالم الخارجي – هذا هو فعلنا الفيزيائي، والعالم الداخلي – هو موقفنا. كلاهما قد يكونا أفعال الإرادة الحرة، لكن من زاوية معينة كلاهما يكونان ميكانيكيين أو آليين. إن الفعل الداخلي يمتلك سلطة كبيرة على الخارجي ويمارس عليه تأثيراً مهماً. قد يكون الإنسان مشغولاً طيلة النهار بعمل ما، لكن إذا كان موقفه في هذا الوقت يعمل ضده، فإنه لن يحقق النجاح أبداً. قد يستحق الفرد مكافأة كبيرة على فعله الخارجي، لكن لن يستحقها على موقفه الداخلي، وإذا كان هذان الفعلان مناقضين لبعضهما البعض، فإن ذلك لن يؤدي إلى أية نتيجة بنّاءة، وبالتالي لن يتحقق الهدف المنشود. الهدف الحقيقي، النتيجة الفعلية المنشودة تأتي فقط عندما تتوفر الهارمونيا بين الفعلين. كما أن لهذه المشكلة جانب آخر – ميتافيزيقي. هناك نمطان لمعرفة الحياة – بواسطة الحواس وبواسطة الانقطاع عن الدنيا. الأفعال ترتبط بالإحساس وبالشعور، أما الانعزال – بالهدوء وبالسكينة. كلاهما له مكانه في الحياة، رغم أننا نظهر، بسبب مساعينا ومصالحنا اليومية، وكأننا منشغلون بالكامل من قبل الإحساس. أنا أفهم تحت مفهوم الإحساس كل انطباع يدخل إلينا عبر أعضاء الحس: هذا يتضمن التنعم بالنظر إلى شيء جميل، سماع الموسيقى، التمتع بالخطوط وبالألوان، استنشاق روائح ذكية، معرفة الحياة من خلال اللمس – حس اللين، الصلابة، الدفء، البرودة، وغيره الكثير. استجمامنا، متعتنا، إحساسنا بالراحة والتمتع، ممارسة الرياضة وأي نوع من النشاط خلال النهار كله – كل ذلك مرتبط مع الشعور. بينما الخبرة الأهم – الترفع، السمو والانقطاع – يتبين أنها منسية. الشكل الوحيد من الانقطاع المعروف بالنسبة لنا – هو الراحة والنوم، ونحن نرتاح وننام لأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً آخر. ربما إن الكثيرين ربما لم يريدوا الراحة لو كان بإمكانهم. في أحد الأيام قال لي صديقي المنشغل جداً من نيويورك: ليت اليوم كان مؤلفاً من ٤٨ وليس من ٢٤ ساعة فقط، لأن عليه أن يقوم بأعمال كثيرة للغاية، لكن الوقت لا يكفيه! أولئك، الذين يرتاحون – هم يقومون بذلك ليس بقصد الراحة، نفس الوضع مع النوم: نحن لا نستدعي النوم؛ نحن لا نستطيع فعل شيء حين يأتينا النوم.

نحن لا نفكر مطلقاً بما هو أهم شيء في الحياة – الانقطاع؛ وذلك لأن الإحساس – عبارة عن حركة، فعل، أي ما نحن نفضّل، بينما الانقطاع – هو غياب الحركة والفعل. إن عملية الإحساس يخلقها الإيقاع؛ وبالضبط سرعة الإيقاع هي التي تخلق المشاعر، إنْ صح التعبير. أما الانعزال فهو ليس كذلك، هو يعني السكينة، الصمت، الاسترخاء. والإنسان لا يهتم بتاتاً لذلك ما لم يعرف على ماذا سيحصل بالمقابل. جميع الأنبياء، المعلمون والقادة الروحيون في كل العصور علّموا فنّ الاسترخاء Relax، فن الهدوء بأشكاله المختلفة – سواء الاحتفالات الدينية، الممارسات الغيبية بصيغة الصلاة أو الصمت.

الظهور، الجاذبية، التخلّق والكمال

المطلق، سواء في حالة الظهور أو حالة عدم الظهور – هو العقلانية. وظهور هذه العقلانية بالتحديد هو ما نسميه النور، الحياة والمحبة. النور هو الشكل الأكثر كثافة للعقل. وكما الشمس هي مصدر ليس فقط القمر، الكواكب، النجوم، بل والنار، الشعلة، اللهيب وجميع التجليات الأخرى للنور، كذلك الروح العليا هي مصدر جميع جوانب الظهور. الشمس – هي مركز كل الضياء السرمدي.

إن النور، الذي انتشر في كل مكان قد بدأ وظيفته من نقطة واحدة، وبفضل ذلك أصبح ملتهباً، أكثر عنفواناً من الضياء، الذي بقي محصوراً في الفضاء. من جديد، إن ذلك النور ينشط في القمر، أما تياراته المختلفة فتنشط في الكواكب والنجوم. هذه هي اللوحة الحقيقية لأصل النشوء. إن النور المطلق للعقل قد كوّن نفسه في البداية ومن ثم، وقد أصبح روح الكون كله، بدأ بالتظاهر. هكذا الروح الكلية الرؤية، وقد ركزّت ذاتها في نقطة واحدة، صارت مصدراً للظهور المرئي وغير المرئي على السواء. لهذا إن الحكماء في كل العصور كانوا يركعون للشمس كرمز للإله، بالرغم من أن الشمس هي التعبير الخارجي للرب.

إن الدراسة المتأنية لنشوء الشمس وتأثيرها على كل شيء في الحياة سيساعدنا على فهم الروح الإلهية. الدفء، الإنارة الغازية والكهربائية، احتراق الفحم الحجري، المواقد، شعلات الشموع أو السراج – هذه التظاهرات المختلفة للنور تستمد مصدرها من الشمس. إن الشمس بالتحديد تظهر نفسها في جميع هذه الأشكال المختلفة، مع أننا في الأساس اعتدنا على اعتبار الشمس منفصلة عن جميع جوانب النور تلك. هكذا هي أيضاً الروح العلوية تتجلى

في جميع الأشكال، في جميع الأشياء والكائنات الحية، في العالم المرئي وغير المرئي، ورغم ذلك هي منفصلة عنها كما الشمس منفصلة عن الأشكال الأخرى للنور. جاء في القرآن: " الله نور السماوات والأرض " — وبالفعل، إن جميع الأشكال، بغض النظر عن كثافتها، هي إلى حدٍّ ما إشراقة لتلك الروح، التي هي نور كل شيء. والألوان المختلفة هي عبارة عن درجات مختلفة عن هذا الضوء نفسه.

للروح العلوية، مصدر جميع الأشياء، جانبان: جانب مسموع وآخر مرئي. في الجانب المسموع — الروح هي الكلمة، — هكذا في الإنجيل يدعى الصوت. الهندوس يسمونه نداء Nada. أن الروح العلوية في جانبها الفيزيائي هي النور، وفي الجانب الأدق — هي نور العقل، وفي جانب أكثر كثافة — هي إستنارة كل الأشياء والكائنات. الظهور — هو تعبير عن النور، الذي ينتشر في اتجاهات ثلاثة: وهذا هو الجوهر الحقيقي لمبدأ التثليث. الاتجاه الأول يشكل النور الذي يَرى، الثاني — النور المرئي، الثالث — النور، الذي يُظهِر الأشياء. بكلمات أخرى، إن العينين، التي تَريان الشيء موضوع الرؤية، والنور الذي يعطي العينين إمكانية رؤية الأشياء، كلها تشكل النور ذاته، الذي يعمل في الاتجاهات الثلاثة. هناك سورة في القرآن تقول: " أنا خلقت نورك، ومن نورك خلقتُ العالم ". بتعبير آخر، إن الروح العابرة لكل شيء تتكلم بجزئها المركّز: " بداية أنا خلقتكَ، ومنك أنا صنعتُ الكون. هذا هو مفتاح الخلق.

إن عملية الظهور تشبه إطلاق الشمس للأشعة. لماذا ترسل الشمس أشعتها؟ لأن هذه هي طبيعتها. يتوقع أن يُعطى نفس الجواب على السؤال، لماذا تكشف الروح العلوية عن نفسها. هذه هي طبيعتها. بمجرد أن يتجمع النور المطلق في نقطة واحدة لتتشكل الشمس، فإنها ترسل الأشعة. هكذا هو النور كلي الرؤية أيضاً — أرسل أشعته بمجرد أن اجتمع في نقطة وحيدة؛ وكما هي كثيرة أشعة الشمس، أيضاً هي كثيرة الأشعة، الصادرة عن روح العقل، بكلمة أخرى، الإله، الأنا الحقيقية. كل هكذا شعاع — عبارة عن نفس. كما الأشعة هي إظهار للشمس، البشر أيضاً — هم إظهار للرب. الأشعة تخترق كل شيء على مسافات بعيدة لكنها تحافظ على صلتها بالشمس.

مع تقدمها في الحركة إن أشعة العقل تلتقي في طريقها مختلف المستويات، أولها – المستوى الملائكي، الثاني – مستوى الجن، والثالث – المستوى الفيزيائي. وهل غادرت تلك الأشعة الروح المطلقة لتستقر في المستوى الملائكية، أم هي تركت المستوى الملائكي لتصل مستوى الجّن، أو غادرت مجال الجن لتأتي إلى المستوى الفيزيائي؟ كلا، هي عبرت جميع المستويات، وفي كل مرحلة كانت تأخذ من كلٍ منها ما استطاعت ، اطلعت على كل ما أمكنها معرفته، وجمعت كل ما كان يجب أن تجمع. وهي لا زالت تقيم في كل من المستويات الثلاثة، بالرغم من أنها لا تدري بذلك. هي تدرك مكانها فقط في ذلك المستوى، حيث " فتح الشعاع عينيه ". بمعنى آخر، ونحن نجلس في هذه الغرفة، إنما نرى فقط ما هو موجود أمام أعيننا، وليس ما يوجد وراء ظهرنا. هكذا، كل روح أبقت خلفها المستوى الملائكي ومستوى الجن، لكن أمام عينيها يوجد فقط المستوى الفيزيائي . لذلك هي تعي الحالة الفيزيائية فقط ولا تعي تلك الحالات، التي أشاحت نظرها عنها، مع أنها تبقي صلتها مع المجالات العليا حتى بعد ظهورها على الأرض. هي تعيش في جميع المجالات، لكنها تدرك بشكل أساسي واحداً فقط منها ودون أن ترتاب بوجود تلك، التي أدارت ظهرها لها. هكذا، إن الروح التي زهدت بالنعمة السماوية – ستتعرف إلى معاناة وتقييدات الحياة الأرضية. لم يُطرد آدم من الجنة؛ إنما هو رفضها، وهذا جعله منبوذاً من السماء.

أما الأرواح، التي فتحت عيونها كاملاً في المستوى الملائكي وتم جذبها، فقد بقيت هناك؛ نحن ندعو سكان هذا المستوى من الوجود بالملائكة. والأرواح، التي لم تفتح عيونها بشكل كامل عند هذا المستوى، إنما هي فقط عبرت منه وجذبها مستوى الجن، فبقيت هنا. والأرواح، التي تابعت طريقها إلى الظهور ووصلت المستوى الفيزيائي، وقد جرّها قدرها إلى هنا، فتحت عيونها في هذا المستوى وتحولت إلى بشر، فقد اكتسبت الحالة الأكثر حيوية من بين الجميع.

أحياناً يتم الحديث عن تلك المستويات كما لو أنها عبارة عن مكان هنا أو هناك. في الحقيقة، هي عبارة عن حالات، مع أن ما ندعوه مكاناً هو أيضاً حالة. فقط صلابة الظواهر

الفيزيائية تسمح لنا باعتبار هذا المستوى مكاناً، أما في الواقع هو مجرد حالة. لهذا بالضبط إن أولئك، الذين قد فهموا هذا يعتبرون عالمنا مجرد وهم.

كما الإنسان، الذي انتقل من أمريكا إلى أوروبا، ومن أوروبا – إلى الشرق، وقد جلب معه إلى أوروبا شيئاً ما من أمريكا، ثم أخذه معه إلى الشرق قادماً من أوروبا. هكذا هي كل روح تأتي إلى الأرض، تجلب معها بعض الشيء الملائكي وبعض الشيء من الجن، وفي حياتها على المستوى الفيزيائي يظهر ما حملته معها من هاتين الحالتين للوجود. البراءة، حبُّ الجمال، الرقة وحب الأغاني، الميل للعزلة، محبة الهارمونيا – كل هذا من علامات المستوى الملائكي. القدرة على الابتكار، موهبة الخلق، الثقافة، الميل للتفكر، الميل إلى العدالة واحترام القانون، الشاعرية والعلوم – تنتمي إلى عالم الجن. لذلك نحن نقول عمن نلاحظ لديه تلك المواصفات – " يا لها من موهبة " – إنه " شيطان ".

ترتدي الروح لبوساً ظاهرياً ولبوساً داخلياً أو باطنياً. وهذا ما يكسب الروح هيئة بشرية منتمية إلى المستوى الفيزيائي. غطاء يختفي تحت غطاء. قد يبدو أن كسوة حالة الجن يجب أن تكون صغيرة القياس، بالمقارنة مع المستوى الفيزيائي، و لبوس الملاك – أصغر بكثير لأنه يتوضع تحت لبوس الجن. لكن هذا ليس ضرورياً. لكي يكون الشيء مرئياً للعين البشرية يجب أن يكون ذو تردد معين من الاهتزازات. إن اهتزاز لباس الجن دقيق لدرجة، بحيث أن أعيننا الفيزيائية لا تستطيع رؤيته، على الرغم من كون لبوس هذا المستوى هو باطني بنفس درجة الظاهري. ليس بالضرورة أن تكون قياساته صغيرة كما هو جسدنا الفيزيائي؛ في الحقيقة هي أكبر بكثير.

نفس الشيء ينطبق على لبوس الروح في المستوى الملائكي ، ومن غير الضروري أن يكون صغيراً، بحيث لا يقدر تغطية لبوس المستويين الأخريين، بل بالعكس هو أكثر رقّة و أوسع. لكن العينين لا تقدران على رؤية هذا المستوى؛ إن اهتزازاته تتم بسرعة كبيرة، بينما نحن نستطيع رؤية الأشياء طبقاً لترددها فقط. لكن إذا كان شيء ما غير مرئي، فهذا لا يعني أنه بطبيعته غير مرئي، بل يعني أنه هكذا فقط بالنسبة لنظرنا. هذا غير مُدرَك فقط لأننا لا نستطيع رؤية ذلك كشكل، ولهذا لن نبالغ إذا قلنا أن الإنسان، ولأن روحه قد عبرت كلا

هذين المستويين، هو عبارة عن شيطان وملاك في نفس الوقت. هو لا يعرف ذلك، لكنه يبدي مواصفات هاتين الحالتين. إن نوعية المحبة لدى الإنسان، الشعور بالجمال، الفرح، الالهام الجامح – كل هذا عبارة عن تيارات، بالإضافة إلى براءة الطبيعة البشرية، يجيء من المستوى الملائكي. النقاوة في وجه الطفل تبرهن لنا، أن روحه جاءت للتو فقط من المستوى الملائكي. ابتسامة الرضيع، رقته، استعداده لتلمس كل الأشياء على أنها رائعة، حبه للحياة – كل هذا من علامات المجالات الملائكية.

بعد أن تمضي في الأرض فترة طويلة، إن الروح تفقد المواصفات الملائكية وتكتسب أخرى جديدة، بينما الرضيع يبدي ميزات ملائكية، والطفل عندما يكبر يُظهر صفات الجِن: هو يسعى لمعرفة كل شيء عن التسميات والأشكال، هو يطرح على والدته والمحيطين به بفضول كبير أسئلة حول كل ما يراه. عندما يعبر الإنسان هذه المرحلة، فهو يبدو وكأنه مملوء بالتعاسات، بالهموم وبالعجز.

نحن نلاحظ لدى بعض الناس تغلب الصفات الملائكية – هم وديعون، طيبون، بريئون، خيِّرون، يحبون الجمال و دائماً يسعون إلى الالهام العلوي. إذا درسنا بعناية الطبيعة البشرية، فإننا سنجد مجموعة كبيرة جداً من الأمثلة على الطباع الملائكية. في نفس الوقت، يوجد في الأرض عدد هائل من الشعراء، الموسيقيين، المفكرين المبدعين الكتاب والمخترعين، حيث تتغلب عندهم الصفات الشيطانية.

لماذا تأتي الأرواح إلى الأرض؟ ما هي الغاية من عملية الخلق؟ ما هو الهدف من هذا الظهور؟ تمكن الإجابة على جميع تلك الأسئلة بكلمة واحدة: الرضى – رضوان الرب. لماذا لا يكون الرب راضياً من دون ذلك؟ لأن الرب – واحد أحد، والرغبة الرئيسية للكائن – أن يبدأ إدراك ذاته. هذا الوعي يجرب الحياة عبر مختلف القنوات، في مجموعة من الأسماء والأشكال، ويبلغ هذا الوعي للهدف في الإنسان أعلى نقطة له. بعبارة أبسط، بالتحديد عبر الإنسان يختبر الله الحياة في أرفع كمالها.' إذا ما سأل أحد، ما هو واجب الإنسان تجاه هذا الهدف؟ سيكون الجواب: واجبه المقدس – هو بلوغ الإدراك المطلق، الذي هو دهارما

Dharma[1] بالنسبة له، هو دينه الحقيقي. لكي يقوم بواجبه، عليه، ربما، أن يكافح ضد نفسه، أن يعبر المعاناة والآلام، من خلال الاختبارات والتجارب، لكن، وهو يقدم التضحيات الكثيرة، وهو يمارس الزهد، هو سيبلغ ذلك الوعي، الذي هو إدراك الذات الإلهية والذي هو الكمال المطلق.

كما رأينا سابقاً، عند الدراسة المتأنية للطبيعة البشرية سيتبين وجود عدد غير قليل من الناس الملائكيين، وأولئك الذين مع صفات شيطانية. لكن الغالبية من البشر تبدي مواصفات إنسانية. هذه الأوصاف يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: صفات إنسانية بالتحديد، صفات حيوانية وأخرى شيطانية، وذلك حسب تردد الاهتزاز والإيقاع. الإيقاع الكثيف ينتج صفة شيطانية، الإيقاع المتوسط يظهر مواصفات حيوانية، والإيقاع الهادئ يظهر خواصاً إنسانية. يمكن توصيف سلوك هذه الإيقاعات كما يلي: السمة الإنسانية متحركة، السمة الحيوانية غير مستوية، والصفة الشيطانية – هي منحنية ومتعرجة.

معروفة في العلم ظاهرة الجاذبية المادية، التي تجبر كل شيء ينتمي للأرض على الانجذاب إليها. تماماً، بنفس الطريقة كل ما ينتمي للروح ينجذب إلى الروح. لذلك، الإنسان ينجذب إلى الأعلى وإلى الأسفل، علماً بقوة أكثر بكثير من أي كائن أرضي آخر، لأنه الأقرب إلى الروح. من جهة، الأرض تطلب جسده، من ناحية أخرى – الروح تدعوه إليها. إذا سمح الإنسان للجاذبية الأرضية أن تنتصر، فإن الجسد يقيد روحه إلى الأرض، أما إذا هو سلّم أمره للروح، فإن الروح ستجذب جسده إليها. بهذه الطريقة، الإنسان هو موضوع تأثير قانون الجاذبية من قبل السماء ومن قبل الأرض على السواء.

---

1 - دهارما – في اللغة السنسكريتية: ١ – واحد من المفاهيم المحورية في الفلسفة والديانة الهندوسية، الذي له عدة معان: القانون الأخلاقي الخالد (معادل المطلق)، الأنظمة الأدبية – الاجتماعية من أجل " الحياة الصحيحة " (الواجب) وفي هذا المعنى الأخير لكل شخص دهارماه الخاصة. ٢ – في البوذية: العناصر الاولية للكون وعناصر نفسية وفيزيائية لنشاط الشخصية. الدهارما أبدية، تظهر وتختفي بشكل دائم... المترجم

إن قانون الجاذبية يشبه ذلك القانون، الذي ينظم العلاقة بين الشمس وأشعتها. فالشعاع لا يغادر الشمس أبداً؛ خط بيانه يجعله يصدر، ثم يبتعد ليعود راجعاً إلى الشمس فيصب فيها. هكذا هو مسعى الروح. مهما ارتبط الجسد البشري بالأرض، مهما كان عقله مرتبطاً مع مجال الفكر، فإن الروح تسعى دائماً للابتعاد عن منشئها الأرضي. لكن بما أن الظهور الفيزيائي ينطق بصوت أعلى من كل شيء وأن العقل يصدر صوته الخاص، فإن الصوت الناعم للروح يظلّ غير مسموع.

كما سبق ورأينا، أن الروح، وهي تَعْبُر من خلال مستويات مختلفة للكينونة، تأخذ من كل واحد منها كل ما ينتمي إليه: خواصاً، ميولاً، أفكاراً، مشاعر، انطباعات، وكذلك الجسد، الجلد، العظام، الدم. لكن كل ما جمعته الروح أثناء ترحالها – عليها أن تعيده حين تنجز عملها، لأن جميع مكتسباتها قد أعطيت لها مؤقتاً ولهدف محدد. عندما يتم إنجاز الهدف يحين وقت يطالب فيه كل مستوى بإعادة ما سبق واستعارته الروح. لا يبقى للروح سوى أن تعيد ما أخذته. هذه العملية تسمى تماثلاًAssimilation. بما أن الإنسان يولد بخيلاً وأنانياً، فهو يتلقى ما يُعطى له بحماس وبرغبة كبيرة، لكنه يعيده مع تذمر، ويدعو ذلك موتاً.

إذن، التمثيل يعني إعادة تلك المادة الفيزيائية إلى التراب، التي كانت الروح قد استخدمتها على المستوى الفيزيائي. الجسد يتماثل مع الأرض، والروح تتحرر من ذلك الحمل، الذي حملته لتبدأ اختبار الحرية الكبيرة والانطلاقة. لذلك، إن الموت – عبارة عن تحرر الروح من القيود ومن الأسر العظيم.

إن الموت ليس سوى نزع أحد اللبوسات عن الروح وإعادة ذلك الغلاف إلى المستوى، الذي سبق وأُخذ منه، بينما الروح لا تستطيع أن تأخذ معها إلى المستوى الأعلى غلافاً من مستوى أدنى. الروح تتحرر عندما ترمي عنها بإرادتها أو قسراً هذا الغلاف الثقيل والقاسي. وهذا يحرر الروح من استمرار ترحالها وتنقلها. إن درب الروح، بعد تواجدها في مستوى معين، يتجدد ولهذا فهي مجبرة على إعادة ثوبها مرة أخرى لكي تتحرر منه في سبيل أن تتابع طريقها.

ليت الناس عرفوا ذلك، لكانوا نظروا إلى الحياة بطريقة أخرى. لكانوا فهموا أن مغزى الأخلاق في كونك لا تستطيع أن تبقي لنفسك ما هو ليس ملكك في الواقع. إذا درسنا هذه الفلسفة فسوف نتوصل إلى نتيجة مؤداها أن جسدنا ليس من أملاكنا. بل هو عبارة عن ملكية مستعارة، ويجب علينا أن نعيد هذه الملكية في اليوم والساعة المحددين. لهذا بالضبط، إن الحكماء يتبرأون من الجسد قبل أن يُضطروا إلى التخلي عنه. إن جميع التعاليم الروحانية، التي أعطاها المعلمون إنما ترمي إلى هذا الهدف: أي يجب علينا أن نتبرأ من جسدنا الآن، لكي لا نشعر بالألم عند فقدان ما نحن نعتبره أثمن الأشياء.

هذه المعرفة تلقي الضوء على موضوع الموت. فالموت في الواقع ليس موتاً؛ هو مجرد مرحلة انتقالية، هو مجرد تبديل أشبه بتبديل الثياب. أحياناً نتمنى لو نعرف إذا كنا نصبح أصغر بعد الموت. لكن الأمر ليس كذلك. ونحن نموت – نصبح أكبر وليس أصغر. بمجرد أن نرمي الغلاف الفيزيائي، فإن الروح تكتسب حرية عظيمة جبارة، تحرراً هائلاً، لأن قيود الجسد الفيزيائي أعظم بكثير. فالجسد الفيزيائي يضغط بقوة على الروح، وفي اليوم الذي ننزع ذاك الحمل، تشعر الروح بالراحة على الفور – طاقاتها، طموحاتها، إلهامها وقدراتها – كلها تعبر عن نفسها بحرية أكبر. لذلك، الموت – ليس فقداناً.

ما هو الذي يوصلنا إلى الموت؟ إما أن يكون الجسد قد ضعف جداً بحيث لا يعود قادراً على خدمة الروح، أو أن الروح قد أدت مهمتها المعينة في المستوى المحدد ولم تعد بحاجة للجسد. الجسد يتمسك بالروح، والروح تسند الجسد، هذا هو الوضع. إذا أصبح الجسد ضعيفاً جداً، فهو بالطبع سيفقد الإمساك بالروح، إلى أن يفقد أكثر وأكثر لدرجة لا يتمكن بعدها من التمسك بالروح. الروح بدورها تسند الجسد طالما هو يلزمها لتأدية مهمة ما؛ وحين لا تعود الروح ترى هدفا لاحقاً، فإنها تضعف تمسكها بالجسد. هكذا تدريجياً يدفع الجسد أيادي الروح.

هكذا تتم عملية الموت، المناقضة لعملية الولادة. الأجساد البشرية – عبارة عن الطين الضروري من أجل صناعة الجسد للروح. تقرع الروح باب المستوى أو الطابق الفيزيائي فيُعطى لها الجسد. يشار إلى هذه الفكرة الفلسفية برمز كوبيدون[1].

1- كوبيدون: في الأسطورة الرومانية آلهة الحب، رمز للوله الجنسي، يقابلها آمور أو ايروس.. كانت تصور على شكل أطفال يلهون. المترجم

الحياة في جناح الجن أطول مما في المستوى الفيزيائي. يمكن تسميتها حياة ما بعد الموت. لكن هنا أيضاً يحين وقت يجب فيه أن نعيد إلى مستوى الجن ما سبق واستعرناه، لأنه لم يعد ينتمي للروح. أي ليس بإمكان أحد أن يحمل معه جزيئات من مستوى آخر، لأن كل مستوى يتميز بخواص معينة يجب إعادتها إليه. بالنسبة للروح هذا هو السبيل الوحيد لكي تتحرر من ربقة القيود في المستوى المحدد من أجل أن ترتقي فوقه. وإذ ترتفع أعلى مما هي الروح فإنها تكون مضطرة للتحرر حتى من الصفات الملائكية. وهذه الأخيرة يجب أن تتمثل في المستوى الملائكي، وذلك قبل أن تتحلل الروح في المحيط العظيم، الروح العلوية المطلقة. هذا الانحلال يدعى الاندماج مع الأنا الخاصة.

يمكن لهذه العملية أن تعلّمنا شيئاً هاماً آخر: كل روح تتحرك من المصدر إلى الظهور، تتقاسم ما تحمله من المصدر، من النبع، مع الأرواح التي تلتقي بها، وهذه الأخيرة بدورها تعطيها مما قد جمعت في طريقها. هذا التبادل يعتبر السبب في مختلف حالات الحياة، التي يجد شخص ما نفسه متورطاً فيها حين يولد على الأرض. واحد ذكي – الثاني ضيق الأفق؛ واحد يولد في عائلة غنية – الثاني في الفقر؛ واحد سليم معافى – الثاني مريض؛ لدى أحدهم هدف عظيم – الثاني لا يعرف بماذا يشغل نفسه. هذا كله مقرر سلفاً. بماذا؟ بأن الروح، التي تصدر عن الأصل هي، في الواقع، قد جمعت في طريقها كل شيء من الأرواح العائدة إلى المصدر.

في المستويات، التي تعبرها الروح، يجري قبول ومنح، وهذا يتم بين تلك الأرواح، التي تسير من المصدر إلى الظهور، والأرواح العائدة من الظهور إلى المصدر. تماماً كالرحالة، حين واحد منهم يتحرك من آسيا إلى أمريكا، وآخر من أمريكا إلى آسيا، يمكن أن يلتقيا في أوروبا ويتبادلا النقود أو الأفكار، كل منهما يأخذ معه شكوك، معارف، سعادة أو تعاسة أحدهما الآخر، هكذا هي أيضاً أرواحنا تتلقى خبرة الحياة في الأرض. ربما تتسلم روح ما، غالباً دون أن تدري، مساراً يوصلها إلى الثروة والنجاح والتفوق، بينما روح أخرى تمشي في طريق الفشل والأخطاء. كل شيء يتوقف على الاتجاه المُعطى منذ البداية. لقد شرح شمس الدين حافظ

الشيرازي هذه الفكرة بطريقة شاعرية فقال: كل واحد لديه ذنبه، و إن حبه يتناسب مع هذا الذنب، الذي لديه. سواء كان ذنب السعادة أو ذنب الحزن، أو الفقر، ذنب الشجاعة أو الخوف، الثقة أو عدم الثقة، الإيمان أو عدم الإيمان، فإن الإنسان يتصرف تحت تأثير النشوة من هذا الذنب، مُظهراً فعل هذا الذنب للعالم.

أثناء التبادل الحاصل بين الأرواح المغادرة من المصدر إلى الظهور وتلك العائدة من الظهور إلى المصدر، واحدة منها تكتسب خطيئة الأنانية، والثانية – خطيئة النزاهة والخلو من الغرضية. قال الشاعر الفارسي ميرزا عبد القدير بديل[1] Bedil Mirza Abdulkader: سال الخمر عند الفجر – الخمر المأخوذ من عين المعشوق". المقصود بـ "عند الفجر "هو الولادة، أي الوقت الذي تبدأ فيه الروح مسيرتها من النطاق الملائكي، وعين المعشوق تعني هذا العالم المخاتل المخادع. أن الكأس الأولى من الخمر، التي تشربها الروح، تحدد مسارها مدى الحياة.

يؤمن الكثيرون أن الإنسان الذي يبلغ مستوى عالياً من التطور، يغتني بالمعارف. بالتأكيد، إن التطور المرتفع بحد ذاته هو معرفة، لكن المعرفة، التي يتلقاها الإنسان من مصادر أرضية، ليست من ذلك المعدن الذي يحصل عليه من المستويات الأخرى. فالإنسان يكنز النقود من المستوى الأرضي، الصغير والمحدود، كما هي هذه الدنيا. يضحكني أحياناً أن يأتي إلي شخص ويقول: " لقد قرأتُ كتباً كثيرة حول العلوم الغيبية؛ وأظن أنني جاهز تماماً للهداية ". هل يمكنكم أن تتصوروا، كيف يمكن لقراءة كتب حول الغيب أن تقرّب الإنسان من الروحانية؟ إن لغة تلك البلاد مختلفة، ليس للمعرفة الثقافية هناك حضور، المعرفة هناك تكمن في نسيان كل ما تعلمناه هنا. أن قضية الإنجاز الروحاني – عبارة عن شيء مختلف تماماً، ونحن نلامسه من وجهة نظر مختلفة بالكامل.

1- عبد القادر بديل: ١٦٤٤ - ١٧٢١ شاعر الهند الناطق بالفارسية . من أهم أعماله "طلسمان الوجد " ١٦٦٩، " العمل الفلسفي " المعرفة " ١٧١١- ١٧١٢، ومؤسس ما يسمى "بالنموذج الهندي".. المترجم

يمكن مقارنة حالة الروح مع المرآة. هي تعكس الشيء، الذي يقع أمامها، لكن الانعكاس لا ينحفر على المرآة، الشيء يشغل المرآة فقط ما دام هو يحجب المرآة. هكذا هي الروح محجوبة بتجربتها. بكلمة أخرى، إن تجربتنا يمكن أن تخدع الروح، يمكنها أن تغطيها وحتى أن تخفيها، لكنها لا تقدر أن تلج فيها. هكذا الأمر، إن ما ندعوه بالفردية ما هو سوى حالة مؤقتة، وعندما تستيقظ الروح فهي لا تولي الفردية اهتماماً كبيراً، لأن الفردية مصنوعة من أغلفة مستعارة من مستويات مختلفة. هذا يشبه لدرجة ما الدمية، المصنوعة من المِزَق. حين ندرك ذلك فإننا نولي جلَّ اهتمامنا للروح – الروح، التي هي حقيقية، التي جاءت من الواقع وتبحث عن الواقع.

و في النهاية، السؤال الأخير: ماذا يمكن أن يكون الدافع من خلق الإنسان؟ هل يتحقق شيء ما بذلك؟ نعم ، الوجود يتحقق من خلال عيش الحياة . هذا وجود إلهي حين تُحضر التجربة الروح إلى ذلك الارتفاع ، حيث لا تعود منه روحاً فريدة وحسب ، بل تبدأ بإدراك جميع مستويات الكينونة، ليس فقط المصدر، بل وجميع الحدود والتقييدات. وعندما يكون كل الإلهام وكل الطاقات، الكامنة في الإنسان في متناوله عندئذ إن هذا الوجود يدعى مثالياً. عن هذا الكمال كان كلام المسيح: " كونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم السماوي كاملٌ ".

الكارما والتقمص

I

إن التيولوجيا الهندية تُفرد للتعاليم حول الكارما أهمية أكبر بكثير من ديانة بني إسرائيل. وأنا أقصد بالتيولوجيا الهندية ليس فقط الفيدانتيزم Vedantizm أو البراهمانيزم، بل وكذلك البوذية، وإلى جانب اليهودية أقصد بديانة بني إسرائيل المسيحية والاسلام. كل الفلسفة الهندية تقوم على التعاليم حول الكارما، لكن الأسس الأخلاقية لديانة بني إسرائيل أيضاً تعتمد عليها. الفرق يكمن في أن الفلسفة - في الحالة الأولى ترتكز على الكارما، وفي الحالة الثانية – على الأخلاق.

كلمة "كارما" - تعني "الفعل". وهذا مفهوم تماماً: المرء يحصد ما سبق وزرعه؛ الحاضر هو صدى للماضي، والمستقبل – هو انعكاس للحاضر، ولذلك منطقياً أن الماضي يؤسس الحاضر، والحاضر يخلق المستقبل. علماً، أنهم في مدرسة الصوفيين قلّما يتحدثون عن ذلك، لذلك فإن الناس المتحمسين لتعاليم الكارما غالباً يسألون فيما إذا كانت الصوفية تقف موقفاً معادياً لهذه الفكرة. الصوفية ليست معادية لذلك، لكن إحساس المتصوف هو كذلك، بحيث لا يبقى أمامه سوى أن يصمت.

لنشير بداية إلى، أن الإنسان يدعو الأشياء صحيحة أو غير صحيحة فقط على أساس معرفته. هو يعتبر صحيحاً ما يعرف أنه صحيح، أي ما تعلّم اعتباره صحيحاً. ولهذا بالضبط، إن مختلف الشعوب والقوميات والاثنيات تمتلك نظرة مختلفة بخصوص الخير والشر. الفرد يعتبر شخصاً آخر شريراً فقط من منطلق أن معرفته تحدد تصرفات هذا الآخر على أنها غير

صحيحة. ومن أين له أن يعرف، فيما إذا كان هذا أو ذاك سيئاً؟ هو يعرف ذلك لأنه هكذا تم تلقينه، لأنه قرأ عن ذلك في كتاب أو سمع عنه من الآخرين. بقلق، مع الكراهية والموقف المسبق ينظر الناس إلى أعمال الناس الآخرين، المجتمعات، الأمم والأعراق، في حين أنه لا توجد علامات أو إشارات أو تعريفات على أعمال وتصرفات الآخرين، التي تحدد على أنها صحيحة أو غير صحيحة. هذا جانب من الموضوع.

هناك طريقة أخرى للنظر إلى الشر. مع كل خطوة من التطور يتغير موقف الإنسان من الخير والشر، من الحسن والسوء. كيف هو يتغير؟ هل يرى الإنسان شراً أكثر أو أقل بالتوافق مع التطور؟ من الطبيعي الافتراض أن الإنسان - من علو تطوره الخاص ومن علو الفضيلة لديه - يرى السوء أكثر، لكن الواقع هو عكس ذلك: كلما تطور الإنسان أكثر، كلما هو لاحظ الشر أقل، لأنه يبدأ الأخذ بالحسبان ليس الفعل بحد ذاته، وإنما الدافع الذي يقف وراءه. أحياناً، إن التصرف الذي يبدو وكأنه جيد قد يسبب الشر بسبب الدافع الذي يقف خلفه. وأحياناً قد يكون الفعل، الذي يبدو غير صحيح، سليماً إذا احتسبنا الدافع. لذلك، إذا كان الجاهل جاهزاً دائماً كي يبدي رأيه دوماً بخصوص تصرفات الآخر، نجد أنه بالنسبة للحكيم توجد صعوبة لا تقارن في ابداء الرأي حوا تصرف الآخرين.

من وجهة نظر دينية، إذا كان الإنسان يتطور روحياً، فإنه يرى بدرجة أقل وأقل السوء في كل مرحلة من تطوره. وهل يمكن للرب أن يجزي كل صغيرة يقترفها الإنسان - الكائن، الذي لا يعرف سوى القليل جداً عن الحياة؟ نحن نقرأ في الإنجيل: " الرب هو محبة " - لكن ماذا يعني بالمحبة؟ المحبة تعني الغفران وليس العبادة. أما إذا أحال الناس الرب إلى قاضٍ قاسٍ يتربع على عرش القضاء العادل، يتشبث بكل شخص فيقوم بالتحقيق معه حول جميع أخطائه وارتكاباته، يحاكمه عليها ويقرر طرده من السماء، فأين عندئذ هو الإله المحب؟

يؤمن البعض بأن التعاسات والأحزان مقررة سلفاً من قبل الكارما. هذا صحيح لدرجة ما، لكن يجب عدم المبالغة. لو سألنا ما هي الحاجة إلى الطبل أو البوق في الأوركسترا، فإن الجواب هو: من أجل القيام بعزف المقطوعة الموسيقية كما أرادها وكتبها الملحن. ربما، إن أذننا لن تستسيغ اللحن، لكن الملحن كتب مقطوعة تتطلب مشاركة البوق والطبل. بنفس

الطريقة، كل ما نعتبره غير ضروري، هو في الواقع يخدم هدفاً معيناً، الكل يشارك في خلق السيمفونية الإلهية. نسأل: " لماذا الأمر هكذا؟ " – لكن هذا السؤال يطرحه عقلنا المحدود. في الحقيقة كل شيء له مكانه ومهمته. سأل أحدهم النبي ساخراً، لماذا خُلِق البعوض، فأجاب النبي: لكي لا تنام كل الليل، فتعطي بعض وقتك للصلاة ".

إذا انتقلنا إلى وجهة النظر الفلسفية، فربما يسأل أحد: ماذا يمثل الإنسان – آلة أم مهندساً؟ إذا كان آلة، فهو مضطر لأن يعمل سنوات طويلة تحت تأثير تصرفاته الشريرة بشكل ميكانيكي، مع العلم أنه في تلك الحالة لا يتحمل المسؤولية عن أفعاله. أما إذا كان مهندساً، فهو يتحمل المسؤولية عن أفعاله، وطالما هو يتحمل مسؤولية تصرفاته، فإنه يُعتبر سيد مصيره ويفعل به كما يشاء.

إن الفروقات بين البشري والإلهي تشبه الاختلاف بين نهايتين لخط واحد. إحدى النهايات تمثل المحدودية، الثانية – اللامحدود. في إحدى النهايتين يوجد النقص، في النهاية الأخرى – يوجد الكمال. إذا نظرنا إلى الناس، الذين يعيشون في هذا العالم، سنكتشف أنهم لا يقفون في نقطة واحدة؛ هم يملؤون الفراغ من طرف الخط إلى الطرف الآخر. على الرغم من أن العالم يمر الآن في مرحلة التأكيد على مفاهيم المساواة، في الواقع يجري تجاهل نُبْلِ الروح وحتى منشأها الرباني. يمكن ملاحظة البراهين على ذلك في جميع مراحل الحياة. في الدولة كل واحد يملك صوتاً واحداً، والأمر نفسه في العائلة، وهكذا في كل مكان. لكن، إذا أدركنا جوهر الحياة الروحية للأشياء، فإننا سنرى أن الأمر كما في البيانو – المفاتيح تصدر أصواتاً مختلفة، وهكذا هي النفوس تختلف عن بعضها البعض. يبدأ الإنسان حياته كالميكانيزم، كآلة، لكن يمكنه أن يتطور لدرجة يمكن معها أن يتحول إلى مهندس. إذ أن تقييدات الكارما تضغط على الآلة فقط.

بدون شك، يجب على كل روح أن تمكث بعض الوقت في حالة آلة في البداية، لكي تصبح لاحقاً مهندساً، لأن هذا التحول لا يتم في لحظة. إنه يجري تدريجياً، لهذا إن الكارما تؤثر بطريقة مغايرة على مختلف النفوس . أي يوجد قانون كارما خاص لكل إنسان . ما هو

خطيئة بالنسبة لأحد الأشخاص هو فضيلة بالنسبة لآخر – ما هو صحيح لأحد ، هو غير صحيح لآخر . طبقاً لهذا القانون كل فرد يقابل الكارما الخاصة به .

ملتزماً هذا التوجه، إن المتصوف يقول : " إنها حقيقة ، إذا كانت حياتي غير ناجحة، فإن السبب في دلك هو نتائج تصرفاتي . يمكنني أن اسلّم بذلك، لأن كل ما يحدث ينبع من أعمالي السابقة، لكن يجب علي أن أصنع قدري بنفسي، لأنني مهندس " . هذا هو الفرق. لقد سمعت، كيف أن أحد الأشخاص قال : " أنا مريض منذ سنوات طويلة . لكن هذا مقرر لي ، وأنا أتحمل ذلك بسهولة لأنها هذه هي الكارما خاصتي . إنه الجزاء " . بهذه الطريقة هو يؤخر لحظة الجزاء ، التي يمكن أن تطول عشر سنوات، بل وكل الحياة . إن المتصوف في هذه الحالة يتصرف ليس كمريض وحسب، بل ويعالج نفسه كطبيب . إنه يقول : " حالتي صعبة؟ هل هذا نتيجة الماضي؟ أنا أريد شفاء ذلك . الماضي جلب الحاضر، لكني من الحاضر سأصنع المستقبل بنفسي." . هذا يعني أنه لن يسمح لتأثير الماضي أن يقضي على حياته . إنه يريد الآن أن يخلق التأثير، الذي سيجعل حياته أفضل في المستقبل .

يرتبط بهذه المشكلة جانب آخر أكثر جدية مما سبق ذكره . قبل أن يتحمل الإنسان مسؤولية الحساب عن تصرفاته في الماضي ، هل هو يسأل نفسه : " و مَن كنتُ في الماضي؟ " إذا لم يكن يعرف ذلك ، فلماذا يجب عليه أن يحاسب على شيء ما؟ نحن يمكننا أن نُسألَ فقط عما يدركه وعينا – وهذا وحده كاف في الحياة . لماذا إضافة حمل الماضي المبهم إليها؟

ماذا نرى حين ننظر إلى أنفسنا من وجهة نظر فلسفية؟ كلما كانت نظرتنا أكثر حدة، كلما لاحظنا " الأنا " بشكل أقل . كلما كان إدراكنا أكبر، كلما أدركنا بدرجة أقل " الأنا " الصغيرة خاصتنا . هكذا، أن الإنسان يحمل هذا الثقل حتى دون أن يُدعى لحمله . بإمكانه أن يتجاهله ببساطة . هذه الفكرة لا تجلب له المنفعة . هذا يعطيه فقط الرضا المؤقت من إدراكه أن مصائبه عادلة، لكن فكرة هذه العدالة تسبب له عدم الارتياح فقط . يمكن للألم أن ينتهي لكنه يستمر، لأن الإنسان يزيد الألم .

إن المهمة الرئيسية للعمل الايزوتيريكي – هو إزالة التفكير بالذات : مَن كنتُ، مَن أنا الآن ومَن سأكون . من الأفضل بكثير الانغماس في التفكير عن الحياة ككل : كيف هي، كيف يجب أن تكون، كيف ستكون . هذه الفكرة تضمن بشكل ما وجهة نظرٍ مركّبة وهي توحِّد ،

بدلاً من أن تفرّق. إنها بنّاءة، يمكن إيجاد فيها لغز التحرر الروحي. أتباع البراهما، الفيدانتا والبوذية، الذين يعتبرون الكارما من أعمق التعاليم، يرتفعون فوقها، بمجرد أن يلامسوا فكرة الهدف، الذي يجب أن يتحقق بواسطة الروحانية والذي هم يدعونه موكتي Mukty أو النيرفانا. هذا هو الشرط، أي طالما أن الإنسان لم يرتفع فوق فكرة الكارما، فإنه لن يستطيع ملامسة النيرفانا.

II

الحجة اللاهوتية لصالح مبدأ التقمص هي التالية: بما أنه ليس كل إنسان يستحق الانصهار المباشر مع الذات الإلهية، فإنه يولد من جديد عدداً غير محدود من المرات لكي " يتطهر " قبل أن يبلغ الغاية النهائية. بهذه الطريقة مفروض عليه أن يدفع لقاء كل ديونه، قبل أن يبلغ حضور الإله. كجواب على ذلك يمكن القول، أنه حتى الإنسان بحسه المحدود للعدالة لا يعاقب أحداً على الإطلاق بدون أن يبين له ما هو جرمه، فكيف يمكن للرب، المطلق العدالة والمطلق الرحمة، أن يسمح للنفس بالولادة من جديد على الأرض عقاباً على جرم لا يعرفه أو حتى لا يتصوره الإنسان؟

أما الحجة العلمية لصالح التقمص فتقول لنا، أن البذرة تقع في الأرض وتنتج بذوراً أخرى، وهذا يتكرر آلاف وآلاف المرات؛ دوماً يتم انتاج البذرة، وبهذه الطريقة توجد إمكانية للتقمص. إذا كانت لدى البذيرة القوة الكافية لتعود من جديد بذرة، فلماذا لا يكون لدى النفس البشرية القدرة على اكتساب جسمٍ جديد؟ لكن حتى البذرة لن تستطيع أن تعود بذرة قبل أن تبلغ أعلى مراحل تطورها. مع ذلك، أن هذا لا يجوز اعتباره تقمصاً بل، على الأرجح إعادة نمو؛ بذرة واحدة تنتج عدداً كبيراً من البذور، ولهذا السبب لا يمكن اعتبار هذا بمثابة تقمص، لأن طبيعة التقمص هي: حين شيء واحد ينتقل إلى شيء آخر دون أن يتحول إلى مجموعة.

هذه هي حال النفس، التي تتعرف إلى الحياة بواسطة خمس حواس وتعود في الدرب المعاكس، إلى الأصل ، حاملة معها انطباعات العالم الخارجي ، لترميها مع كل خطوة متجهة إلى ذات الجوهر، إلى الروح الكونية. الجزيئة الأرضية تعود إلى التراب، المياه ترجع إلى الماء، النار يتمثل النار؛ الهواء يسحب خاصته ؛ الأثير يفعل الشيء نفسه. عندما تتكسر بنية العناصر الخمسة، البنية التي كان بمقدورها كما عدسة التكبير أن تتلقى انعكاس الروح، فإن الروح ترجع إلى منشئها الأصلي. بعد أن يتم تخريب البنية الفيزيائية والفضائية (النجمية من نجوم)، لن تبقى فرصة للفردانية، لأنه لن يبقى شيء سوى الجوهر الواحد .

يمكن للإنسان أن يرى تقمّصه في شخص آخر : إما في أفكاره، عندما يكون متيقظاً، أو في منامه أثناء النوم، لأن كل كائن قد خُلِق ليس فقط بالطريقة الموصوفة أعلاه، بل وبالعقل الخاص، وهكذا تحولات يمكن اعتبارها تقمصاً . ومع ذلك، يبقى هذا الجانب غير قابل للتفسير حتى النهاية بعد ، لأن كل فكرة تولد ، تعيش، وتموت. بحيث يمكن اعتبارها كمجموعة من الفرديات، كعالم مخلوق من قبل كائن واحد .

قد يوجد أناس يتجادلون أو يتصورون ، أن بإمكانهم أن يتذكروا تقمصاتهم السابقة. لكن في أغلب الحالات هم يريدون فقط خلق ضجة وبعث الاهتمام بهم أو إعطاء مخرج لضلالاتهم وشعوذاتهم. لن تسمع في الهند كثيراً عن التقمص، الناس هناك غالباً يتحدثون عن الكارما . أتباع اليوغا ، مجموعة من الممثلين الرئيسيين لفكرة التقمص، لا يسمحوا لأنفسهم ولا لثانية بالتفكير بإمكانية تقمصهم الشخصي. لو سألتَ واحداً منهم عن ذلك، سيجيب : " لا ، أنا ابحث عن Mukty[1]، عن النجاة. هذا أنتَ تحلم بأن تولد من جديد ، ولذلك سوف تولد ، وسوف تشعر بخيبة كبيرة، إذا لم يتحقق ذلك ". نشير إلى أنه لا يجب فهم هذا التصريح بحرفيته؛ اليوغا يستخدم مصطلح " أنت " لكل ما هو يعرف كـ " أنا " في الإنسان، الذي يخاطبه. هذه النظرية تفتح الباب واسعاً للاهتمام، للفضول والخيال لمن يمكنه أن يرى العالم الحقيقي. عدا ذلك، هناك أشخاص متعطشون دائماً لشيء جديد . هذه الرغبة تتنامى لدرجة أنه لو ظهر إله جديد ، لكانوا رغم ذلك فتشوا عن رب آخر .

1- Mukty - كلمة سنسكريتية تعني التحرر. — المترجم

عند النظر إلى تطور العالم يمكن أن ينشأ انطباع، كما لو أن هذا التطور تحركه طاقة الأرواح، المحتفظة بالذاكرة عن الخبرات الحياتية الماضية، بقصد الظهور في شروط أفضل بالمقارنة مع الماضي. لكن الواقع ليس كذلك. إن تطور العالم لا يتوقف على تجربة الماضي المعاش للنفس، بل إن سبب تطور العالم هو أن الروح تعطي الحالات المحسّنة في طريقها إمكانية الظهور، وهذا بدوره يساعد هذا الظهور في حركته نحو الكمال.

إن إدعاء فكرة التقمص على أنه حقيقة يقوم، بشكل أساسي، على قانون الفعل، وهذا القانون يستمد مشروعيته من العقل. هذا يعني، إذا كان شخص ما موسيقاراً عظيماً، فهذا يرتبط بحياته الماضية، يولد الإنسان أعمى أو أعرج كعقوبة على أفعاله في الماضي، يصبح حكيماً وروحانياً، غنياً وذي سلطة كبيرة بفضل خدماته السابقة؛ وبهذه الطريقة كل روح، سواء فعلت الخير أو الشر، تحصد ثمرته في التقمصات التالية، إلى أن تبلغ مصيرها المقرر.

يمكن الاحتجاج على ذلك: الساقان مضطرتان لحمل ثقل الجسم ليس لأنهما ارتكبتا ذنباً ما، والرأس يكلل الجسد ليس مكافأة له كما لو أنه عمل في الماضي أفضل من الساقين. العالم — هو تكريس الجوهر المطلق، الرب الواحد الأحد. لتفسير ذلك نورد كلمات أحد الدراويش الفرس: " يعيش الإنسان، وهو فرح لإيمانه بالرب ودون أن يعرف، هل هو — أي الله — صديق له أم عدو. هذا مثلما حين يرفع المحيط الأمواج بفرح، والغصن المتأرجح على السطح يعتقد، كما لو أن المحيط يعلو ويهبط فقط من أجل ترضيته ".

هذا ينطبق على جميع حالات الحياة. قد يعتقد الإنسان أنه ربما ارتكب شيئاً في الحياة الماضية، ولذلك هو، كذا، يعيش الآن بهذا الشكل أو ذاك. لكنه يخطئ هنا لأن هذا قرار العدل الإلهي. الله، الذي يشبه المحيط، يجب أن يتأنى كثيراً ويحاكم بهدوء لا مثيل له، لذلك فإن الارتفاعات يستدعيها إما " الجزاء " — أمواج المحيط الوجودية، أو بالخير أو بالشر، المصادف في الطريق نحو الظهور.

إن المفكرين، الذين درسوا فرضية التقمص، لم يحمِّلوها أبداً ذلك المعنى، الذي يفهمه معظم الناس. التقمص حسب فهمهم هو أن تتلقى من قبل روح جديدة، متجهة نحو الظهور،

خواص تلك الأرواح التي تصعد إلى منشئها الأصلي وقد أعطت ما تحمله من انطباعات إلى الأرواح، التي ترغب بتسلم هذا الحمل. إن النفس، التي سبق وتقمصت يوماً في جسد ما، لن يكون لديها مطلقاً القوة اللازمة لتفعل هذا مرة أخرى. أما فكرة ولادة الروح في شكل آخر لا تحتمل قسطاً كبيراً من الحقيقة. لو أن هذا كان صحيحاً، لماذا كان لا يجوز للروح هذه أن تولد في هيئتها السابقة، والتي بإمكانها أن تصنعها بسهولة فائقة؟

في الواقع إن مبدأ التقمص يمكن فهمه على النحو التالي: جزء محدد من الوعي، في السابق عبارة عن روح، يمكنه مبدئياً أن يشكل من جديد نفسه كروح؛ لكن كقاعدة، لا توجد مثل هكذا إمكانية. إن درجة الاحتمال هنا قليلة جداً، مثلما هو قليل احتمال أن ينشأ من البالون المنفجر نفس ذلك البالون. على الأرجح، إن البالون الجديد سيكون عبارة عن نصف، أو ربع وربما جزء من مائة من البالون الأولي أو قد يصبح أكبر بمئات المرات. على كل حال، يجب على الروح أن تندمج مع الإدراك قبل أن تكون حية بما فيه الكفاية لكي تتظاهر. لهذا نحن لا نستطيع اعتبارها نفس تلك الروح، لأنها قد تطهرت بالمقارنة مع حالتها السابقة. لنتصور قطرة من الحبر: إذا هي وقعت في المحيط، فإن الماء يختلط مع الماء، وأما المادة الملونة فتترسب إلى القاع. هذه القطرة لن تتمكن من البقاء نفس تلك القطرة، لكنها ستصبح ماء خالصاً في المحيط. لو استطعنا استخلاص نفس هذه القطرة من ماء المحيط لوجدنا أنها لم تعد تحتفظ بنفس الخواص السابقة. نفس الشيء يحصل مع الروح، عندما يتم امتصاصها من قبل محيط الوعي.

III

هناك ثلاث طرق للاطلاع على حياة ما بعد الموت: أن يتم إدراكها عقلياً، في المجال النظري؛ الاطلاع عليها من خلال عملية التمرينات والتدريب Meditation، أو عن طريق " الموات قبل الموت "، أي بلوغ اثناء الحياة تلك الحالة، التي يختبرها المرء بعد الموت؛ والطريقة الثالثة — أن يموت المرء نفسه.

هذه المعرفة يبحث عنها ثلاثة نماذج من الناس. أولاً، التلاميذ، الذين يدرسون مصادر موثوقة بهدف إخراج نظرية يمكن أن تتقبلها أذهانهم بشكل عقلاني. ثانياً، الاتباع – هم يسيرون على درب الاسترخاء والتدريبات Meditation، التي بواسطتها يتوصلون إلى تلك الحالة، كما لو أنهم ماتوا بالضبط ، وحيث يمكنهم للحظة أن يترفعوا فوق حياة جسدهم المادي . بهذه الطريقة هم يتلقون خبرة الحياة بعد الموت، والتي تشكل بداية المعرفة عن الخلود. وثالثاً، يوجد أشخاص يرغبون في التعاطي مع الأرواح ، لكي يطلعوا على ظروفهم الحياتية الدنيوية. إذا كانوا قادرين على التعامل مع الأرواح، فهم يستطيعون، لدرجة ما، أن يحصلوا على معلومات عنها.

إنسان النموذج الأول يحاول الكشف بطريقة عقلانية عن التعاليم، التي ترضي محاكمته، سيوافق برغبة مع نظرية التقمص، لأنها تفسر الحياة نظرياً، ومع الطريقة التي ترضي العقل. عندما سألوني، ماذا يمكن للمتصوف أن يقول عن التقمص، أحياناً كنتُ أصمت، وأحيانا كنت أجيب بالإيجاب وأحياناً سلباً، أي لم أكن أعطي جواباً قطعياً. ربما، فكر أحد ما أنني لا أؤمن بتلك النظرية، وطالما لا أؤمن بها، فإن جميع المتصوفين الآخرين، بالطبع، لا يؤمنون بها أيضاً. ليس الأمر كذلك. كل متصوف حرّ أن يؤمن في كل ما يعتبره صحيحاً وما هو قادر على فهمه. هو غير مقيد وغير ملزم باعتقاد محدد.

بدلاً من أن يقلق بخصوص المعتقدات، إن المتصوف يسعى للمرور مباشرة إلى الفكرة المركزية، وعندما يتواجد هناك فهو يرى الحقيقة في كل شيء. هذا هو سر الحياة: إذا كان في يدك ذبالة (شعلة مقدسة) فكل شيء يصبح واضحاً بالنسبة لك. لذلك، الصوفية تمنح كل فرد الحرية في اختيار معتقده وأن يجد طريقه الخاص.

حين كنت أجيب بـ " نعم "، فقد كان لذلك سببه أيضاً، وعندما كنت أجيب بـ "لا"، أيضاً كان لهذا سببه – ليس بالنسبة لي، بل لمن طرح السؤال. يسعى الناس في هذه الدنيا لجعل كل شيء قاسياً، بما في ذلك الأشياء ذات الطبيعة الهشة والدقيقة والتي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. هذا يشبه محاولة أن توزن النفس أو أن تصور الروح، وأنت تصف الحياة بعد

الموت. يجب على الناس أن لا يقعوا تحت تأثير كلماتي؛ فالهدف هو تحقيق الذات أو إدراك الذات. الإيمان بالمذهب – عبارة عن عقار لمعالجة المرضى. في الواقع، إن جميع الأشياء صحيحة إلى حد ما، لكن إذا جرت مقارنتها مع الحقيقة النهائية، فلن يتمكن أي شيء من إثبات كينونته. تبدو الأشياء مختلفة من المستويات المختلفة، التي ننظر منها نحن. وعندما يقف الإنسان في واد ويسأل ذاك، الذي يقف في الذروة، ماذا يرى هناك، فلا يستطيع هذا أن يقول الكثير. يجب على السائل أن يصعدْ إلى قمة الجبل وينظر بنفسه؛ قبل ذلك لا يمكن أن يكون بينهما أساس مشترك للحديث. إن الطريقة الصوفية تعتمد على التطور الصامت والسلمي، مما يساعد على بلوغ تلك المرحلة، التي يرى فيها المرء بنفسه. ربَّ قائل يقول أن ذلك يتطلب الكثير الكثير من الصبر. هكذا هو الأمر، وعلى العموم أن طريق الروحانية هو طريق الصابرين؛ وليس هناك ما يُعطى بصعوبة أكبر من الحصول على الصبر.

إذا سألني أحد ما، لماذا لا أقول مباشرة ما الذي يحدث بعد الموت، هل نعود نحن إلى الأرض أم ننتقل إلى مكان ما، فسأجيب: " ما أنت تحسبه نفسك، أنا لا احسبه ذاتك، في عينك أنت تمثل شيئاً، وفي عيني – أنت شيء آخر تماماً. إذا رحتُ أتكلم طبقاً لوجهات نظري، فإن هذا يشعرك بالارتباك. بداية يجب عليك أن تبلغ المستوى الذي منه يصبح بإمكاني رؤيتك. أنت تتحسس لنفسك أبسط السبل، وهذا بالنسبة لك الآن واقع، لكن يحين وقت تدرك فيه أن ذلك لم يكن سوى خيال ". كيف يمكنني أن أنقل رأياً لمن هو عاجز عن فهمه؟ لذلك، إن طريق الصوفي – هو الصمت.

الصوفية ليست ضد التقمص أو أية تعاليم أخرى. ولماذا عليها القيام بذلك، طالما أنها تمثل ديانة جاءت بقصد مصالحة الأديان؟ لا يوجد عند المتصوف أية فكرة للتعارض مع أي مذهب. أنا لم انطق قط بما هو ضد التقمص، لأنني لا أرى فيه أي خلل مطلقاً. لكن أنا لا أرى أنه صحيح أيضاً. إذا كان الهدف هو إدراك وحدة الحياة، وحدة الإله، فإن فكرة التقمص، والتي تتأسس على مبدأ الايغو الكاذب، لن تكون مجدية. الصوفية تريد تعليم الإنسان أنه موجود. عندما يجيب الإنسان على هذا السؤال، فلن يضطر إلى طرح أسئلة: " ماذا ستجلب لي تصرفاتي؟ " مَن هو الإنسان – هذه هو السؤال الوحيد، الذي تريد الصوفية الإجابة عليه.

في نفس الوقت، ما هو واضح للعيان يختلف عما هو مخفي. هل حقاً الإنسان، الذي ولد في قصر قد تلقى ذلك كمكافأة، وذاك الذي يعيش نصف جائع – معاقب لذنب ما؟.

ماذا جلب المسيح؟ الخلاص. ماذا جلب محمد؟ النجاة، الخلاص. ماذا جلب الاواتارا[1] في الهند – الموكته Mukty، الخلاص. دوماً نفس الشيء – النجاة. لذلك من الأفضل التخلي عن مذهب التقمص والإمساك نَصْبَ العين بمُثُل الوحدة المطلقة – المثال، الذي فيه يتحقق الهدف من الحياة.

لكن هل يمكننا، قد يسأل سائل، بلوغ الخلاص في هذه الحياة؟ كل روح لديها تطور مختلف، لكن الإنسان يستطيع بلوغ النجاة بشكل رئيسي، إذا هو رغب تحقيق ذلك بصدق وبجدية. ليس الرب فقط على كل شيء قدير، الإنسان أيضاً يملك جزءاً من عظَمته. النجاة في يد الرب، لكن وفي أيدي الإنسان أيضاً. في رغبة الإنسان تتواجد مشيئة الإله، في جرأة الإنسان توجد شجاعة الرب، في ثقة الإنسان – ثقة الله .عندما نردد كلمات الإنجيل: "لتكن مشيئتك"، مدركين في نفس الوقت، أن إرادتنا لا تنفصم عن مشيئة الرب، فإن إرادتنا أيضاً تتحقق. لكن إذا لم نكن نريد الخلاص في اللحظة المحددة، فإننا لن نبلغه، لأن من الضروري، كما قيل في الإنجيل، أن ندق الباب – "..دقوا الباب يُفتح لكم..". ليس هناك ما يعجز الإنسان عن تحقيقه، الإنسان الذي خلقه الله خليفة له، ملك مملكة الله في الأرض – لا يوجد ما هو مستحيل بالنسبة له. بالطبع، هناك الكثير مما هو صعب، لكن ليس هناك من صعوبة لا يمكن التغلب عليها. فقط إذا امتلك الإنسان الشجاعة الكافية، سيتمكن هو من بلوغ ذلك المصدر، الذي ينشأ منه.

1 – الاواتارا تعني في اللغة السنسكريتية – "هبوط الرب" في هيئة فيشنا وكريشنا.. المترجم

الجزء الثالث

حياة ما بعد الموت

من الصعب تفسير ماهية الحياة في عالم الروح، ومن الصعب التعبير عن ذلك بالكلمات، لكن يمكن الحصول على بعض التصور عن طريق مراقبة حياة الطيور، التي تستطيع الطيران فوق البحار والغابات، فوق التلال والوديان والتي تجد نفسها في تناغم مع الطبيعة وتعبر عن فرحها بالأغنية. هكذا هي حياة الأيائل (جمع أُيَّل)، التي تتجول في الغابات والجبال، التي تشرب الماء من الينابيع، تجري في الرحابات المفتوحة، وهي تنظر إلى الأفق منذ الفجر وحتى المغيب، تحدد الشمس أوقاتها، والقمر يعمل منارة لها. والآن دعونا نتخيل حياتنا، حياة الناس في المدن المزدحمة، أيام العمل في المصانع والليالي خلف الأبواب المغلقة، بعيداً من الرب، بعيداً عن الطبيعة، بعيداً عن الذات – هذه الحياة، المملوءة بشكل كامل بالصراع من أجل البقاء، بالصراع المتنامي باستمرار، والذي لا نهاية له!

ما هو المطهر؟ في الصوفية يسمى "Naza" – ما معناه التوقف المؤقت للنشاط. حيث الموت هناك يوجد دائماً الصمت والعطالة. هذا يشبه الساعة، التي توقفت عن العمل؛ هي بحاجة لتعبئة، ومجرد حركة صغيرة تدفعها للعمل. بهذه الطريقة يأتي دافع الحياة، الذي يدفع النفس عبر ضباب الموت إلى رؤية نور النهار بعد ظلمة الليل. وماذا ترى النفس في ذلك النور النهاري المشرق؟ هي ترى ذاتها، حية، كما من قبل، تملك نفس الاسم والشكل، لكن في مرحلة التطور. إن النفس تكتشف في هذا الحقل حرية أكبر بكثير و أقل ما يمكن من التقييدات، من تلك التي عانت منها في الأرض. ينفتح الآن أمام النفس عالم رحب غير غريب بالنسبة لها، بل ذلك الذي أنشأته بنفسها أثناء الحياة على الأرض. ما سبق وعرفته النفس

على أنه العقل ، هذا العقل ذاته يتحول إلى عالم بالنسبة للنفس ؛ وما كانت النفس تعتبره خيالاً في الأرض، يصبح بالنسبة لها واقعاً. إذا كان هذا العالم - عالم الفن، فهذا هو الفن، المخلوق من قبل النفس. إذا غاب منه الجمال، فهذا نتيجة إهمال النفس للجمال أثناء تواجدها على الأرض.

إن لوحة جاناتا - الجنة، التصور عن السماوات ومفهوم الحقول الجهنمية تتحول بالنسبة للنفس إلى اختبار فعلي؛ لا يتم ارسال النفس إلى هذا المكان أو ذاك - من أجل التمتع هناك أو المعاناة لإثم ما - مثل غيرها. كل هذا - عبارة عن ممالك أنشأتها النفس أثناء قيامها على الأرض، تماماً كما تصنع بعض الكائنات أعشاشها لكي تعيش فيها خلال الشتاء. مباشرة خلف التابوت يبدأ شتاء النفس. النفس تمضي الشتاء في العالم، الذي صنعته هي - إما مريحاً أو غير مريح. ربّ سائل يهتم عما إذا كانت النفس تعيش وحيدة في ذلك العالم، الذي خلقته. كلا؛ كيف يمكن أن تكون وحيدة؟ إن العقل، الذي يعرف لغزه عدد محدود في العالم، هذا العقل قد يكون هائلاً وضخماً كما هو العالم وربما أكبر. يمكن لهذا العقل أن يتسع لكل ما يوجد في الدنيا، بل لكل ما تحتويه المجرة. إن فهم العقل يوسّع أفق الإنسان في الحياة. حين يتم بلوغ الجوهر، تنشأ في البداية حالة من الارتباك، لكن فيما بعد تتفتح طبيعة الرب، التي هي عبارة عن ظاهرة ضمن ظاهرة.

غالباً ما يبدي الناس اهتماماً حول العلاقة بين النفس، التي هجرت الأرض وتلك التي لا زالت تقيم في الأرض. بلا شك، في اللحظة المعينة يوجد جدار يفصل مَن بقي على الأرض عن أولئك، الذين هم في مستوى آخر. لكن رابطة القلوب ما زالت كاملة، وهي تبقى غير منقطعة طالما يبقى الود المتبادل. لكن لماذا، قد يسأل أحد ما ، مَن يحب أولئك، الذين هجروا الأرض، لا يعرف شيئاً عن حالة محبوبيه في الجهة الأخرى؟ هم يعرفون ذلك في قلوبهم، لكن خُمْر (جمع خِمار - المترجم) الأوهام في العالم الفيزيائي تغلف قلوبهم، ولهذا هم لا يستطيعون الحصول على صُوَرٍ واضحة. عدا ذلك، لا يعتبر ذلك مجرد صلة العشق والمودة؛ بل أيضاً واعتقاد في حياة ما بعد الموت، يبلغ حد القناعة الراسخة؛ وهذه بالضبط هي التي ترفع مَن بقي على الأرض إلى مستوى المعرفة عن معشوقيهم، المنتقلين إلى الجهة الأخرى. أولئك، الذين

ينكرون وجود عالم الغيب، هم يحرمون أنفسهم هذه المعرفة، التي هي لب جميع المعارف والتعاليم. من الأسهل، بالنسبة لمن انتقلوا من الأرض إلى الجانب الآخر، أن يدخلوا في احتكاك مع مَن ظلَّ على الأرض، لأنه لديهم خمار واحد أقل يحجب قلوبهم.

إن النفس في ترحال دائم. بغض النظر عن المستوى الذي تتواجد فيه، هي في الطريق باستمرار، وهي إنما لديها هدف في ترحالها هذا – هدف يجب تحقيقه: مجموعة من الاهداف المندمجة والمخفية في هدف واحد.

إذا كانت بعض الأهداف لم تتحقق بعد خلال الحياة على الأرض، فإنه يتم إنجازها أثناء التنقل التالي في عالم الروح، لأنه من كل ما حلمت به النفس البشرية، ليس هناك من شيء يبقى بدون تحقيق. إذا لم يتم تحقيق هذا هنا، فهو يتحقق في عالم ما بعد الموت. إن الأمنية المشتهاة جداً من قبل النفس – هي أمنية الرب؛ صغيرة أو كبيرة، صحيحة أو غير صحيحة، إنها تتحقق في لحظة معينة. إذا لم تحين تلك اللحظة، خلال تواجد النفس على الأرض، فهي تنشأ في عالم الروح.

الروح تؤكد منشأها الإلهي في جميع مستويات صيرورتها، إذ تخلق لنفسها كل ما تحلم به عن طريق تحقيق رغبة القلب، وهي تجذب وتشدّ اليها كل ما هي تريد. إن مصدر الروح مطلق الكمال، وكذلك هدفها، لذلك هي تخفي شرارة الكمال حتى في صيغتها المحدودة. إن طبيعة الكمال هي هكذا بحيث لا تترك أية رغبات. حتى في المحدودوية، التي تختبرها النفس على الأرض، حيث تمارس حياة مليئة بالقيود، تظلّ رغبتها الوحيدة – الكمال. بهذه الطريقة، كل رغبة تتحقق، كنتيجة لكون الكمال المطلق الوحيد، حتى ولو في عالم التنوع يعطي كل ما هو ضروري من أجل معرفة الكمال.

إن ظروف العالم التالي هي أكثر ما تشبه ظروف النوم. أن الإنسان أثناء النوم لا يرى ذاته مختلفاً عما هو في الحياة اليومية الواقعية، باستثناء بعض الحالات وبعض اللحظات؛ ولذلك اسبابه الخاصة. لكن قوة النفس في العالم التالي أكبر بكثير من تلك، التي تمتلكها في عالم القيود هذا. فالنفس في العالم التالي تصبح، إنْ أمكن القول، أكثر نضجاً وتتكشف عن

قدرة لم تكن تعلم بها على الأرض – قدرة أن تخلق وتبدع كل ما ترغب به؛ وبما أن حركتها لم تعد مقيدة بشدة في المكان والزمان، يصبح ممكناً بالنسبة لها تحقيق وإنجاز لذاتها ما كان صعباً عليها أن تفعله في المستوى الأرض.

أما ما يتعلق بفكرة التقمص، فإن الهندوس القدماء حين كانوا يقولون للشخص الشرير: "في المرة التالية، عندما تولد سوف تكون كلباً أو قرداً" – فقد كان المقصود هو تبيان لذلك الشخص، الذي لا يعرف شيئاً عن الحياة الآخرة ما بعد الموت، أن صفاته الحيوانية ستظهر من جديد كإرث للعالم الحيواني، لذلك هو لن يتمكن من الظهور لأصدقائه بمظهر إنسان، بل سيظهر في هيئة حيوان فقط. وعندما خاطبوا شخصاً طيباً: "صفاتك الحسنة ستسمح لك بالولادة من جديد إنساناً أكثر طيبة" – فكانوا يبينون لهذا الشخص، الذي لا يعرف شيئاً عن القطبين القصيين من النفس لديه، أنه لن يذهب أي عمل خيّر سدىً. و أنه بالنسبة للإنسان، الذي لا يعرف بماذا يأمل في عالم ما بعد القبر، ولم يعرف الحياة سوى بصيغتها الأرضية، فقد كان عزاء وسلواناً – أن يعرف أن كل فعل خير يقوم به سيعود له من جديد، وبهذا المعنى إن النظرية، المشروحة بهذا الشكل، كانت حقيقية.

هذا مجرد اختلاف في الكلمات؛ فالنفس التي تجيء من الأعلى ليس لها لا اسماً ولا شكلاً، ولا خصوصية محددة. لذلك لا فرق بالنسبة للروح كيف نسميها. وبما أنه لا اسم لها، فبإمكانها قبول اسم أية بدلة تمنح لها، وهذه هي طبيعة الحياة. لباس القاضي، الذي يرتديه الشخص يجعل منه قاضياً، وبدلة الشرطي تحوله إلى حارس (Constable)، لكن القاضي لم يولد قاضياً والشرطي – شرطياً. لقد ولدا على الأرض بدون لقب أو وظيفة، و إنْ ليس بلا شكل. التميّز والفروقات هي من خصائص العالم السفلي وليس العلوي، لذلك إن الصوفيين لا يقفون ضد مبدأ التقمص. الفرق يكمن في الكلمات فقط؛ وبالتالي يجب إبقاء الباب مفتوحاً أمام النفوس، التي ترغب بولوج باب الرب، لكي تستطيع أن لا تشعر بذاتها مربوطة إلى دوغما – دوغما تعلّمها كما لو أنها بعد مغادرتها الحقل الأرضي الدنيوي سيكون مصيرها العودة إلى الوراء بقوة الكارما. إن النفس البشرية – عبارة عن شرارة الرب، ومع أن الله عاجز في الأرض، هو كلي القدرة في السماوات؛ وعندما قال المسيح: "... ليأتِ ملكوتك، لتكن

مشيئتك في الأرض كما في السماء ... " — فإنه قد أعطى المفتاح لكي نفتح الباب، الذي خلفه لغز تلك القوة العظيمة والحكمة المطلقة، اللتين ترفعان النفس فوق القيود .

فالنفس في نهاية الأمر ترتفع إلى حدود المستوى، الذي هو مستوى المثال — مثالها، عندئذ هي تنجز أو تكمل العمل الذي كانت تحلم به حين كانت على الأرض. في العالم الروحي أيضاً توجد صعوبات في عمل أو تحقيق شيء ما ، و إن كانت هي أقل مما في الأرض. إن قوانين ذلك العالم مختلفة عن قوانين هذا العالم من التقييدات، وهناك تجد النفوس بوفرة كل ما كان ينقصها هنا .

يمكن إيجاد أفضل تصوير للعالم الروحي في حكاية كريشنا . غوبي Gopi [1] بريندابانا طَلبْنَ بإلحاح من كريشنا أن يرقص معهن جميعهن في نفس الوقت. كان كريشنا يبتسم لكل واحدة ويقول لها أنه سيفعل ذلك عند اكتمال البدر . اجتمعن الـ " Gopi " في وادي بريندابandا، وعندئذ حدثت معجزة : مهما بلغ عدد الغوبي هناك ، كل واحدة منهن رقصت مع كريشنا ؛ تحقق حلم كلّ منهن. هذا درس يشرح كيف أنه يمكن إيجاد جوهر الذات الإلهية في كل نفس.

إن عالم الروح عصيٌّ بالنسبة للعقل، الذي يتعامل مع قوانين العالم المادي فقط. إن الفردانية، التي هي عبارة عن عنصر محدود هنا في العالم الفيزيائي، تشبه هذا العالم، أما النفس — هي شخص هنا وكوكب هناك. إذا دقق أحد ما في عجز هذا العالم، هو لن يستطيع أن يتخيل ولو للحظة العظَمة، السهولة، الأريحية، الشروط المناسبة والإمكانيات لدى العالم الآخر؛ هنا من صميم الطبيعة البشرية — إن ما هو غير معروف للإنسان، لا يمثّل بالنسبة له أية قيمة. في أحد الأيام جاء إلى حضرة علي شخص متشائم وقال: " هل توجد بالفعل حياة ما بعد الموت، التي توصينا الامتناع عن كل ما نحن نرغب به، وأن نعيش حياة مليئة بالفضيلة

1- تقول الحكاية أن البنات — الرعاة طلبن من الإله كريشنا أن يرقص مع كل واحدة منهن .. و كان كريشنا يعد كل منهن أن يعزف لها على الناي .. و في يوم من الأيام ظهلر لكل منهن في صورة مستقلة .. المترجم

وبالكرامة؟ " فأجاب علي : " إذا لم تكن هناك حياة آخرة، عندها سأكون أنا في وضع مثل وضعك؛ أما إذا كانت توجد حياة ما بعد الموت، فسأكون رابحاً وأنت خاسر ! ". الحياة تستمر، الموت ينتهي؛ ذاك، الذي يحيا سيبقى حياً، يجب أن يعيش؛ لا يوجد بديل آخر.

الظهور – عبارة عن حلم جميل، وهمٌ ناتج عن تراكم غلاف فوق غلاف، والروح مغطاة بآلاف الأغلفة. هذه الأغلفة تمنع عن النفس السعادة، وتجلب لها النشوة فقط. وكلما ابتعدت النفس عن مصدرها، كلما كانت النشوة أقوى. هذه النشوة تساعد النفس لدرجة ما في ترحالها في سعيها إلى الهدف، لكن النفس تبلغ هدفها عن طريق السعي الحماسي. فإلى ماذا هي تسعى بهذا الحماس؟ إلى اليقظة، إلى الصحوة. وكيف يتحقق ذلك الصحو؟ عن طريق رمي الأغشية، التي تغلف النفس والتي تبعدها عن مصدرها الحقيقي وعن الهدف. وما الذي يحرر النفس من تلك الأغلفة والأوهام؟ التغيير، الذي اسمه الموت؛ إنه معاناة كريهة جداً، أشبه بانتزاع قنينة الخمر من يد السكران ، ما يسبب له الألم الفظيع في البداية. أو إن هذا التغيير تنجزه الإرادة، بالتالي ترمي النفس الأغطية المحيطة بها، تبلغ ذلك الإحساس بالصحو وهي ما زالت على الأرض، وليكن هذا الإحساس خلال لحظة فقط؛ أن النفس، المنتشية بالأوهام، تبلغ هذا الإحساس خلال ملايين وملايين السنوات، ومع ذلك هو ليس ذات الإحساس.

معايشة الإحساس الأول – الفناء، الزوال، وإنجاز الثاني – البقاء، البعث. النفس، المشدودة بالقوة المغناطيسية للروح العلوية، الإلهية، هي تتحد معها بسرور، لا يمكن وصفه بالكلمات، كالقلب الولهان، الذي يندفع بين أيادي المعشوق. إن هذا السرور عميق لدرجة أن لا شيء، مما عاشته تلك النفس أثناء حياتها على الأرض، لم يمنحها هكذا نسيان للـ " الأنا " الخاصة بها. لكن هذا النسيان للـ " الأنا " يتحول في الواقع إلى وعي حقيقي للذات.

هنا بالتحديد تدرك النفس بشكل كامل: " أنا موجودة ". فقط النفس، التي تبلغ هذه المرحلة من الإدراك بطريقة واعية، هي تختبر أعظم الانفعالات والاختلاجات. هذا يشبه الفرق بين الشخص، الذي يسافر في نزهة بقصد محدد ، فيفرح لكل إحساس يعيشه في كل خطوة ويستمتع بكل لحظة من رحلته وهو يقترب أكثر فأكثر من هدفه، وبين ذاك الشخص، الذي لا يعرف شيئاً عن سير الرحلة.

المعنى الروحاني للقيامة

ما هي القيمة الفعلية للقيامة، الذي يجري الحديث عنها في الإنجيل؟ البعث – هو تلك اللحظة بعد الموت حين تصبح النفس مدركة لجميع معاناتها. بما أن النفس ترتبط بكل ما في الكون، فإن البعث الفردي – هو عبارة عن بعث كوني.

عندما قام المسيح من بين الأموات، هو قال: " مَن يؤمن و يتعمد يخلص..". أمواتٌ هم أولئك، الذين لم يَعوا خلودهم؛ يُبعَثُ ذاك، الذي يدرك أنه خالد؛ وكلمات المسيح تعني أن ذاك، الذي عرف الرب، أدرك الخلود، هو لن يموت أبداً، وأن أولئك الذين يؤمنون بالله – وهذا يعادل معرفة الله – لن يموتوا أبداً.

فقط الإنسان يمكن أن يعرف ما هو الموت؛ أما الطيور والحيوانات فهي تشعر بغياب الحركة، الذي يحصل كنتيجة للموت، هي تشعر بغياب الحياة، لكنها لا تدرك ما هو الموت في الحقيقة. لقد رأيت كيف أن طيراً، بعد أن قتلوا الذكر وسقط ميتاً، وقف بالقرب منه وراح يلمسه بمنقاره، وعندما شعر أنه بلا حركة وبلا حياة، أرخى رأسه ومات قبل أن يقترب الصياد. كما إنني رأيت كيف أن كلباً مات على الفور بعد أن شاهد كلباً آخر – صديقه قد مات، وقد امضيا معاً طيلة الحياة. مع ذلك، إن الحيوانات تشعر فقط بغياب الحركة، بغياب الرفيق. هي غير قادرة على إدراك الطبيعة الحقيقية للموت.

في الشرق غالباً ما يبني الصوفيون بيوتهم وأكواخهم بالقرب من المقابر، وكذلك في الغابات، بحيث أنهم إذا راقبوا الموت تذكروا أن الوقت مناسب للتغلب على الموت، وذلك من أجل أن يعوا خلودهم بعد الموت. من جديد ومرة أخرى إنَّ الإنسان في صورة القديس يدفع البشرية نحو معرفة الخلود.

لو أن كل مغزى البعث اقتصر على أن المسيح قد قام بعد موته، لكان هذا مجرد حكاية يمكن أن نصدقها أو لا نصدقها. لو أنهم آمنوا به فقط من هذا المنطلق، فكم طويلاً كان سيطول هذا الإيمان؟ إن مغزى الدرس إياه أعمق بكثير؛ هو يعني البعث من تلك الحياة الزائلة إلى الخلود. أولئك، الذين بُعِثوا إلى تلك الكينونة الخالدة الوحيدة، حيث لا فرق بين الزوج والزوجة، بين الأخ والأخت ، الأم والطفل، هؤلاء كلهم - أطفال القيامة.

التاريخ ينقل لنا، أنه حين جاءت مريم المجدلية مع مريم أخرى (مريم أم يعقوب - المترجم) إلى حيث دفن المسيح، فقد وجدتا أن الحجرة التي كانت على القبر قد دحرجت، وحين نظرتا إلى الداخل شاهدتا الأكفان وثوبه المقدس مرمية كل على حدة، لكن جسد المسيح لم يكن هناك. هذا الحجر - هو نفس الحجر، الذي تتحدث عنه الأساطير الهندية. الإله كريشنا يُلقَّب بـ: غيرفارا Hyrvara، أي الذي يملك حجراً، الذي يرفع الحجر. هذا الحجر يجثم على كل نفس فردية في الدنيا؛ إنه حجر " الأنا " الخارجية. عندما تتم إزاحته، فإن الإنسان يرتفع إلى الخلود. وفوق ماذا يرتفع؟ هو يرتفع فوق الجسد وفوق العقل. أما الأكفان والثوب، المرمية كل على حدة، فهي ترمز للجسد وللعقل.

إن الشعراء العِظام، الملحنين العِظام والكتاب العظماء غالباً هم يرتفعون فوق أجسادهم. هم لا يميزون أين يجلسون أو يقفون، هم يغوصون عميقاً في خيالهم ، فاقدين الإحساس بوجودهم الفيزيائي؛ لكنهم غير قادرين على الارتفاع فوق العقل . عندما يتمكن الوعي من الارتفاع فوق العقل، فوق الأفكار، عندئذ يكون هو حراً ، عندها يكون نشيطاً في عنفوانه، وعندئذ يمكن للكائن الأعلى المطلق أن يُظهِر نفسه للعقل.

إن الارتقاء إلى مستوى الوعي، الذي تنتفي عنده التمايزات - هي أعلى مراحل الانبعاث؛ لكن هناك مستويات أخرى، مثلما في المصعد لا يمكن الصعود إلى الطابق السابع دون المرور عند الثاني، الثالث، الرابع والطوابق الأخرى.

هذا شكل من أشكال البعث، عندما يكون صنو الجسد الفيزيائي قادراً على المشي، الجلوس والقيام بكل ما يمكن أن يفعله الجسد الفيزيائي. الصوفيون يسمونه عالم المُتَخَيل. هناك صوفيون يتقنون ذلك بشكل كامل، بحيث أنهم صاروا مستقلين نهائياً عن جسدهم الفيزيائي. لا وجود للموت في حال امتلاك ذلك.

عندما يبدع الشاعر قصائده، فقد يمر من أمامه خادمه، زوجته، مائة من الناس دون أن يراهم؛ بل لن يعرف أنه يوجد أحد ما بقربه. فإذا كانت محبة الشعر فقط يمكن أن تفعل ذلك، فكم بالأحرى يمكن أن تفعل محبة الحياة الداخلية. الانغماس في العالم الداخلي توجيه الوعي إلى الداخل!.

جاء في الإنجيل، أن تلامذة المسيح شاهدوا السيد عدة مرات بعد القيامة. هذا الانفعال، هذه المعاناة هي من طبيعة الأمور عند الذين يمارسون التركيز والاسترخاء – هكذا شخص يرى ما هو يثبت في وعيه، ليس فقط بواسطة رؤياه الداخلية، بل وما هو أمامه. هذه هي التجربة الأولى، التي يتلقاها كل متصوف. فالتلاميذ قد أضاعوا أنفسهم بعد أن انغمسوا في التفكير عن المسيح، فكيف أمكنهم أن لا يشاهدوه.

قال السيد المسيح: "المِسوني وتحققوا. الشبح لا يكون له لحمٌ وعظْمٌ كما ترون لي" (لوقا ٣٩ – المترجم). كلمة "شبح" لها عدة معانٍ مختلفة. هي تستعمل بمعنى الشبح أو بمعنى النفس، لكن في الواقع هي تعني الجوهر، الذي هو عبارة عن النقيض للمادة؛ ففي الظهور إن الروح تكون مناقضة للمادة بكل المعايير.

كل ما تراه العين ينبعث فيها. إذا أحد ما ذكّرنا بشخص آخر، حتى ولو نسينا تماماً هذا الشخص، فإن خياله ينتصب أمام أعيننا، فنراه في نفس البيت حيث رأيناه من قبل. نحن نرى ذلك ليس بالعين الفيزيائية، بل بالعين الداخلية. أنصار المادية قد يقولون، أن هذا ينشأ في الدماغ، لكن كيف يمكن للمخ أن يتسع لآلاف وملايين الأشياء والكائنات؟ بلا شك، لن يستطيع الإنسان، من دون تدريب خاص، أن يرى الروح، لكنه في النوم هو يرى نفسه، يدرك ذاته في المحيط المختلف، بين أناس مختلفين. وإذا قال أحدهم: "هذا مجرد حلم" –سوف أجيب: متى تسمون ذلك حلماً؟ تسميه حلماً عندما تكون في حالة اليقظة وحين ترى الاختلاف مع ما يحيط؛ عندها تقول: "هذا كان حلماً؛ وإلاّ لكان بقي معي، لكن هناك الكل كان مختلفاً". لكن لو أن واحداً اقترب منك وأنت نائم وقال: "هذا حلم" – لما كنت صدقت ذلك مطلقاً.

البعث – هو الصعود إلى تلك الحياة الحقيقية، إلى ذلك الصديق الفعلي، الذي يمكننا الاعتماد عليه وحده فقط من بين كل الأشياء وكل الكائنات، الذي لا يتغير ولا يتبدل، الذي دائماً معنا وسيبقى معنا إلى الأبد.

رمز الصليب

يعتقد الكثيرون أن هذا الرمز ظهر للوجود لأول مرة في زمن السيد المسيح، وأنه، بدون شك، انتشر أكثر بكثير بعد مجيء المسيح إلى العالم. لكن الحقيقة هي، أن هذا الرمز – قديم جداً، وقد استخدمه الروحانيون في أوقات مختلفة وفي كل العصور. وللصليب معانٍ صوفية كثيرة.

الصليب مؤلف من خط عمودي وآخر افقي. كل ما هو كائن إنما ينشأ من هذين الخطين ويمتد أفقياً وعمودياً، وهذا ما نشاهده في الوريقة التي تنمو في الطول والعرض. لذلك إن الصليب في معناه الأول هو تعبير عن الظهور، هو أيضاً يعني السفر إلى المثال الروحي، وليس هناك ما يعكس هذا السفر أفضل من الصليب.

عدا ذلك، في كل مرة يبدأ أحد ما الحديث أو العمل في سبيل الحقيقة، هو يلاحظ أن دربه مسدود؛ إنه الصليب الذي يقف في طريقه. أعلنْ الحقيقة أمام الشعب، في وجه كل العالم، وإذ بالصليب، الحاجز، ينتصب كجواب للشعب أو للعالم كمقاومة للمتكلم. بهذه الطريقة، إن الوجه الآخر لهذا اللغز – حياة المعلم: الصليب يعني ما سوف يصطدم به، حاملاً إلى العالم رسالة الحق.

هناك سر عظيم آخر للصليب، نادراً ما يكون مفهوماً. في كل مكان خارجنا يوجد فضاء – هكذا فضاء، يمكنه أن يسع، أن يحتوي في ذاته. لكن وفي داخلنا يوجد فضاء يمتد في اتجاه آخر.

إلى جانب تلك المعاني الرمزية، إن الصليب – هو علامة طبيعية، كان الإنسان قد أنشأها منذ القدم، إنطلاقاً إما من قدراته الفنية أو من العقلية. هذه هي طبيعة النور – ينشر أشعته،

خاصة إذا كان هذا النور مطلق الكمال. لو نظرنا إلى الشمس – خصوصاً وهي تغيب – فسوف نرى خيوطاً تظهر في السماء وعلى الأرض: في البداية هو مجرد خط مستقيم واحد، لكن إذا دققنا النظر، فسوف نجد كيف أنه من هذا الخط الأول العمودي ينشأ خط أفقي. إذا راقبنا النور بدقة، فسوف نعي، أن هذه هي خاصية النور – إنتاج خطين، أفقي وعمودي؛ وطالما هذه هي طبيعة النور الخارجي – إنتاج الصليب، فهذه بالتأكيد هي أيضاً خاصية النور الداخلي. النور الخارجي هو عبارة عن انعكاس للنور الداخلي، وخاصية النور الداخلي هذه بالتحديد تتظاهر في النور الخارجي. من كل ذلك يمكن استخلاص، أن النور الداخلي لا يتظاهر في النور الخارجي وحسب، بل وأن النور الخارجي هو عبارة عن تجسيد للنور الداخلي.

كما يمكننا أن نلاحظ، ونحن نراقب الأشكال الطبيعية – شكل الشجرة، النبات، الزهرة، أشكال الحيوانات والطيور و أخيراً، الشكل الأكثر تطوراً والأحسن تنظيماً – الإنسان، أن كلها تعكس رمز الصليب. نوعاً من الصليب يمكن أن نراه إذا دققنا في بناء الرأس البشري. صليب آخر يوجد في الهيئة البشرية ككل. بالتحديد، إن الخط الأفقي والخط العمودي هما اللذان يفترضان رمز الصليب دوماً، وليس هناك من شكل لا يحتوي ولو ضمناً خطوطاً أفقية وعمودية؛ وهذان الجانبان أو الاتجاهان المختلفان بالضبط هما اللذان يشكلان الصليب. هذا يسمح لنا افتراض أن لغز الشكل يخفي وراءه الصليب.

و الآن سننتقل إلى واحد من الألغاز الأولى التي ذكرناها أعلاه، بالتحديد، حول كيف أن رحلة الإنسان على درب الكمال الروحي يمكن أن يرمز لها بالصليب: أولاً، الإيغو البشرية، "الأنا" البشرية تقف كالعدو بالنسبة له وتعيق حركته. بعض المشاعر كالكبرياء، الغرور، الأنانية، الغيرة، الحسد والاحتقار – كلها مشاعر تؤذي الآخرين وتهدم حياة صاحبها نفسه لتملأها بتلك المعاناة، التي تنشأ من رحم ذلك الإحساس الأناني الشخصي: أيغو Ego الإنسان. كلما كان الفرد أنانياً، كلما كان أكثر رضى عن نفسه، كلما كانت حياته أكثر تعاسة بين الناس وبذلك هو يجعل تعيسة حياة الآخرين. هذه الايغو، أو النفس، عبارة عن تطور طبيعي للحياة البشرية أو لقلب الإنسان: كلما عرف الإنسان الدنيا أكثر، كلما أصبح أكثر أنانية؛ كلما هو فهم واكتسب خبرة عن الحياة، كلما صار جشعه أكبر.

ليس صحيحاً، أن الإنسان يجلب معه أفعاله عند ولادته. هو يأتي إلى هذا العالم بريئاً، مع ابتسامة الرضيع، صديقاً لكل من يكون بقربه، مستعداً لإلقاء نظرة محبة على كل شخص، بغض النظر عما إذا كان غنياً أو فقيراً، صديقاً أو عدواً، يسحره الجمال في كل أشكاله. بالضبط، هذه الصفات في الطفل هي التي تجذب إليه كل قلب. هذا يدلّ على أن تلك النفس، التي تأتي مع هكذا قلب نقي، مع هكذا تعابير بريئة، مع حركات محض جميلة، هي التي تُطوِّر في طبعها، مع تقدم الإنسان في هذا العالم، كل ما هو قاتل وضار بالنسبة لها، أي النفس، وبالنسبة للمحيطين بها. حصراً في هذه الدنيا، خلال عملية النضج، الإنسان يكوِّن " النفس " – نفسه. لكن في أعماق القلب تبقى تلك الفضيلة، التي هي فضيلة ربانية، ذلك الصلاح، الذي يرثه الإنسان عن الأب السماوي.

الميل نحو الفرح، إلى الهدوء والسكينة والسلم يستمر لديه، وهذا يشير إلى أن للإنسان وجهان أو طبيعتان: طبيعة واحدة مخفية في أعماق قلبه، وطبيعة أخرى تنشأ وتتطور بعد قدومه إلى هذا العالم. بعد ذلك، ينشأ صراع، كفاح بين هاتين الطبيعتين، حين تشعر الطبيعة الجوانية العميقة بالحنين إلى شيء ما. هي تتوقع الخير والطيبة من الآخرين، عليها أن تعيش بسلام وهدوء في هذه الحياة، وعندما لا تتمكن من الحصول على كل هذا، ينشأ الانحلال الداخلي.

الإنسان يصنع خلل الهارمونيا خاصته في نفسه ومن ثم يعامل الآخرين بنفس الطريقة؛ لذلك هو يصبح غير راض لا عن حياته الخاصة، ولا عن المحيطين به، لأنه يشعر في قرارة نفسه بعدم الرضى عنهم، مع أن السبب يكمن فيه هو ذاته. ما يعطيه الإنسان هو يتلقاه دون أن يدرك ذلك. إنه دائماً يعتقد، أن على كل شخص أن يعطيه ما يشتهي هو في أعماق كيانه: الحب، الطيبة، العدل، الانسجام والسلم، لكن حين الأمر يتعلق بالعطاء، فهو لا يعطي، لأنه يعيش حياة أخرى، هو أبدعها بنفسه. هذه يبين أن في كل شخص ينشأ جوهر، وهذا الجوهر هو النفس، عملياً هذا هو ذات المفهوم عن الشيطان، الذي نصادفه في جميع الكتب السماوية وفي العادات الدينية.

لقد قسم البشر العالم في أكثر الأحيان بين عنصرين روحانيين: القسم الأصغر من البشرية للإله، والقسم الأعظم من البشرية – للشيطان، مفترضين أن مملكة روح الشيطان أكبر وأوسع من مملكة الإله. لكن إذا أدركنا معنى كلمة " شيطان "، سيصبح واضحاً، أنه عبارة عن روح الضلال، الذي تجمّع وتراكم في الإنسان منذ لحظة قدومه إلى الأرض ؛ إنه النفس ، التي تتصرف كما الشيطان، فتحرفه عن دربه وتغلق قلبه عن نور الحقيقة والحق. بمجرد أن يحصل انقلاب في حياة الإنسان، بمجرد يبدأ هو التطلع أعمق إلى الحياة، بعد أن يتعرف إلى الخير، ليس متلقيا له وحسب، بل ومانحاً له، بمجرد أن يعلم أن يفرح ليس فقط لمشاعر المحيطين تجاهه، بل ولمشاعره تجاههم، عندئذ يحلّ الوقت كي يتمكن من رؤية روح الشيطان منفصلاً ومبتعداً عن كيانه الحقيقي البدئي، يقف في طريقه، دوماً في صراع مع قوته الخلْقية، مع حريته وميوله؛ وعندها يرى أن بإمكانه أحياناً أن يفعل ما يرغب به، وأحياناً يمتلكه الروح ذاك ولا يسمح له بفعل ما يشاء . في بعض الأحيان هو يكتشف نفسه ضعيفاً في هذا الصراع ، وأحيانا يكون قوياً. في المحصلة يستنتج ، أنه حين يجد نفسه قوياً في هذه المعركة، يكون شاكراً وراضياً، وحين يجد نفسه ضعيفاً في الصراع، يتوب ويخجل ويتمنى تغيير ذاته.

بالضبط في هذه المرحلة تبدأ حقبة جديدة من حياة الإنسان، بدءاً من تلك اللحظة ينشأ الصراع بينه وبين الروح، الذي يمثّل الإيغوEgo عنده . إنه صراع بالتحديد، هو نوعاً ما عائق في طريق طبعه الفطري، ميله الفطري نحو فعل الخير وتوقه إلى العدل؛ وهو يصطدم دوماً بهذه الروح، لأن ذلك كان قد خُلِق في قلبه الخاص وصار جزءاً من كيانه. أنه كيان متكامل ومادي، وهو واقعي إلى الدرجة، التي يشعر معها الإنسان بذاته، أحياناً ربما أكثر واقعية، وبشيء ما في داخله، في أعماق كيانه، ما هو مخفي بدقة وراء هذا الكيان. وهذا الصراع الدائم ما بين " أناه " الحقيقية، الأولية وبين هذه " الأنا "، التي تعيق التطور الروحي للإنسان – هذا الصراع يصور على شكل صليب.

هذا الصليب يحمله الإنسان على طريق سيره نحو الكمال. المشاعر الملتهبة والخشنة، محبة الراحة والشعور بالرضى من الغضب والانفعال – هذا ما يجب أن يتغلب عليه بالدرجة

الأولى، وعندما ينتصر على ذلك، فإن ما سيصطدم به لاحقاً سوف يبدو عدواً له في عقله، غير مُدرك بدرجة أكبر: الحساسية تجاه ما يقوله الآخرون حوله، تجاه رأي الآخرين عنه. هو يحاول معرفة رأي كل شخص عنه، أو - ماذا يقول كل واحد ضده، أو - فيما إذا كانت سمعته أو اعتباره قد تعرضتا للإجحاف والنقصان. هنا من جديد ذات العدو - النَفْس، يتخذ موقفاً آخر، وتنشأ عملية صلب على الصليب، طالما يدور صراع مع هذه النفس، إلى حين ينضج الفهم بأنه لا مكان لأي " أنا " أثناء تأمل الله.

و هذا هو الصلب الحقيقي بعينه؛ لكن مع هذا يضاف آخر، يساعده دائماً ويجب على كل نفس أن تختبره، لأن كمال وتحرر كل نفس يتوقف عليه. إنه صلب ذلك الجزء من الكائن البشري، الذي أنشأه الإنسان في ذاته والذي لا يشكل " أناه " الحقيقية، بالرغم من أنه خلال عملية التطور دائماً يبدو كما لو أن الإنسان يصلب نفسه.

يكمن لغز الصلب في الإنتفاء - في إنتفاء ليس " أنا " الحقيقية، بل الكاذبة، التصور الكاذب عن الذات، الذي طالما علّل الإنسان نفسه به في قلبه والذي سمح له أن يعذّبه على مدى حياته كلها. لا نشاهد نحن مثل ذلك بين أصدقائنا ومعارفنا؟ أولئك، الذين يعجبوننا، وأولئك، الذين نحبهم وبمن نحن معجبون، هم دوماً يمتلكون صفة واحدة وحيدة يمكن أن تدهشنا: الفردية. القضية لا تكمن فقط في أنه يجذبنا نكران الذات لديهم، بل في أن ما ينفّرنا في حياة المحيطين بنا - ليس سوى النفس المنفوخة المتضخمة أو، بكلمة أخرى، كثافة وثقالة تلك الروح التي صنعناها بأنفسنا، أو الايغو Ego.

قلة هم مَن فهموا موعظة المسيح، حين قال: " هنيئاً للمساكين في الروح " (لوقا ٦ : ٢٠ - ٢٣. المترجم). المقصود هنا ليس الفقراء بالروح الإلهية، بل الفقراء بتلك الروح التي صنعناها بأنفسنا، وأولئك، الذين هم فقراء بهذه الروح " المحلية " - هم أغنياء بالروح الربانية. لذلك يمكن اعتبار النفس روح الجسد، لكن كلمة أيغو Ego مناسبة أكثر.

دوماً يوجد اتجاهان: واحد - نحو الإخلاص والصدق، آخر - نحو النفاق والكذب. هما يعملان معاً بصورة دائمة. الكذب والصدق موجودين دائماً جنباً إلى جنب في الحياة وفي

الطبيعة. هناك، حيث يوجد ذهب حقيقي، يوجد ذهب مغشوش أيضاً، حيث يوجد الماس طبيعي، يوجد الماس مزيف، إلى جانب الناس المخلصون، يوجد آخرون منافقون: وهكذا في كل جانب من الحياة – في الحقل الروحي، في مجال اكتساب المعرفة، في الفن وفي العلم – يمكن أن نصادف الإخلاص والرياء على حد سواء. والطريقة الوحيدة لمعرفة التطور الروحي الحقيقي – هو معرفة درجة التفاني، لأنه مهما حاول الإنسان إدعاء الروحانية ومهما حاول الظهور بمظهر الفضيل أو المتدين أو التقي، فإنه لن يستطيع إخفاء جوهره الحقيقي. بما أن الايغو Ego تسعى دوماً للهروب إلى الخارج، فهي ستخرج من تحت سيطرته، وإذا كان هو منافقاً، فهو لن يتمكن من إخفاء ذلك. كما هو الألماس المزيف – مهما لمع، فهو سيبدو باهتاً بالمقارنة مع الأصلي، وإذا ما اختبر وامتحن سيتبين أنه تقليد، كذلك هو التقدم الروحي الأصلي يجب أن تثبته شخصية النفس. فالشخصية بالضبط هي التي تبرهن فيما إذا كان الشخص قد لامس ذلك الحقل الواسع، حيث لا وجود لل " أنا ".

المسرحية الدينية الأخرى لرمز الصليب يمكن أن نتتبعها من خلال حياة الرسل، الأنبياء والقديسين. قبل كل شيء، لن يدخل أحد إلى مملكة الرب ما لم يصلب. الشاعر الفارسي العظيم عراقي[1] Iraki يروي لنا كيف هو جاء إلى بوابات المعشوق وقرع الباب فأجابه صوت: " في هذا المسكن لا يوجد مكان لواحد آخر. عُدْ من حيث أتيت "، – وعاد إلى حيث كان. ثم، بعد وقت طويل وبعد عبور عملية حمل الصليب، وبعد الصلب، جاء من جديد، تغمره روح نكران الذات في هذه المرة، قرع الباب، فجاء الجواب: " مَن أنت؟ " – فقال هو: "أنت الواحد الأحد، لأنه لا أحد سواك". فقال الرب: " ادخل هذا البيت، لأنه الآن هو ملكك ".

نكران الذات هذا بالضبط، عندما لا تعود إلى الظهور حتى مجرد أفكار عن " الأنا "، عندما تموت " الأنا "، هذا هو إدراك الإله. يمكن إيجاد هذه الروح لدرجة معينة في العاشق وفي

1 – فخر الدين عراقي توفي عام ١٢٨٩ – متصوف شهير، صاحب المرجع الكلاسيكي في التصوف " دفقات أو إشعاعات إلهية " – المترجم

المعشوق ببساطة، حين يحب شخص ما شخصاً آخر بكل جوارحه. عند مَن يقول: " أنا أحبك لكن إلى حد معين ، أحبك ، لكن أمنحك ستة بنسات و ابقي لنفسي ستة بنسات، أحبك، لكن ابقي مسافة معينة، أنا لن اقترب أكثر أبداً، نحن – كائنان مستقلان " – الحب عند مثل هذا يختلط مع " أناه ". طالما هذا قائم، فإن الحب لن يؤدي مهمته بشكل كامل. ينهي الحب وظيفته عندما يفرد جناحيه ويحجب " الأنا " الخاصة بالشخص عن عينيه. هذه لحظة تحقيق العشق. نفس الشيء يحدث خلال حياة القديسين، الذين يحبون الرب، ليس فقط بالتصاريح أو بالإعلان عن ذلك، بل إلى درجة أنهم ينسون أنفسهم. هذه الحالة من إدراك الكائن يمكن تسميتها بالصليب.

لكن، إن مثل تلك النفوس تتخذ لها فيما بعد صليباً في كل مكان؛ كل خطوة تقوم بها هي عبارة عن صليب، تمثّل عملية صلب. مع أنها، النفوس، تعيش بشكل عام في عالم مليء بالكذب، عالم مليء بالخداع، بالغدر والخيانة، بالأنانية، فإن كل خطوة تقوم بها، كل تصرفاتها، كل ما تقوله أو تفكر به، يبرهن على أن عيونها وقلوبها مفتوحة لما هو مختلف عما يتطلع إليه العالم. إنه صراع دائم. العيش بسلام، العيش بين الناس والنظر باستمرار إلى المسكن، الذي هو غير ذلك. حتى لو حاولوا الحديث عن ذلك فإنهم لا يستطيعوا. فالكلمات لا تكفي للتعبير عن الحقيقة؛ واللسان غير مهيأ نهائياً لكي يقدم توصيفاً صحيحاً عن الحقيقة. كما جاء في الفيدا – العالم هو المايا[1] Maya. والمايا تعني شيئاً ما غير واقعي. بالنسبة لتلك النفوس العالم يصبح متخيلاً إلى حدٍّ بعيد، وبمجرد تبدأ هي برؤية الواقع، وحين هي تقارن العالم مع هذا الواقع، فإنه يبدو أكثر غرابة بكثير. لا يوجد كائن عادي واحد قادر على أن يتصور إلى أية درجة يتعرى جوهر هذا العالم في عيون تلك النفوس.

أولئك الناس، الذين هم جيدون في الدنيا، لكن لم يبلغوا الكمال الروحاني، الذين هم حساسون، رقيقون، طيبون، يشاهدون كيف يتعامل معهم العالم، كيف لا يفهمونهم، كيف

1- المايا – مفهوم أساسي في الفلسفة الهندية.. له عدة معان: الأكثر شيوعاً – الاعتقاد بعدم واقعية العالم المرئي (مجرد وهم)، الذي يخفي وراء تنوعه الجوهر الفعلي – البراهما – كحقيقة وحيدة. المترجم

أن الانانيين يبتلعون كل شيء ، كيف أن كريم النفس مضطر لأن يعطي أكثر وأكثر ، كيف أن مَن يخدم عليه أن يخدم فترة أطول وأطول، ومع ذلك فإن العالم غير راض. كم هي الحياة منغصة ومزعجة لمثل هؤلاء الناس ! وتفكروا في أولئك، الذين بلغوا هذا المستوى من الوعي، حيث تنشأ هوة واسعة بين الواقعي وغير الواقعي، والذين تصبح لغتهم — حين يبلغون ذلك المستوى من الإدراك — غير مفهومة، مما يضطرهم إلى الكلام بلغة غير لغتهم الخاصة، فينطقون ما هو مختلف عما هم يدركون . هذا أكثر من صليب . ليس السيد المسيح وحده مَن اضطر إلى حمل الصليب؛ كل معلّم كان مصيره نقل الرسالة — يمتلك صليبه الخاص.

لكن، عندئذ قد يطرح سؤال، لماذا جميع الرسل، الذين جاءوا خلال جميع القرون وكان مصيرهم أن يحملوا الصليب، لماذا لم يخرجوا إلى الغابات، إلى الكهوف، إلى الجبال، لماذا ظلّوا بين الناس؟ لقد انشأ جلال الدين الرومي صورة رائعة عن ذلك. هو يقصّ، لماذا يخترق لحن الناي القصبية قلوبنا بمثل هذا العمق. هذا، كما يقول هو، لأن الناي بداية تقتطع عن جذعها الغالي، ثم تصنع الثقوب في قلبها، بحيث أن القلب يتقطع، فتبدأ هي بالبكاء . نفس الشيء يحدث مع روح الرسول، مع روح المعلم: بفضل حمل الصليب والصبر على حمله، فإن "أناه" تصبح، كما القصبة، فارغة. هذا يمنح الملحن فرصة أن يعزف لحنه؛ عندما "الأنا" تصبح لا شيء، فإن الملحن يستخدمها لكي يعزف مقطوعته. لو أنه بقي شيء آخر في الداخل، لما كان الملحن استطاع استخدامها.

الرب يتحدث إلى الكل، ليس فقط إلى الرسل والمعلمين. هو يتحدث إلى آذان كل قلب، لكن ليس كل قلب يسمعه. صوته أقوى من الرعد، ونوره اسطع من الشمس — فقط إذا كنت تستطيع سماعه، إذا كنتَ تستطيع رؤيته. لكي يتمكن الإنسان من السمع والرؤية، عليه أن يزيل ذلك الجدار، ذلك الحاجز، الذي أقامه من "الأنا" خاصته. عندئذ يتحول هو إلى ناي، حيث يستطيع الموسيقار الإلهي أن يعزف عليها موسيقى أورفيوس[1]، القادرة على سحر حتى قلب الحجر؛ عندئذ يصعد الإنسان عن الصليب إلى الحياة الابدية.

1- أورفيوس Orpheus ابن ربة الفن. علمه ابولو العزف على القيثارة، حتى أصبحت موسيقاه تحـرك الآلهة والناس والحجارة.. الخ — المترجم

أورفيوس
Orpheus

يوجد دوماً مغزى عميق في أساطير اليونانيين القدماء، كما هو الأمر عند الهندوس، كما عند الفرس والمصريين. فمن الممتع أن نلاحظ، كيف أن الفن عند اليونانيين، الذي هو بحد ذاته روعة في الجمال، له معنى أعمق أكثر، مما يبدو للوهلة الأولى. ونحن ندرسه يمكننا أن نمتلك المفتاح إلى تلك الحضارة القديمة.

كمثال على ذلك يمكن أن نذكر المعنى الرمزي للأسطورة المتعلقة بأروفيوس. يعلمنا الجزء الأول من تلك الخرافة، أنه ليس هناك ما قد يتمناه الإنسان يوماً ما من كل قلبه، ويمكن أن يضيع بالنسبة إليه نهائياً. حتى إذا كان موضوع الشغف، الذي تمناه المرء في وقت ما، موجوداً في أعمق أعماق الأرض، حيث يمكن للعقل وليس للعين أن يرى، فإنه سيناله رغماً عن كل شيء إذا سعى إليه بتصميم كاف. الشيء الآخر، الذي سنتعرف عليه، يقوم على أن الرغبة وحدها لا تكفي لبلوغ ما نتمناه، فإلى جانب الحب والرغبة يحتاج الأمر إلى الحكمة، تلك الحكمة التي تتوقد في الهارمونيا وتدخل في توافق مع القوى الكونية الفلكية، لتساعد الإنسان في الحصول على رغبته.

إن حكماء جميع العهود والبلدان اعتبروا صحيحة المقولة حول أن مَن يمتلك أسرار الصوت هو يعرف علوم الحياة كلها؛ وبهذه الطريقة فإن نداء أورفيوس للآلهة يكون معناه، أنه، أي أورفيوس، دخل في احتكاك مع جميع القوى المتناغمة، التي – بعد إتحادها – حملت إليه الموضوع الذي سعى هو لبلوغه. لكن الجزء الأكثر سحراً من الأسطورة سواء من الناحية الفنية أو من الناحية الرمزية، هو الخاتمة. لقد انطلق أورفيوس في الطريق مصطحباً معه

يوريديس[1] Erudite، وقد أعطى وعداً أنه لـن ينظـر إلى الـوراء . لأنـه في تلـك اللحظـة، الـتي سيتطلع فيها خلفه، فإنهم سينتزعون منه يوريديس إلى الأبد . إن المغزى من هذا يكمن في أن سر كلّ إنجاز أو نصر يكمن في الإيمان . إذا كان لدى الإنسان ما يكفي من الإيمان بنسبة ٩٩ ٪ و لكن ينقصه ١ ٪ حتى بلوغ الهدف ، فإنه مع ذلك – طالما يوجد شك، لن يبلغ الغاية المطلوبة. يمكن استخلاص الدرس التالي من ذلك – الدرس، الذي يمكننا تطبيقه في كل ما نفعل في هذه الحياة، في كل خطوة دنيوية : لكي نحقق هدفاً ما لا بد لنا من الإيمان. إذ أن أي نقص في الإيمان على شكل شكوك يمكنه أن يقضي على كل ما أنجزناه.

" حقاً، اليقين – نور، والشك – ظلام ".

1- يوريديس Eurydise: حورية، زوجة أورفيوس.. عندما هربت من ملاحقات ارستيوز داست على أفعى فماتت.. وقد سُمِح لها بالعودة من العالم السفلي بشرط أان لا يلتفت أورفيوس إليها في طريق العودة. لم يستطع أن يقاوم فنظر فعادت أدراجها إلى العالم السفلي حيث بقيت فيه إلى الأبد – المترجم.

لغز النوم

كما نلاحظ في حياتنا اليومية، أن أفضل صديق بالنسبة للطفل – هو مَن يساعده أن يغفو. مهما قدمنا له من الألعاب، مهما قدمنا له من الأطعمة والدمى، فإن الطفل أكثر ما يكون شاكراً لذاك، الذي يساعده على النوم. عندما تهزّه اليد المباركة للأم، فإن ذلك هو أكبر خدمة بالنسبة للطفل ؛ ففي هذه اللحظات بالضبط هو يشعر بالسعادة الحقيقية.

إذا استطاع الأشخاص المرضى، أو الذين يعانون من الألم، أن يناموا فإنهم يكونوا سعداء. عندئذ يختفي الألم نهائياً. فإذا تمكنوا من الإغفاء، فهذا يعني أنهم يستطيعون تحمل كل شيء. لذلك هم يَرجون الطبيب أن يعطيهم أي شيء قد يساعدهم على النوم. إذا عرضنا على الإنسان قصراً ملكياً مع كل ما يلزم للبذخ ، كل أنواع الراحة و الخدم و أفضل صنوف الأطعمة، مع شرط أنه لن يتمكن من النوم، فإنه سيقول: " لا أرغب في ذلك، من الأفضل لي أن أنام ! ".

الفرق بين السعداء والتعساء يكمن في أن التعساء لا يستطيعون أن يناموا. مختلف أنواع الندم، المصاعب، القلق والمخاوف قد حرمتهم النوم. ما الذي يدفع الناس لتناول الكحول ومختلف أنواع المخدرات؟ هذه الأشياء بالضبط. عندما يتناول المرء الكحول يزوره نوم سطحي، ناتج عن منشط قوي. أطرافه الأربعة نائمة ، لسانه نائم – لا يستطيع الكلام بشكل واضح ، غير قادر على المشي مستقيماً ، فيسقط . الفرح من هذا النوم عظيم لدرجة، أن الشخص الذي خبره يوماً، سيلجأ إليه من جديد . آلاف المرات يقسم أنه لن يعود إلى تناول الكحول، لكن كل شيء يتكرر.

جاء في إحدى قصائد الرومي : " أوه ، أيها النوم ، في كل ليلة أنت تحرر الأسير من القيود ! " . فالأسير لا يدرك أثناء نومه أنه أسير ؛ هو حر . والتعيس لا يشعر أنه تعيس ؛ إنه مسرور . والمريض لا يعود يشعر بالألم أو بالمصيبة . هذا يشير لنا ، أن النفس لا تعرف لا الألم ولا التعاسة . لما كان الأمر كذلك ، فإنه سيبقى كذلك دائماً ، طالما الجسد نائم . فالنفس لا تشعر بمعاناة الجسد والعقل ؛ فقط عندما يستيقظ الإنسان ، تبدأ النفس التفكير في أنها تعاني من تأثير الألم والتعاسة . كل ما ذكر يساعدنا في فهم المغزى العظيم للنوم . وهذه البَرَكة العظيمة تُعطى لنا دون مقابل ، كما كل ما هو فاضل في الحياة . فنحن لا ندفع شيئاً مقابل النوم . نحن نصرف آلاف الجنيهات من أجل المجوهرات ، من أجل الأحجار ، التي لا تقدم لنا أية فائدة ، بينما يمكننا شراء الخبز لقاء قروش .

لا يقدّر الإنسان الأهمية العظيمة للنوم ، لأن الفائدة التي يقدمها لا يمكن لمسها أو رؤيتها . إذا كان الإنسان مشغولاً ، إذا كان يمارس عملاً يدر عليه المال ، فإنه يقوم به على حساب النوم ، لأنه يرى أنه يحصل على كمية كبيرة من الجنيهات وعلى الكثير من الفلوس ، لكنه لا يلاحظ ماذا يقدم له النوم .

عندما ننام ، فإننا نختبر حالتين : الأحلام والنوم العميق . الحلم — نشاط خارج سيطرة العقل . عندما نكون متنبهين ، حين يعمل عقلنا بدون سيطرة ، فإنه يظهر لنا لوحات قادمة من خزان الانطباعات — نسمي ذلك الخيال . عندما نضبط ونسيطر على نشاط عقلنا نحن ندعو ذلك فكرة . لوحات الخيال ، التي تنشأ أثناء النوم ، ندعوها منامات . نحن لا نعتبرها واقعاً ، لأن الحالة اليقظة تُظهِر لنا شيئاً آخر ؛ لكن ما لم نستيقظ ، فإن الحلم بالنسبة لنا يكون واقعياً .

عادةً الإنسان لا يعي شيئاً أثناء النوم العميق ، وعندما يستيقظ فهو يجد نفسه متجدداً وطازجاً . ماذا نفعل عندما نغفو بسرعة؟ في هذه الأثناء تتحرر النفس من قيود الجسد والعقل . تصبح حرة . هي تنتقل إلى عنصرها الخاص ، إلى الحقل العلوي ، تفرح لمكوثها هناك وتشعر بالسعادة . إنها تشعر بالسعادة الكاملة ، بالبركة وبالسلم الكاملين ، الموجودين هناك .

بالإضافة إلى الأحلام والنوم العميق ، يمكن أن تأتينا الرؤى . نحن نشعر بها عندما تكون النفس نشيطة في المجالات العلوية . كل ما تراه النفس هناك يقوم العقل بنقله إلى صور

ولوحات مجازية. النفس تشاهد أشياء حقيقية، أما ما يتلقاه العقل من تلك الانطباعات فهو يتطابق إلى درجة معينة مع ما تراه النفس فقط. لذلك يتم تلقي الشيء على شكل لوحة، استعارة وتعابير مختلفة يمكن للحكيم أن يفسرها، لأنه يعرف لغة تلك المجالات. إذا هو رأى نفسه يصعد جبلاً أو يهبط جبلاً، إنْ هو رأى نفسه في ثياب رثة أو في لباس أنيق، في الطائرة أو في الصحراء، فإنه يعرف ماذا يعني كل هذا. بينما الإنسان الجاهل لا يعرف؛ هذا ببساطة يعتقد أن ذلك مجرد حلم لا أكثر.

يستشف الإنسان في الرؤية إما ما يتعلق به ذاته، أو ما يتعلق بأشخاص آخرين يهمه أمرهم. إذا كان يهتم لشعبه أو بالبشرية ككل، فإنه سيرى ما يجب عليه أن يفعل لخير شعبه أو البشرية.

يمكن أثناء النوم سماع الصوت أو تلقي رسالة مؤلفة من أحرف. هذه صيغة أكثر تطوراً للرؤية. القديسون والحكماء يتأملون في الرؤية بالتحديد ما يجب أن يحدث، أو ظروف الوقت الحاضر، لأن عقلهم يقع تحت سيطرة الإرادة. حتى خلال النوم لا يحاول العقل لديهم ولا لثانية أن يعمل من دون إشراف إرادتهم. لذلك، بغض النظر عما تراه النفس عندهم، فإنه يتطابق تماماً مع الرؤية. هم يمتلكون رؤى حتى في اليقظة، لأن وعيهم غير مرتبط بالمستوى الأرضي، الدنيوي. الوعي عندهم متنبه ويعمل بحرية في المجالات العلوية.

إلى جانب الرؤية، الأحلام والنوم العميق، أن الروحانيين يعيشون كذلك حالتين أخريين: الحلم المصطنع التلقائي والنوم العميق الناتج من تلقاء ذاته. الوصول بذلك إلى الكمال – غاية الروحانية. هذا بسيط للغاية، بحيث يمكن شرحه في بضع كلمات، وفي نفس الوقت معقد لدرجة أنني انحني أمام أولئك، الذين استطاعوا بلوغ ذلك. تحقيق ذلك ممكن عن طريق التركيز والتدريب.

من الصعب جداً الاحتفاظ بفكرة واحدة في العقل وتحريره من جميع الأفكار واللوحات الأخرى. آلاف الأفكار، آلاف اللوحات تأتي وتختفي. إن الروحاني عن طريق تحكمه بذلك،

يتحكم بكل شيء: بعد ذلك هو يتنبه في هذا المستوى كما هو يفعل في المستوى العلوي، فيصبح بالنسبة له الحلم أولاً ، والثاني – اليقظة. يمكن أن يقول الناس، أن الروحانيين، الذين اكملوا وتمموا ذلك – هم مؤمنون عِظام بالغيب Occultism[1]، إنهم أناس يمتلكون طاقات عقلية ونفسية كبيرة؛ لكن غايتهم لا تكمن في ذلك. إن هدفهم – هو الإدراك الحقيقي، الحياة الفعلية في الجانب الآخر: أي الله. عندما تصبح هذه الحياة مكشوفة بالنسبة لهم، فإن الحكمة كلها تصبح مفتوحة للنفس، وبالتالي إن جميع الكتب وجميع تعاليم الدنيا تصبح مفهومة بالنسبة إليهم.

1- من الكلمة اللاتينية Occults – غامض، سري. تسمية عامة للتعاليم، التي تقر بوجود قوى غيبية في الإنسان وفي الكون، معروفة فقط "للمطلعين" الذين خضعوا لتدريب نفسي معين. على العموم – الـ Occultizm هو مناقض للعلم. المترجم

الإدراك

هل بإمكان الوعي أن يرى بدون عيون أم يحتاج إلى عيون من أجل ذلك – سؤال يخطر على بال جميع الماورائيين (الميتافيزيقيين). إذا كان الوعي بحد ذاته قادراً على الرؤية، بدون مساعدة العينين، فلماذا إذاً خلقت العيون؟ بعض الناس يستطيعون رؤية ما يحدث على مسافة مئات كثيرة من الاميال أو ما سيحدث بعد سنين كثيرة. عاش في مدينة حيدر آباد درويش اعتاد على تدخين الحشيشة القوية. كان ينظر إلى الدخان وهو ينفثه من فمه، مستعداً للإجابة على أي سؤال يطرح عليه. إذا سأل أحد ما: "أين هو الآن عمي؟" كان باستطاعته أن يجيب: "عمك؟ في كالكوتا، قرب البازار، في البيت الثاني من جهة اليسار. عمك يجلس في غرفته، بجانبه خادمه، وأمامه يقف طفله". كان دوماً يعطي الجواب بغض النظر عن السؤال، الذي يطرح عليه. أمام وعيه لم يكن يوجد "أنا" الخارجية، ولذلك كان بإمكان هذا الوعي أن يرى بواسطة عيون إنسان آخر – العم أو واحد آخر. لكنه لم يكن يرى كل ذلك من دون مساعدة العيون.

عندما كنت في روسيا التقيت هناك رجلاً أفريقيا، بسيطاً بدون أي تحصيل علمي. كان يستطيع أن يعرف ليلاً، وهو نائم، ماذا قال أو ماذا فعل كل مَن دخل إلى البيت. كان ذلك يحدث لأن روحه استطاعت التنقل عبر البيت وشاهدت، بواسطة عيونه، أولئك الذي دخلوا البيت.

القدرة على الرؤية موجودة أصلاً في الوعي. لذلك من بين أسماء الله يوجد التالية: "البصير"، "السميع العليم". البصيرة – القدرة على الرؤية – تصبح أكثر وضوحاً عند التعامل مع العالم الظاهري. بهذه الطريقة، إن الوعي الكلي يرى بواسطة عيون كل كائن حي على الأرض. ربما يتمكن اللص من سرقة شيء ما، أن يخفيه عن الآخرين وهو يظن أن لا أحد يراه؛ لكنه عاجز عن الإختباء عن نظرة الوعي، الذي هو موجود بداخله وينظر بعينيه. الأمر ليس كما لو أن الرب ينظر إلى الأسفل من بعيد ويشاهد أفعالنا في الأرض؛ هو يرى بواسطة عيون الكائنات ذاتها. يمكن أن ينشأ سؤال، فيما إذا كان ذلك يحدّ من قدرة الرب، ألا يجعله ذلك عاجزاً ومرتبطاً؛ لكن حتى لو

حدث ذلك بالفعل فالذنب هو أننا نضغط الرب حتى حدود الجزء فقط من الذات الإلهية. نحن ننزع منه جزءاً ونعتبره " خاصتنا "، " الأنا " الخاصة بنا، بينما في الواقع هذا كله الله، الواحد الأحد. لقد قال أحد الشعراء الهنود: " ماذا اعتبر " أناي " ؟ كل ما أراه — خاص بك؛ الجسد، العقل، النفس — كل هذا يخصك. أنت موجود، أنا غير موجود ".

الروحانيون قادرون أثناء النوم ليس فقط على رؤية ما يجري عن بعد، بل وفي جميع الأزمان. عاش يوماً في دلهي أحد الروحانيين، المرشد شيخ عَلَم Sheikh Alam وفي أحد الأيام بينما كان يقص شعره عند الحلاق، راح ينظر في المرآة التي يستخدمها الحلاقون عادة في الهند. فجأة قذف بالمرآة إلى الأرض فتكسرت نثراً. ارتبك المريدون، الذين كانوا يرافقونه؛ كما دهش الحلاق لأنه لم يفهم ماذا دفعه إلى رمي المرآة بهذه القسوة. لكن المرشد شرح لهم ماذا حدث: في تلك اللحظة كان أحد مريديه يسافر بحراً من الجزيرة العربية إلى الهند. تعرضت السفينة لعاصفة بحرية فغرقت، وكان هذا الشخص في خطر. فراح يستنجد بالمرشد لينقذه، والمرشد شاهد كل شيء في المرآة وأنقذه.

يمكن للنفس المستنيرة أن تتلقى، إلى حد ما، معلومات عن جميع الأحداث التي مرت خلال تطور الإنسان. لكن هل يُعقل أن العينين كبيرتان لهذه الدرجة، بحيث تتسعان لحفظ كل ما تراه؟ وهل يعقل أن العقل، الذي بفضله نحصل على الذاكرة — الوسيلة الأكثر غرابة وعجباً لحفظ المعلومات — يتذكر دوماً كل ما يراه ويختبره في الحياة؟ بالطبع لا، تُحفظ فقط أمور محددة، أي تلك التي تترك أكبر انطباع. لو تمكنّا من تذكر كل شيء — كل ما يقوله الآخرون من كلمات جيدة أو سيئة، كل ما نقرأه من كتب وكل الأشياء الغبية واللامعقولة، إلى ماذا كنا سنتحول؟ الناس لديهم عقل؛ لديهم جسد؛ صحتهم ترتبط بشكل وثيق بما يدخل إليهم، ليخرج لاحقاً. لو لم يكن الأمر كذلك، لما استطاع الإنسان أن يعيش، لأنه يتلقى الجوهر فقط، ويطرح الباقي. إلى جانب ذلك، ما يأخذه من عالم الملائكة ومن عالم الجن، هو مجرد جوهر — جوهر الخبرة. لا يجب أن نحسد مَن يتذكر كل شيء، حسناً كان أو سيئاً، مما حدث في الماضي، لأنه يكون مضطراً لأن يعاني كثيراً من تأنيب الضمير، وهذا بالتأكيد يسبب له المرارة. النسيان — نعمة وراحة عظيمة، يشبه الاغتسال في نهر الغانغ. الحاضر يقدم لنا أشياء رائعة كثيرة، وإذا فتحنا عيوننا ونظرنا إليها، فإننا لن نضطر للبحث عما هو رائع في الماضي. كل ما هو رائع - موجود دائماً هنا.

الضمير

الضمير هو نتاج العقل، بل أفضل نتاج له. فهو، أي الضمير، زبدة نشاطه. لكن ضمير شخص يعيش في بلد ما، قد يختلف نهائياً عن ضمير شخص آخر يعيش في منطقة أخرى، لأنه يكون مصنوعاً من عنصر مختلف. مثلاً، كانت توجد في الماضي القديم جمعيات القراصنة، الذين كانوا يعتبرون أن رسالتهم هي سرقة القوافل، التي تعبر أراضيهم. كانت أخلاقهم ومبادئهم تقول أنه إذا تضرعت الضحية إليهم قائلة: "سأعطيكم كل ما املك، فقط أطلقوا سراحي"، - لكانوا أجابوا كما يلي: " لا، نحن نريد أن نرى دمك". لم يكونوا يطلقون سراح أحد دون أن يقوموا بجرحه؛ كما لو أنهم يريدون القول: " نحن لا نقبل منك أية هدايا؛ نحن لسنا فقراء – نحن قطاع طرق. مهنتنا تجبرنا على المخاطرة بحياتنا؛ نحن شجعان ولذلك لنا الحق في أن نفعل ما نريد ". مثل هذه الأخلاق كانت موجودة عند بعض القراصنة. لقد آمنوا في أن عملهم مبارك، وبفضل ذلك اعتبروا أنفسهم ملوكاً. نفس الأشخاص، عندما يكونوا وضيعين – هم لصوص، وعندما يصبحون عظماء – هم ملوك.

هكذا، إن الضمير – هو ما خلقناه نحن. في نفس الوقت، هو أروع ما يمكننا صنعه، بالضبط كما هو العسل أفضل ما يستطيع النحل أن يصنعه. الانطباعات الجميلة، الأفكار اللطيفة والمشاعر الرقيقة تتراكم فينا وتصنع تصورنا عن الجمال والقبح. إذا نحن مشينا ضد وجداننا، فإن ذلك يسبب لنا الانزعاج. فالسعادة، السلوان في الدنيا، السلام والسكينة – كلها تتعلق بحالة الضمير عندنا.

الحياة بكاملها مبنية على الاتفاقات والأفكار المتفق عليها، والوجدان يتأسس على هذه القاعدة. لكي تتمكن العادات والتقاليد من التطور، هي بحاجة إلى بيئة معينة. فهي سبب الاختلاف والتمايز بين الناس، وليس باستطاعة أية حضارة، مهما كانت متطورة أن تتجنب هذه العادات وذلك التمايز. لأن تقدم الحضارة بحد ذاته يخلق الضرورة في ذلك. والناس يتقبلون تلك الاتفاقيات مع عدم الرضى، لكنهم يعيشون طبقاً لها. أما الإنسان العامل في مجال الفن فهو أكثر حرية، لأنه يعيش في عالمه الخاص، وكلما كان الفنان أعظم، كلما ظهر هذا بوضوح أكثر. بينما الإنسان العادي لا يستطيع العيش في لجة الحياة دون أن يتقيد بتلك العادات.

إن أفضل طريق لفهم الحضارة هو الطريق الروحي. عندما يتمكن الإنسان، في يوم ما، من تعلم الأخلاق الروحانية فهو لن يعود بحاجة لأن يتعلم الأخلاق، التي وضعها البشر — عندئذ ستأتي من تلقاء ذاتها. لمجرد أن الشخص صار يحترم ما يرضي وما لا يرضي الله في مشاعر كل شخص آخر يتعامل معه، فإنه سيكون عاجزاً عن أن يصبح أكثر حساسية وأكثر لباقة ومراعاة، بغض النظر عن ظروف حياته. ربما سيسكن في كوخ، لكن تصرفاته وأدبه لا بد سيفوقان سكان القصور. أكثر من ذلك، بمجرد أن يبدأ الإنسان محاكمة أفعاله، ففي طبيعته تنشأ العدالة، وبالتالي كل ما سيقوم به سيكون عادلاً ومنضبطاً؛ ولن يحتاج من أجل ذلك لكي يدرس كثيراً الشروط الخارجية. وهناك أيضاً تصور صوفي للإله كمعشوق. فإذا ما قبلنا أن في كل إنسان توجد بالتحديد الروح الإلهية بهذه الدرجة أو تلك، وأنه يعتمد هذا التصور في الحياة اليومية وفي التعامل مع كل شخص آخر، عندها نبدأ نحن بالنظر إلى جميع الناس بكل احترام وبكل تقدير، بكل اهتمام ومراعاة، كما نشعر تجاه المعبود، تجاه الرب.

إذاً، إن الحياة الروحية تعلّم الإنسان أن يلاحظ ما هو جميل مما يوجد في التقاليد. عندما تقترب الحضارة من التمأسس على أسس روحانية، وهذا لا بد حاصلٌ يوماً ما، فإن أعراف الدنيا ستكتسب ماهيتها الحقيقية وأهميتها.

ينشأ الضمير من صميم الوقائع، وليس من الحقيقة. فالحقيقة تقف فوق الكل؛ إنها مستقلة تماماً عن الوجدان. أن تفهم الحقيقة هو أشبه بالجدول، الذي ينتشر ويتسع ليتحول إلى

محيط، وعندئذ يرتقي الإنسان إلى ذلك المستوى من الفهم، بحيث يدرك: كل شيء حقيقي وكل شيء حق. لا يجوز التعبير أكثر عن الحقيقة المطلقة، بينما كل الباقي – مايا Maya[1]؛ إذا التزمنا وجهة النظر هذه، فإن أي شيء في العالم لن يكون غير صحيح وأي شيء لن يكون صحيحاً. إذا نحن تقبلنا ما هو صحيح، فيجب علينا قبول الغير صحيح. إن نظرية آينشتاين عن النسبية إنما هي نظرية ما يسميه الهندوس المايا Maya، وهماً ناتجاً عن النسبية. كل شيء موجود فقط بقدر ما هو مدرك من قبلنا؛ نحن نعتبر شيئاً ما صحيحاً، جيداً، رائعاً، وما سبق وقبلناه يصبح جزءاً من طبيعتنا، من " الأنا " الفردية خاصتنا؛ أما إذا لم نقبل شيئاً ما، فإن هذا لن يحدث. فالخطأ قبل أن نقرّ أنه خطأ لا يكون خطأ؛ لكن حين يصبح بمفهومنا خطأً، فإنه يصبح كذلك. يمكن القول، أننا لا نعرف على الدوام أن ذلك كان خطأً. لكن، ألن نعرف ذلك عن طريق النتائج المرضية؟ وهذا بدوره إقرار بالخطأ.

هناك دراويش يعملون عكس الحقائق المتعارف عليها، مثلاً ضد حقيقة أن النار تسبب الحروق. فهم يقفزون في النار ويخرجون منها سالمين. يقولون أن نار جهنم ليست من أجلهم. إذا كان بإمكانهم إثبات، أن النار لا تسبب لهم الأذى هنا، بالتأكيد لن تكون النار مخصصة لهم في الحياة الآخرة.

أفضل وسيلة للتحقق من الحياة – هو أن يتم استخدام الإنسان ضميره كأداة لاختبار كل ما يُظهر حضور الهارمونيا أو غياب الهارمونيا. علماً أن في كل شخص دوماً يوجد فعل مستمر وردة فعل للضمير. سبب ذلك – وجود مراحل مختلفة لكينونة الإنسان. في مرحلة معينة هو أقل حكمة؛ وإذا تطلع بشكل أعمق في داخل ذاته، فإن حكمته تزداد. فما يفعله في مرحلة ما يقوم هو بنفيه في مرحلة أخرى. فالإنسان بحاجة لأن يرفض الكثير وأن ينتصر على الكثير في نفسه، بحيث أن ممارسات وردود أفعال الوجدان تتم لديه من دون الاحتكاك مع الآخرين.

1- المايا – مقولة أساسية في الفلسفة الهندية؛ لها معان عدة، الأكثر شيوعاً من بينها – هو لا واقعية العالم المرئي، الذي يخفي تحت التنوع الواضح جوهره الحقيقي – البراهمانا – كحقيقة وحيدة. المترجم

قد يكون الإنسان شيطاناً في حالة مزاجية معينة ، وفي حالة أخرى – قديساً . هناك لحظات وأمزجة يكون فيها الإنسان متهوراً ، أرعناً ؛ هناك دفقات نحو الجيد ودفقات نحو السيء – هذه هي الطبيعة البشرية . لذلك لا يجوز التأكيد كما لو أنه لا يوجد في الشخص الشرير أي ذرة من الخير ، وفي الشخص الخيّر – ذرة شريرة . لكن أكثر ما يؤثر على ضمير الإنسان هو تصوره الخاص عن الخير والشر ؛ أما التأثير الثاني من حيث القوة – هو تصورات الآخرين عن ذلك . لهذا ، الإنسان ليس حراً .

لا يختلف حال الضمير عما هو الحال مع أي شيء آخر . وقد اعتاد على وضعية القيادة في أفكار ، حديث وتصرفات الإنسان ، إن الضمير يصبح أقوى ؛ أما إذا لم يحدث ذلك ، فإنه يصبح ضعيفاً فيتحول من رقيب إلى أداة للتعذيب .

الوجدان – عبارة عن خواص الفؤاد ككل ، والفؤاد يتكون من البصيرة ، الأفكار ، الذاكرة والفؤاد بحد ذاته . والفؤاد في العمق يرتبط مع العقل الكلي ، الإلهي ، لذلك فإنه في أعماق الفؤاد توجد عدالة أكبر بكثير مما على السطح ؛ ولهذا بالضبط ينشأ من هناك الحدس ، الإلهام ، المعرفة ، لأن النور الداخلي ينسكب على تقييمنا الشخصي للأشياء . عندئذ يتحد كلا الجزأين . في الضمير يتربع الرب ذاته على عرش العدالة .

الإنسان ، المدان من قبل وجدانه هو ، يتعذب أكثر ويكون أكثر تعاسة من ذاك ، الذي أدانته المحكمة . أما الإنسان صاحب الوجدان النظيف ، ربما يُدان ويحكم عليه بالنفي أو بالسجن ومع ذلك يبقى أسداً حتى وهو في القفص ، إذ أنه يمكن الإحساس بالسعادة في القفص أيضاً . لكن إذا كان ضمير الشخص يوحي بالازدراء تجاه نفسه ، فإن هذا هو أبشع عقوبة له ، لدرجة أنه لا يعادله أي قرار محكمة بالإدانة . لقد عبّرَ عن ذلك الشاعر الفارسي سَعْدي بشكل رائع ؛ لقد رأى عرش الرب في الضمير ، فقال : " اسمح لي بالاعتذار عن أخطائي لك وحدك ، كي لا أكون مضطراً للذهاب إلى شخص في العالم لأذلّ نفسي " .

إذا سمحنا بالإذلال ، فهذا يعني أننا مهانون ، اقتنعنا بذلك أم لا . هذا لا علاقة له بالشخص الآخر ، الذي يقوم بإذلالنا ؛ إن ذلك يتعلق بنا ذاتنا . حتى لو كان العالم بأكمله يعتقد عكس ذلك ، فإن رأي العالم لا قيمة له طالما أن عقلنا يشعر بالإذلال . أما إذا كان العقل

لا يعتبر شيئاً ما إذلالاً، فإن هذا الشيء لا يكون كذلك بالنسبة إلينا، بغض النظر عن رأي العالم. إذا أدعى ألف شخص أننا شريرون أو بلا أخلاق، لن نصدقهم ما لم يوافق فؤادنا على صحة ذلك. لكن بمجرد أن الفؤاد يعلن: " أنت – شرير "، بينما ألف شخص يؤكدون: " أنت – طيب " – فإن صوت الفؤاد سيكون مسموعاً اقوى. إذا نحن استسلمنا، فلن يساندنا أحد.

بالطبع، من الأفضل أن نتجنب الذلّ والهوان، لكن إذا لم يكن الإنسان قادراً على ذلك، فإنه بشكل ما يتحول إلى مريض، يحتاج إلى مساعدة الطبيب. سيكون بحاجة لمن هو قوي جداً لكي يساعده، هو بحاجة لعقل قيادي يعمل على الاهتمام به وليخرجه من هذه الحالة. إذا تحول الإنسان إلى مريض، فهو لن يستطيع علاج نفسه بنفسه بشكل كامل، قد يتمكن من القيام بالكثير، لكنه بحاجة إلى طبيب في جميع الأحوال. بالطبع، عندما تتسرب مشاعر الذل إلى الإدراك، عندئذ يجب قبوله كدرس، كسمّ ضروري. لكن السمَّ يبقى سمّاً. ما تسرب إلى العقل يبدأ بالنمو فيه. يجب استئصاله من هناك؛ إذا أهمل فسينتشر. هكذا انطباعات، كالذل، الخوف والشكوك سوف تنمو وتتراكم في اللاوعي، مُنتجةً ثماراً، وفي لحظة معينة من الزمن سوف يكتشفها الإنسان.

موهبة الفصاحة

عند مقارنة مملكة المعادن، النباتات والحيوانات مع مملكة الإنسان، نحن نلاحظ أنه ليس الإنسان وحده، بل جميع الكائنات الأخرى تمتلك موهبة التعبير. الحجر هو الأقل من ناحية المقدرة على التعبير، وبالتالي نحن نبدي تجاهه تعلقاً أقل. نحن نغزّه ونضربه، نحن نحصل عليه في المقالع، ونجد له مختلف الاستعمالات دون أن نتعاطف معه، لأنه لا يتحدث إلينا. لكننا نشعر بتعاطف أكبر تجاه النبات؛ نحن نحبه، نحميه، نسقيه، وبما أنه يمتلك مقدرة أكبر على التعبير، فإننا نعتني به أكثر. لكن يوجد بين الأحجار ما هو يتكلم معنا أكثر من غيره، خصوصاً نحن نثمّن الألماس، الياقوت والزمرد. ندفع من أجلها مبالغ كبيرة، ونحن نحملها على أجسادنا.

الحيوانات لديها موهبة أكبر بكثير للتعبير، مما عند النبات أو الحجر، وهي تبدو لنا كائنات قريبة جداً. فالكلب عن طريق هزّ الذيل، بواسطة القفزات، في كل لحظة من حياته يقول: " أنا أحبك " – ونحن نبادله إهتماماً كبيراً بالمقابل. نحن لسنا بحاجة لكي يستلقي نبات بالقرب منا في الكنباية، لكن إذا جلس كلب على الصوفا، فإن هذا يروق لنا. القطة أيضاً لا تمتلك موهبة النطق، لكنها مع ذلك تجيد التعامل معنا عن طريق صوتها. في جميع أنحاء الدنيا يقدر الناس البلبل على صوته الجميل، على تعبيريته. هناك في الغابات مجموعة كبيرة من الطيور، التي لا تخطر لنا على بال لأنه ليس لديها صوت جميل. بينما نعرف الطيور الغنائية كلها ونتمنى لو نحتفظ بالببغاء، الذي يمكنه النطق.

جاء في القرآن، أن الله قد جعل الإنسان خليفة له في الأرض، ومَنَحه سلطاناً على جميع المخلوقات، وذلك فقط لكونه يمتلك موهبة النطق. وحده الإنسان يمتلك موهبة النطق. وبينما

بعض الناس أشبه بالحجارة، والبعض الآخر – كالنبات والحيوان، فإن الآخرين يمتلكون خواصاً بشرية. الإنسان، الذي يشبه الحجر، غير قادر على التعبير؛ لا توجد فيه قوة مغناطيسية جاذبة. هو يملك فقط ما يظهر على محياه الخارجي – كما هو الحجر، حتى ولو كان ياقوتاً أو زمرداً؛ وإذا تم التخلي عن الظاهر، فلن يتبقى شيء. والإنسان، الذي يشبه النبات، يفتقد إلى الذكاء والثقافة؛ لديه بعض المشاعر فقط، بعض الفردانية. قد يكون جميلاً، وبما يشبه الشوك أو النبات السام. الإنسان – الحيوان يملك مشاعر وعواطف، لكنه عاجز عن التعبير عنها. أما الكائن البشري الحقيقي فهو الذي لديه موهبة التعبير، مَن يستطيع الحديث عما هو يشعر.

موهبة التعبير عند الهندوس تمثله إلهة الكلام Vak. لماذا ليس إله؟ لأن مَن يتكلم إنما هو يستجيب للخالق، للرب في داخلنا[١]. لقد ميز الهندوس بين ثلاثة أنماط من الناس: راكشاسا[٢] Rakshasa أو مونستر (Monster) – غول، وحش، مانوشا[٣] Manusha أو الإنسان، ودايفاتا[٤] Deivata أي الإنسان الشبيه بالرب. الوحش أو الغول هو المحروم من النطق والمشاعر. الإنسان – المانوشا هو الذي لديه المشاعر لكنه محروم من التعبير عنها. الإنسان الشبيه بالرب هو القادر على التعبير بشكل رفيع، وهذا يجعله كما هو في الواقع.

حسن التعبير موجود منذ بدء التاريخ، لأنه في البدء كانت الكلمة، التي سبقت خلق الإنسان. لكن لا الحجر، لا النبات ولا الحيوان لم يستطع النطق بكلمة؛ لقد كان هذا من خصائص الإنسان وحده، وعندما هو فعل ذلك، فقد صارت الكلمة أداة لكتابة الرسالة الإلهية. لهذا بالضبط، إن عملية الخلق قد وجدت نهايتها المثالية في خلق الإنسان، ولذلك هو أصبح الأعلى بين جميع الكائنات الحية. لكنه حين يتكلم ويجرح بكلامه قلب ومشاعر شخص آخر

1- الاستجابة (التلبية) والقابلية – عنايت خان يعتبرهما خصائص نسائية، بينما النشاط هو الذكوري.

2- راكشاسا – هي الأرواح الشريرة والشياطين في الميتولوجيا الفيدانتية والهندوسية.. وهي على شكل كائنات هائلة مع رؤوس كثيرة – المترجم

3- مانوشا – هو الإنسان في الميتولوجيا الهندوسية – المترجم

4- دايفاتا: في اللغة السنسكريتية – الرب أو صورة له – وحسب عنايت خان – الإنسان الشبيه بالله – المترجم

إنما هو بذلك يسيء استخدام مقدرته على التعبير. المثل الشعبي الروسي يقول: "الكلمة المعبِّرة – سيف يقهر العالم". والسيف يمكنه أن ينتصر، كما يمكنه أن يقتل. واللسان أيضاً قادر إما على الانتصار أو على إلحاق الأذى. هذه الفكرة وجدت تعبيرها في الموعظة الإنجيلية: "هنيئاً للودعاء، لأنهم يَرِثون الأرض".

العالم هو أشبه بالقبة، حيث كل ما نقوله يعود علينا. إذا نحن قلنا: "كم رائع!" – هذه الكلمات ستعود إلينا. إذا قلنا: "أنت أحمق!" – سيردد الصدى: أنت أحمق. ربما شخص ما يحسب نفسه شخصية هامة، يحق له قول كل ما يخطر على باله، لكن في أحد الأيام يبلغه صدى الكلمات السيئة التي نطق بها.

يحدث أحياناً أن المرء لم يكن يرغب بقول كلمات مسيئة لصديقه، لكنه يقول بخشونة من دون رغبته، لأن عقله مليء بالانطباعات البشعة المتراكمة فيه. لذلك يجب علينا الاحتفاظ في عقلنا فقط بالانطباعات الجيدة، والتخلي عن السيئة، وذلك لكي يخرج منا ما هو جميل فقط.

يمكن الحديث عن الشيء بطريقتين. قبل أن نبدأ الحديث، يمكننا أن نتذكر كل ما نعرفه عن الشيء، ومن ثم أن نحصي جميع الحجج التي حضرت إلى ذهننا. هذه طريقة الببغاء. يكرر الإنسان ما سبق وتعلمه، تماماً كالببغاء، الذي يردد كلمات محددة سبق وعلّموه إياها. الطريقة الأخرى للتعبير تعتمد على المخزون، على المعرفة الموجود دائماً في ذات الإنسان. لكي نكتشف هذا المخزون نحتاج للمؤشر، ويمكن أن يلعب دور المؤشر ذلك الإحساس العميق، الذي يخترق جميع الحواجز. المعرفة معنا دوماً، لكننا نكون معزولين عنها بدون موهبة التعبير.

عندما نشاهد صاحب عاهة يزحف في الشارع، فإنه من السهل أن نسخر منه؛ لكن الإحساس الصغير الناقص يبعث لدينا التعاطف، أما الشعور العميق فيبعث فينا القدرة على التعاطف والرأفة.

قوة الصمت

في الفيدانتا يطلق على التنفس اسم برانا[1] Prana، أي الحياة . فالتنفس – عبارة عن سلسلة تربط بين الجسد والفؤاد والنفس. إن التنفس هام إلى درجة أنه حين يختفي، فإن الجسد الذي غادره – الجسد، الذي أحببناه بقوة والذي رعيناه كثيراً، بحيث كنا نركض إلى الطبيب عند الإصابة بزكام أو سعال وسارعنا إلى تناول الدواء عند أية وعكة صحية، هذا الجسد يصبح بلا فائدة ولا حاجة له. لم يعد بإمكانه أن يكون حياً.

إن الكلام هو عبارة عن انقطاع في عملية التنفس. بكلمة أخرى، عندما يتكلم الإنسان فهو يضطر للقيام بعدد أكبر من حركات الشهيق والزفير، مما أثناء الصمت. فالتنفس يشبه الإطار، الذي يلعب به الأولاد: كلما كانت ضربة العصا أقوى، كلما كان أكثر عدد الدورات التي ينجزها الإطار وهو يتدحرج على الأرض؛ وعندما تنتهي قوة الدفعة، فإن الدولاب يقع. أو لنأخذ، كمثال على ذلك، الساعة: تعمل الساعة خلال فترة زمنية محددة تتناسب مع التعبئة – قد تكفي لمدة ٢٤ ساعة أو أسبوع، لكن أبعد من هذه المدة لن تسير مهما حاولنا تعبئتها.

على أول شهيق يتوقف طول حياتنا: كم هو عدد حركات الشهيق والزفير المقررة لنا. نحن أثناء الكلام نصرف طاقة حياتية كبيرة؛ بينما الصمت خلال يوم واحد يعني إطالة حياتنا لمدة أسبوع أو أكثر، أما اليوم الذي نمضيه في الأحاديث – ينتزع أسبوعاً من حياتنا. الصمت – عبارة عن علاج للكثير من المصائب، بالرغم من أن الشخص، الذي يعيش في خضم الحياة، لا يستطيع

1- برانا – كلمة سنسكريتية تعني التنفس، الحيوية، الحياة.. وهي عند الصوفيين تشير إلى الحياة وشكلها الفيزيائي... المترجم

بالطبع ممارسة الصمت بصورة دائمة . لكنه قادر على مراقبة كلماته ؛ فالإنسان يستطيع أن يتذكر أنه لقاء كل كلمة ينطق بها إما سيكافأ من السماء أو سيعاقب من جهنم.

يعيش في الهند منذ القدم روحانيون يلقبون بـ : موني Muny . هم لا يتكلمون مطلقاً، مع أنهم يعيشون في ما عدا ذلك مثل جميع البشر . هؤلاء عادة يعيشون أطول مما نحن في الوقت الحالي : ثلاثمائة سنة، خمسمائة سنة وربما أكثر .

عند الامتناع عن الكلام ، فإن التنفس يبقى بمعزل عن التوتر والاضطراب ؛ يكون منتظماً وهادئاً . لقد أوْلى الروحانيون دوماً أهمية كبيرة للتنفس وجعلوا من دراسته لحظة أساسية في حياتهم . مَن يحترف التنفس – إنما هو يمتلك حياته الخاصة ؛ ومَن لا يستطيع التحكم بالتنفس، إنما هو معرض للإصابة بمختلف الأمراض . هناك أشخاص يتحكمون بالتنفس بشكل لا واعي، مثل الملاكمين والمصارعين، وكذلك بعض الناس، الذين يعيشون حياة مليئة بالعبادة والإيمان .

في الوقت الحالي نحن نحب الحديث كثيراً لدرجة، أن الإنسان الذي يبقى بمفرده يشعر برغبة قوية للخروج من المنزل وليحاول إيجاد شخص يتحدث إليه . و غالباً يقوم البعض، عندما يكونوا وحيدين، بالتحدث إلى الأشياء المحيطة ، وكثيرون يتحدثون مع أنفسهم ، إذا لم يجدوا مَن يتحدثون إليهم . لو شرح أحد ما لهم – ربما كانوا فهموا كم يصرفون من الطاقة مع كل كلمة تقال . الصمت – هو استرخاء للعقل والجسد . إن قوة الصمت عظيمة جداً، وليس من وجهة نظر تلقي ومراكمة الطاقة والقوة الحيايتة وحسب، بل ومن وجهة نظر أخلاقية : يمكن الحصول على فائدة كبيرة من الصمت .

إن الكثير من الحماقات، التي نقترفها هي حماقات مرتبطة بالكلام . مقابل كل فعل واحد خطأ نقوم به كل أسبوع – نحن ننطق آلاف الأخطاء الكلامية .غالباً نهين أو نجرح شخصاً آخر فقط لأننا نتكلم كثيراً ؛ لو توقفنا عن الكلام لما كان حصل ذلك .

إلى جانب ذلك، هناك ميل شديد نحو المبالغة . إن جميع المثاليين، الذين يحبون التفاخر بشيء ما توجد لديهم ميول نحو المبالغة . إذا خرج شخص من البيت وشاهد أنه يحلّق "منطاد

تسيبّلين" [1]، فهو يسعى لإخافة أصدقائه فيروي لهم أنه رأى عشرين "منطاد تسيبّلين" تطير . وبعد أن يرتعب أصدقاؤه، فإنه يشعر بنوع من الرضى. إذا كان لدى المثاليين مشاعر لطيفة تجاه شخص آخر، فإنهم يقولون أنه الشمس والقمر في السماء. ليست هناك حاجة لقول ذلك.

كما إن الإنسان يطوّرُ في أحاديثه الميل إلى التناقض. بغض النظر عما يقال، هو يسعى لقول نقيضه. إنه يصبح أشبه بالملاكم أو بالمصارع: إذا لم يجد من يقارعه من حيث القوة، فإنه يشعر بنفسه مخدوعاً، لأن الميل للكلام عظيم لديه.

في أحد الأيام كنت حاضراً حفل استقبال في منزل صديق، حيث كان يوجد بين الناس شخص يتجادل مع كل ضيف، لدرجة أن الجميع سئموا منه. حاولتُ تجنب الحديث معه، لكن أحدهم عرّفنا إلى بعضنا البعض، وحين سمع أنني أقوم بتدريس الفلسفة، فقد قرر: " هذا هو ما أنا بحاجة إليه ". فكان أول ما قاله: " أنا لا أؤمن بالله ". فسألته: " حقاً؟ لكن هل تؤمن حضرتك في هذا الكون القائم، في روعة هذا العالم المتنوع وأن وراء وجوده تقف قوة معينة؟ ". فأجاب: " أنا أؤمن في كل ذلك، لكن لماذا عليَّ أن أنحني لشخصية محددة و أدعوها الله؟ أؤمن في كل ذلك، لكنني لا أسمي ذلك الله ". قلت له: " أنت تؤمن أن لكل نتيجة سببها وأن جميع تلك الأسباب لها بدورها سبب أولي. أنت تدعو ذلك سبباً وأنا أدعوه الله؛ إنه الشيء ذاته. دوماً هناك مَن هو الرئيسي، الذي تطيع أوامره، مَن هو أعلى منك، الذي تنحني له، الوالد والأم مثلاً، بل هناك شيء ما مضيء، الذي تحبه وتبجله، هناك مَن تحترمه، وتوجد قوة ما تشعر أمامها بأنك عاجز. فكم عظيمة قوة تلك الشخصية، التي خلقت ولازالت تتحكم بكل هذا، وإلى أية درجة هي تستحق الإيمان والتبجيل ! ". أجاب: " لكنني لا أسميها قوة إلهية، أنا ادعوها بالقوة المطلقة، بالصفة، التي تقوم بكل شيء بشكل آلي، وتنسق بين الكل ". عندما حاولت أن ابقي الحوار على موضوع معين، كان يتنقل إلى موضوع آخر، وعندما حاولت الالتحاق به، انتقل مرة أخرى إلى موضوع تال، إلى أن توقفت أخيراً عن هذه اللعبة، وقد

1 – "منطاد تسيبّلين" – منطاد اطلق عليه اسم مخترعه. تم استخدامه في الحرب العالمية الاولى. المترجم

تذكرت مقولة شانكارا تشاري : " يمكن تحويل كل ما هو مستحيل إلى ممكن باستثناء شيء واحد : لا يمكن تقريب عقل الغبي إلى الحقيقة " .

قد يتضخم حب المشاكسة إلى الدرجة، التي يصبح معها المرء – حتى وهو يسمع فكرته الخاصة على لسان شخص آخر – يتخذ موقفاً مناقضاً، فقط لكي يضمن فرصة الجدل. هناك مثل فارسي : " أواه، أيها الصمت، إنك نعمة لا ثمن لها، أنت تخفي هفوات الحمقى وتهب الإلهام للحكماء ! " .

إننا نقول سخافات كثيرة جداً فقط لأننا تعودنا أن نتكلم وأن نقول !. كم هي كثيرة الكلمات، التي ننطقها ولا معنى لها ! إذا قدمونا إلى شخص ما، فلا بد أن نتكلم كثيراً لكي لا نُعتبر غير لبقين. فيبدأ الحديث كما يلي : " يا له من نهار جميل؛ اليوم بارد "، – أو شيء آخر عن الطقس وهلم جرا. إن عادة التحدث عن أمور فارغة تتحول مع الوقت إلى حالة مَرَضية، بحيث أن الإنسان لن يهدأ ما لم يسبب الصداع للآخرين بمناقشته عن أشياء سخيفة. هو لن يتمكن من العيش من دون إرضاء هذه الرغبة الذاتية، إذ يصبح مولعاً بالكلام، بحيث أنه في يوم من الأيام قد يروي قصة حياته لشخص عابر، دون أن يعطيه فرصة ليقول كلمة واحدة، مع أن ذلك الشخص قد يكون منزعجاً جداً من تصرفنا، ويريد القول :"وما علاقتي بكل هذا؟ " كما أن الناس غالباً يتفوهون بأسرار ثم يندمون على فعلتهم.

و تحت سلطة هذا السحر أيضاً، قد يعبر الإنسان في حديثه عن اللامبالاة، الكبرياء، الموقف المسبق، ثم يشعر بالندم من جراء ذلك. هذا كله ينتج بسبب غياب الرقابة على الكلام. قد تكون الكلمة أحياناً أثمن من جميع كنوز العالم، وفي أحيان أخرى قد تتحول الكلمة إلى سيف.

هناك سبل مختلفة للإلهام، لكن أفضلها – الصمت. إن جميع الروحانيين يلتزمون الصمت. خلال ترحالي في الهند التقيت أشخاصاً عظاماً كثيرين، وقد كانوا جميعهم ينقطعون عن الكلام لعدة ساعات على الأقل في كل يوم، والبعض منهم – خلال الأربع وعشرين ساعة بأكملها.

لقد عاش في حيدر آباد أحد الروحانيين باسم شيخ جهاموش. لقد دعي كذلك بسبب التزامه الصمت. كان في شبابه شخصاً ذكياً ومليئاً بالنشاط، وفي يوم من الأيام جاء إلى مرشده مع سؤال جاهز، وهذا شيء طبيعي بالنسبة للمريد. كان المرشد يجلس مستغرقاً في حالة من الوَجد الروحي، وبما أنه لم يكن يرغب بالكلام، فقد أمره: "اصمت". لقد كان لذلك أثر هائل على الفتى. إذ لم يسبق وسمع مثل هذا الكلام من مرشده، الذي كان دوماً مليئاً بالمحبة وبالصبر وبالطيبة، وكان مستعداً للإجابة على أي سؤال. لكن ذلك الدرس كان كافياً بالنسبة له مدى الحياة، لأنه كان إنساناً عاقلاً. عاد إلى البيت ولم يتحدث إلى أحد من أفراد العائلة، حتى مع والديه. عندما رأى المرشد ذلك هو أيضاً لم يعد يتكلم معه. هكذا، على مدى سنوات كثيرة لم ينطق شيخ جهاموش بكلمة واحدة، وعلى أثر ذلك ازدادت قوته العقلية لدرجة، أنه كان يكفي إلقاء نظرة عليه لكي تشعر بالإلهام. نظرته لوحدها كانت كافية لكي تلهم أي فرد. لكي تعالج. لقد كان ذلك منذ فترة ليست بعيدة جداً، منذ حوالي ربع قرن (اعتباراً من تاريخ تلاوة هذه المحاضرات في العقد الثاني من القرن العشرين – المترجم).

إن النشاط يعبق بالنشوة، وقد ازداد النشاط في أيامنا، بحيث أننا منذ الصباح وحتى المساء لا توجد دقيقة واحدة للراحة بسبب الانشغال اليومي الدائم، والذي يجبرنا على الحركة باستمرار. ومع حلول المساء نشعر بالتعب لدرجة، أننا نتمنى النوم فقط، لكي يتكرر نفس الشيء مع كل صباح. إن نمط الحياة هذا يلحق الضرر الكبير بأمور كثيرة؛ فالإنسان يميل إلى التمتع، بحيث أنه ينسى الحياة، التي هي بحد ذاتها متعة ولذة. يجب أن يكرس عند كل شخص ساعة واحدة على الأقل يومياً للسكينة وللحركة.

بعد الصمت عن الكلام يتبع الصمت عن التفكير، أو صمت الأفكار. قد يجلس المرء أحياناً بلا حركة، دون أن يتكلم، لكن أفكاره تتوالى بلا انقطاع. ربما لا يرغب العقل بتلك الأفكار، لكنها تتوالى مع ذلك. إذ يتحول العقل بالنسبة إليها إلى صالة للرقص، حيث هي تتراقص وتتراقص بدون أي عائق. من الضروري أن تصبح فكرة ما ممتعة، هامة، بحيث تطرد الأفكار الأخرى.

عندما تهدأ الأفكار، يخيم السكون على المشاعر. يمكننا أن لا نقول أي شيء ضد أي شخص آخر، بل يمكننا أن لا نمتلك أية أفكار بشأنه؛ لكن إذا كانت توجد في قلبنا أدنى كراهية تجاهه، فإنه سيشعر بذلك. إنه سيشعر بالقسوة في ذلك القلب. نفس الشيء يحدث مع المحبة ومع التعلّق والميول.

المجرّد يعني أن يتواجد خلف حدود هذا العالم، حيث جميع أشكال الوجود تتوحد، حيث أنها كلها تلتقي مع بعضها البعض؛ وهذه الحالة التجريدية لها نغمتها الخاصة. عندما تهدأ تلك النغمة ويرتفع الإنسان فوقها، فإنه يبلغ أرفع حالة، النجاة، الخلود؛ لكن بالتأكيد، لكي يبلغ المرء هذه الحالة هو بحاجة للكثير من الجهد.

القداسة أو الطهارة

كثيراً ما يتساءل الإنسان عن معنى كلمة " مقدس". أحياناً يُفهَم بمعنى روحاني، مؤمن، طاهر، متدين، لكن ولا واحدة من هذه الكلمات لا تعكس المعنى الكامل للمصطلح. القداسة – هي المرحلة التالية بعد الإيمان. عملية التعبد أو إدراك الإله – يعني الإيمان؛ أما تحقيق الذات – فهو القداسة. الخطوة الأولى نحو تحقيق الذات – هي بالتحديد إدراك الإله في الذات، وليس من خلال إدراك الذات يكتشف الإنسان الله في نفسه.

القدسية هي شرارة الألوهية في الإنسان، ولا توجد أية نفس يمكن اعتبارها محرومة من ذلك. الشرارة الإلهية – هي النور ذاته، ومع أنه موجود في الدرجات الدنيا أيضاً من الخلق – عند الحيوانات والطيور، عند الأشجار والنباتات وأي شكل من أشكال الحياة، فهو يبلغ عند الإنسان بالتحديد إمكانية التطور إلى لهيب. في البداية، هذا النور يكون مخفياً في فؤاد الإنسان، لكن مع بدء الضياء الإلهي بالإشعاع من القلب، فإنها تظهر في الإنسان علامات القداسة. يحدث هذا لأن الطهارة لا تعتبر إرثاً بشرياً، إنما ترثها كل نفس من الرب. لكنها تتظاهر فقط عندما يكون القلب مفتوحاً، ومن الشرارة الألوهية يرتفع نحو الأعلى لسان اللهب، الذي ينير درب الإنسان في سعيه الدنيوي إلى الهدف الروحاني. لهذا السبب بالتحديد يمكن للإنسان أن يعترف بمعلم معين، سبق ورأى فيه هو أو أصدقاؤه، أو أن أسلافه كانوا يرون فيه الألوهية، وأن يرفض في الوقت نفسه أي معلم آخر على الرغم من قدسيته الواضحة للعيان. والقداسة لا تنحصر في عرق معين أو في مجموعة بشرية محددة أو في عائلة. بل هي تتظاهر تلقائياً في حياة بعض الناس، بينما يجب التفتيش عنها خلال حياة

الآخرين. فالنار موجودة فيهم، لكنها دفينة، لذلك يجب إحضارها إلى السطح. و أحياناً يتطلب الأمر نفخ النار لمساعدتها على الاشتعال.

للطهارة أو للقداسة معاني مختلفة حسب ارتباطها بالموضوع. القداسة الدينية – هي الأخلاق، القداسة الفلسفية – هي الحقيقة، القدسية الروحانية – هي النشوة الروحية، القداسة في السحر – هي العَظَمَة، القداسة في البطولة – هي الشجاعة، قدسية الزاهد – هي اللامبالاة أو عدم المحاباة (بمعنى العدل والإنصاف)، قدسية الشاعر – الجمال، وقدسية المغني – الحب.

هناك الكثير من القصص حول القديسين، الذين يعيشون في كهوف الهمالايا. يمكن أن نقرأ عنهم في الكتب. لا شك أن النفوس، التي بلغت أعلى درجات القبض الروحي، تشعر حقاً بالميل نحو الابتعاد عن الدنيا وعن خصوماتها وخلافاتها، والبحث عن زاوية منعزلة لن يجدهم فيها أحد؛ لكن في نفس الوقت، يمكننا أن نصادف أشخاصاً كثيرين يمارسون التفكر وسط الحشود. لقد صادفت أشخاصاً مستنيرين في هيئات مختلفة: بين الفقراء والأغنياء، بين الحكام والمتشردين، بين رجال الدين وغير المؤمنين. كانت تصدر عنهم جميعهم اهتزازات روحية، وقد كانت الأخوّة العامة تلهم النفس طريقة عفوية لكي تدرك "الأنا" خاصتها، تظهر في حياتهم اليومية.

لقد أمضيت تسع سنوات من حياتي في الهند متجولاً من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق، في رحلة البحث عن الأرواح المقدسة، دون أن تتسرب إلى عقلي يوماً فكرة، كما لو أن القديسين ينتمون إلى دين محدد أو إلى معتقد معين. ينحني الهندوسي لآلهته الخاصة، والمسلم يدعو ربه الخاص، الفارسي يعبد النار، أما المؤمن الذي يبحث عن الإله، فإنه يبحث عن المساكن السرية للقديسين. الرب يتكلم مع المؤمنين بلسان القديس، بينما إله الارثوزوكسي مخفيٌّ وراء النظريات، وإلهُ عبدة الأصنام يكمن في المكان المقدس، وإله الباحث – المثقف يضيع في الغموض. إن السعي نحو الكينونة الروحانية، الذي ولد في قلبي، قد أجبرني طوال حياتي أن أبحث عن هؤلاء القديسين. ومَن يبحث – يجد؛ وقد سنحت لي الفرصة أن أجد مثل هؤلاء. لقد التقيتهم ليس فقط في أعماق الغابات أو في الكهوف الجبلية، بل وبين الحشود.

ينشأ سؤال: هل يمكن التعرف على قداسة الشخص من خلال تصرفاته؟ بالطبع، يمكن رؤيتها في التصرفات، لكن مَن يجرأ على الحكم على تصرف معين، إذا كان صعباً حتى للحكيم أن يقرر بشأن سلوك الأسوأ بين المذنبين؟ مَن غير الأحمق مستعد للحكم على القديس؟ مما لا شك فيه، أنه يمكن التعرف على القدسية في البِرّ، لكن لا يحق لأحد أن يحدد قياس البِرِّ، طالما أن ما هو حسن بالنسبة لأحدهم – قد يكون سيئاً بالنسبة لآخر؛ وأحياناً ما هو علاج لواحد – قد يكون سُمّاً بالنسبة لغيره. لكل شخص خصوصية تقواه. يمكن لأسوأ شخص في الدنيا أن يعاتب أفضل شخصٍ في عدم كفاية برّه، إذا رغب، لأنه لم يحدث أبداً أنْ كانت تقوى أي شخص كافية للجميع ولن تكون. أما القدسية فهي بحد ذاتها بر وفضيلة، حتى ولو لم تتفق مع مقاييس الخير عند الآخرين. القدسية – عبارة عن نافورة تفيض بالنور باستمرار، إنها ظاهرة بحد ذاتها؛ وهذه الظاهرة – هي النور، وهو ينير. ***فالنور لا يملك أي برهان آخر باستثناء النور ذاته بذاته***. كذلك هي القدسية لا تحتاج إلى تأكيد، ولا إلى دفاع ولا إلى إعلان. إنها تثبت نفسها بنفسها، تحمي نفسها، والنور يلعب دور المبشّر بالنسبة لها.

على الأرجح، لقد اختلط الأمر على الكثيرين في هذه الدنيا فلم يعودوا يميزوا الحق من الباطل. لكنه سيأتي يوم يبدأ فيه الإنسان بالتمييز بين الحق والباطل. فالكذب لا يقدر على تحمل كل الاختبارات والتجارب باستمرار وطوال الوقت. الذهب الخالص فقط هو القادر على تحمل جميع الاختبارات، والأمر هو نفسه ينطبق على القداسة. فالقداسة دائمة، مطلقة، كلية، هي تغفر، تتفهم وفي نفس الوقت تقف وراء جميع الأشياء وفوق الكل. لا يمكن تدميرها، لا يجوز النيل من ثباتها. إنها – الجمال والقوة، وهي تتحول إلى ألوهية عندما تبلغ الكمال المطلق وعندما تبلغ الكمال المطلق فإنها تتحول إلى إلوهية.

الأنا
Ego

إن المصطلح الصوفي " نفسانية " يعني عمى الأنا الخاصة، التي بدأت تسدل الظلام على النفس منذ اللحظة التي ذاق فيها الإنسان طعم الثمرة المحرمة، كما جاء في حكاية آدم وحواء. لقد بدأ الإنسان حياته على الأرض معتمداً في طعامه على مملكة النبات. بل هو لم يفكر ولا للحظة بأن النباتات، الأزهار والفواكه تحتفظ بداخلها بالحياة وتتطلب منه مثل ذلك من الحب، الذي يتلقاه هو من كل كائن.

ثم توسعت مساحة العمى لديه عندما هو انتزع من العجل الحليب، الذي هو مخصص بالأساس من الطبيعة لكي يتغذى العجل عليه ويستمتع به. وكلما ازداد انتشار العمى عند الإنسان، كلما صار الايغو أكثر تسلطاً وراح الإنسان يضحي بحياة الطيور والحيوانات في سبيل إرضاء شهيته ونزواته. بهذه الطريقة دعّم هو " الأنا " الفيزيائية، التي طرحت نفسها بمساعدة الملكية المتأتية بشكل غير عادل، وفي النتيجة غطت عينيه ظلمة كثيفة، حولته إلى أناني وحسّاس - يعتبر إشباع رغباته وعواطفه، تأمين الراحة وما يلزمها الهدف الرئيسي في الحياة. هكذا تحول من إنسان إلى حيوان، ومن المستوى الحيواني انحدر إلى المستوى الشيطاني. وعندما بلغ هذه المرحلة، لم يبق بالنسبة له لا رب ولا فضيلة. فلم تتحقق دعوة المسيح إلى محبة الأعداء، لأن الإنسان أصبح عاجزاً عن محبة حتى جاره، قريبه، إذا كان الأمر يتعلق بمصالحه الخاصة.

هذا الجانب بالتحديد من التراجع والانكفاء أدى إلى حدوث الفيضانات، انفجارات البراكين وإلى هكذا كوارث مثل تحطم " تيتانيك " والانقلابات الاجتماعية الحالية.

لقد قرر الإنسان، أن الحضارة هي ما كان الهندوس القدامى يسمونه كالي – يوغا Kali-yoga، أو القرن الحديدي. أما ما سبق واعتبروه كريتا – يوغا أي القرن الذهبي، فإن الإنسان الحالي يعتبره بربرية، مما يبين درجة القسوة التي بلغها القلب البشري. ففي أيامنا هذه، إن الكلمة الشريفة الصادقة لا وجود لها، لا قيمة لها، بل لا بد من عقد مكتوب. حلّت اللباقة الظاهرية مكان الحب، التصنع مكان الحقيقة. بدلاً من الشجاعة الفردية جاءت التكنولوجيا، تم استبدال الدين والأخلاق بالنقابات، ودراسة المادة حلت مكان إدراك الحياة.

لم يعد يلحظ الإنسان الفرق بين اللذة العابرة وبين السلام الأبدي. فالعالم الحقيقي يظهر إليه على تلك الدرجة من الواقعية، بحيث لا يستطيع هو النظر إلى ما ورائه. هو يريد رؤية الثمار المادية لجهوده حتى ولو على حساب حياته الخاصة، دون أن يستطيع نداء السماء من لفت نظره إلى الخلود من جديد.

هناك حكمة تقول: " إن الذنوب المتراكمة ستقضي على حاملها عاجلاً أم آجلاً ". تلاحق كل مجرم لوحة كارثية وبشعة للجريمة، التي ارتكبها. لم يعد مدهشاً، أنه لم تبقَ قومية، لهذه الدرجة أو تلك، لم تشترك في الانقلاب العالمي القائم حالياً. لا يوجد مكان في العالم لم يتعرض لهذا الاختبار؛ إن الصوت الجنائزي يعلو فوق هامات كل عرق وكل دين. هكذا، نحن نعلم أن نكبة التاريخ الحالي كانت قد تقررت تجاه كل البشرية (يقصد هنا الحرب العالمية الأولى – المترجم). لقد كان ذلك بمثابة التطهير، الذي يهدف إلى المساعدة في دخول العالم إلى الحقبة المثالية من التاريخ، هذه الحقبة التي ستنشأ فقط في حال تحققت مشيئة الرب بدلاً من إرادة الإنسان.

الجانب العميق للحياة

إن الناس في الوقت الحالي يعتبرون الحياة الفكرية، أو الحياة الممتلئة بالعمل الفيزيائي، أمراً طبيعياً. الإنسان العملي هو مَن يتمتع بفكر سديد أو بعقل بارد، والعقل البارد لا يخرج عن الإطار المحدد له. الإنسان العملي — هو ذاك، الذي يعرف كيف يرضي أهوائه ويلبي مصالحه المادية في هذا الصراع الحياتي المتواصل. والبعض يعتبرون إيجابياً الفكر السديد أو الإيمان فقط في ما يُبرهن على واقعيته بالنسبة لمشاعرنا وما يمكن لعقلنا أن يبلغه، يشعر به ويدركه. لهذا السبب، ومن أجل التقدم الهائل والمستمر في مجال العالم المادي، نحن أغلقنا الباب إلى العالم الآخر، حيث يمكن الولوج فقط إذا فتحنا الباب نحو الجانب العميق الداخلي للحياة. إن الإنسان، من حيث البنية و خصائص الطباع والبناء الفيزيائي ، يتطلع في جهة واحدة فقط ويحجب الأخرى بواسطة " الأنا " الخاصة به. الإنسان يرى ما هو أمامه، ولا يلحظ ما هو وراءه. ولأنه خُلِق مع هكذا طبيعة، هو لا يستطيع النظر إلى الجانب العميق، لأنه مشغول بالحياة على السطح.

إن الحاجة إلى الحياة الداخلية العميقة ملحة اليوم أكثر من أي وقت آخر. ففي أيامنا هذه تبين أن الرأس وحده هو الذي يمتلك مقاييس متطورة ، في حين أنه من الضروري تطوير خصائص القلب في سبيل تحقيق التوازن في الحياة. عندها تصبح الحياة متوازنة، وبعد ذلك يجري الاستعداد لتقبل الثقافة الداخلية أو الحياة الروحية. يعتقد الكثيرون أن المشاعر غير مهمة البتة، كما لو أنه يمكن فصلها بسهولة عن الموضوع الرئيسي للحياة، الذي هو في زماننا النشاط الفكري . ليس هناك مَن كان لديه اهتمام بالجانب الباطني للحياة — ثم شكك في القوة والإلهام، اللذين ينبعثان من الفؤاد المتحمس. فالإنسان، الذي يتمتع بخصائص عاطفية لا يجب أن يكون ساذجاً؛ هو غير مضطر لأن يلغي العقل، بل إن الحميمية والشاعرية تكسب الفكر ما تضيفه الرائحة العطرة إلى الزهرة. إن الأخلاق المكتسبة

بواسطة المنطق جافة – هي كالفاكهة بدون عصير، كالزهرة بدون رائحة. الشاعرية والحميمية تصنع الفضيلة الحقة، التي لا يمكن لأحد أن يعلّمها. الإنسان المغرم، الإنسان المخلص في فؤاده، يتعلم الأخلاق من خلال الذات. فقط التوازن بين الفكر والعاطفة يخلق التربة الملائمة لغرس بذور الحياة الداخلية فيها.

لكي تصل إلى الحياة الروحانية لا بد من القيام بثلاث خطوات. الخطوة الأولى – إدراك طبيعة وطباع الإنسان. يقوم الباحث بالخطوة الأولى على طريق الحقيقة، عندما يتمكن بالفعل من فهم المحيطين به وأن يجد الحلّ لأية مشكلة مرتبطة معهم.

الخطوة الثانية – النفوذ إلى جوهر الأشياء والكائنات، إدراك السبب والنتيجة وامتلاك المقدرة على إيجاد سبب الأسباب ونتيجة النتائج؛ أن تتعلم رؤية الدافع وراء كل دافع ومنطق كل منطق. عندما يتعلم الإنسان أن يرى الجانب الجيد في ما هو سيئ والسيئ في ما هو حسن، أن يلاحظ الجانب الكاذب المخادع في الحقيقة والجانب الحقيقي للكذب، فإن هذا يعني أنه قد قام بخطوة أخرى على طريق الروحانية.

الخطوة الثالثة – الارتقاء فوق الألم الخاص كله والارتفاع فوق جميع ملذات الحياة، بحيث أنه يكون ضمن العالم وخارجه في آن واحد، يعيش ولا يعيش في نفس الوقت. هكذا يصبح الإنسان الميت الحي، الإنسان الميت الذي يعيش أبداً. لا يجب البحث عن الخلود في الحياة الآخرة؛ إذا كان يمكن الحصول عليه يوماً ما – فذلك فقط أثناء الحياة الدنيا. في هذه المرحلة الثالثة من التطور يحصل الإنسان المقدرة على اكتساب السعادة، القوة، المعرفة، الحياة والسلام في ذاته بالضبط، بمعزل عن العوامل والأشياء الخارجية.

إن المعرفة الروحانية، التي طالما بحثت عنها النفوس المتيقظة الحالمة، لن تتوقف عن جذبهم إليها. كان الباحثون في الفترات الغابرة يسعون لإيجاد مرافق لهم، مرشد ينورهم عن أسرار الجانب العميق من الحياة، وحين يفضح السر، فإنه لم يكن يبق سراً بالنسبة لهم. أما الإنسان، الذي لم يتنبه بعد للحياة الداخلية، لم يختبر الحياة بصورتها الكاملة؛ هو لم يشاهد سوى جانباً محدداً منها، ربما الأجمل، لكنه الأقل واقعية. بينما ذاك، الذي أدرك كلا الجانبين من الحياة، الظاهري والباطني، الخارجي والداخلي، فهو – بلا شك، قد حقق رسالته من وجوده على الأرض.

الميكانيزم الحياتي

تحت اسم الميكانيزم الحياتي أنا أفهم ما هو يحيط بالإنسان. يدرك الكثيرون أن هذا الميكانيزم الحياتي يؤثر بدرجة كبيرة على النجاحات والخيبات، لكن، وبغض النظر عن أي شيء، لا يوليه كل إنسان الاهتمام العميق والكافي، بحيث يعرف حدود تأثيره على الحياة. إن تعاليم الروحانيين كانت دوماً تؤكد أنه يجب على الإنسان أن يعالج نفسه بنفسه كمريض وأن يشفي مكامن الضعف لديه، لكن من الناحية العملية يجب الأخذ بالاعتبار الظروف المحيطة. يدعم وجهة النظر هذه أقوال السيد المسيح. ليس مدهشاً أن لا يستطيع الإنسان تحقيق شيء ما في الحياة بالسرعة التي يتمناها، طالما أن الخالق قد واجه صعوبة في ذلك. وقد بشّر المسيح بهذه الفلسفة بالضبط، حين قال: " لتكن مشيئتك في الأرض كما هي في السماء ". ماذا كان المسيح يقصد بذلك؟ كما لو أنه أراد القول: " مشيئتك تتحقق بسهولة في السماء، وأنا أريد أن يعمل الناس لمساعدة مشيئتك أن تتحقق بنفس السهولة في الأرض ".

إذا اضطر الإنسان أن يعبر البحر في سفينة، فهذا سيتطلب منه شجاعة كبيرة، إصراراً عظيماً وأيمانا هائلاً، لكي يقوم بتلك الرحلة، ومع ذلك فإن هذا الإنسان لن يعرف متى سيبلغ الهدف؛ لكن الإبحار في السفينة سيبدو أسهل. عندئذ لن يضطر الإنسان لأن يستهلك تصميمه وإيمانه بنفس الدرجة، لأنها ستكون بحوزته آلية مُساعِدة لتحقيق الهدف. لذلك، إن تحقيق أي هدف يتطلب الميكانيزم اللازم. إذا أراد الإنسان تحقيق الراحة في منزله فهو بحاجة للآلية؛ إذا كان يعمل في التجارة أو الإنتاج، فإن وجود مستوى معين من التنظيم يجعل الأمر

أسهل. في الدولة تقوم الحكومة بضمان النظام والسلم. عندما يصبح الجو بارداً، فإن الأنا يصبح بحاجة لثياب دافئة، بينما في الصيف يحتاج إلى ألبسة خفيفة.

من السهل اليوم استيعاب هذه الفكرة، لكن الصعوبة هي في إيجاد الآلية المناسبة. أولاً، إن الكثيرين لا يملكون تصوراً واضحاً في ذهنهم عن الهدف. سيعملون ليلاً نهاراً دون أن يعرفوا ماذا يريدون في الواقع، فيغيرون رأيهم باستمرار، وهذا بدوره يفقدهم الميكانيزم، الذي يمكن انتاجه فقط في حال كان لك هدف محدد في الحياة. إن الحماس الزائد والتدخل المتكرر في عمل الميكانيزم غالباً ما يتسبب في خلل المخطط ويشوش الهدف. في ظروف أخرى، في حال لم يتفق الميكانيزم مع الهدف المنشود، فإن الإنسان يتخلى عن الهدف، الذي وضعه نصب عينيه.

لا يستطيع أحد أبداً الإدعاء أنه مطلع كفاية على مادة ما، لأنه أثناء علاجه لنفسه يحتاج الإنسان لكي يعرف ذاته، في حين عند إنشائه الآلية هو مضطر للتعامل مع مجموعة من الشخصيات المختلفة، وهنا يتطلب الأمر معرفة أعمق بكثير للطبيعة البشرية وللحياة. لقد جاءني أناس كثيرون وكان كل واحد منهم يقول: "لقد استطعت أن أتصرف وأن أعمل كما قيل لي، وتمكنت أن التزم بممارسة التركيز والتدريبات والتفكر حسب ما كان مرسوماً لي، لكن هدفي بقي بعيداً عن التحقيق". ما ينقصُ عادةً ليس الممارسة أو العمل مع الذات؛ بل ما ينقص، عدا الأخلاق، هو الميكانيزم المناسب. مثلاً، إذا قال الإنسان: "أنا تمكنت من التقيد بالنظام وبالقواعد والآن أنا أريد ممارسة الاسترخاء. سأذهب لأجلس في الميناء وسأركز على فكرة كما لو أنني أجلس في المدينة في الجانب الآخر من البحر" – فهل سيتمكن بالفعل من الانتقال إلى هناك؟ إليه مثال آخر، إذا حاول شخص يمتاز بالانضباط الذاتي أن يسترخي مع فكرة: "لتنتقل كل النقود الموجودة في البنك إلى بيتي" – فهل سيحصل ذلك؟ حتى لو مارس التركيز والتدريب قرب البنك ألف سنة، فإنه لن يستطيع تحقيق هدفه والحصول على النقود!

في هذا العالم الموضوعي يكون الإنسان بحاجة للميكنيزم الموضوعي لكي يحقق نتيجة معينة، وإذا كان الناس الذين يسيرون في درب الروحانية لا يرون هذا الجانب، فإنهم بذلك يبرهنون على أنه، بالرغم من كفائتهم وروحانيتهم، ينقصهم التوازن و أنهم يقدمون للشخص

العملي فرصة جيدة لكي يسخر ممن لديه ميول روحانية. لذلك إن عمل الحركة الصوفية لا يقتصر فقط على قيادة النفوس إلى مثل عليا أكثر، بل ومن أجل إبقاء أعينهم مفتوحة في الطريق ولكي يستطيعون رؤية إلى أين هم سائرون. المتصوف يقدم لأولئك، الذين لا يؤمنون في المثل العليا، مثالاً على اكتساب التوازن خلال حياته كلها. يستطيع الإنسان أن يهتم بنفسه وأن يركز على الصحة الجيدة، ومع ذلك بإمكان الظروف المحيطة أن تكون سبباً للمرض. هذا غير قابل للتصحيح؛ لا يتعلق الأمر هنا بعدم الكفاية الروحانية عند المرء، بل في عدم الكفاية المادية. ألا يشير ذلك الشيء أننا بحاجة لبلوغ التوازن بين هذين العنصرين؟ لن يحصل الإنسان على الإعجاب الكبير لو صار روحانياً لدرجة أنه راح يطير في الهواء، لكن حينئذ سيكون ليس أفضل من منطاد هوائي. فقط مَن يستطيع الوقوف بثقة على الأرض، يكون قد حقق شيئاً ما. لا يمكن القول عن كل إنسان أنه يقف على قدميه. ليس هناك في الدنيا ما هو أسوأ من عدم الاستقلالية، وإذا كانت الروحانية تجعل الإنسان أكثر ارتباطاً، مثلاً، بلباقة الناس الآخرين بما يتعلق بالجوانب العملية من الحياة، - فإن مثل هذه الروحانية غير مرغوبة. الروحانية - هي السيطرة على ما هو مادي وما هو روحاني، إنها القدرة على التحكم بالذات وعلى الاحتفاظ بالميكانيزم الحياتي منضبطاً.

الجبين العالي
(المُحَيَّا السعيد)

أنا أقصد بكلمة "جبين" هنا تعبير وجه الإنسان، الذي يتوقف بشكل مباشر على موقفه من الحياة. الحياة هي واحدة بالنسبة للقديس وللشيطان؛ الاختلاف بين حياتهما ينشأ بالتحديد من اختلاف نظرتهما إلى الحياة. نفس الحياة بالنسبة لأحدهم تنتهي في الجنة، وبالنسبة لآخر تقود إلى النار.

هناك نظريتان بخصوص الحياة: في الحالة الأولى، كل شيء يبدو سيئاً؛ في الثانية – كل شيء جيد. الحياة بالنسبة لنا منذ الصباح وحتى المساء مليئة بالتجارب، السيئة والجيدة بدرجة متفاوتة؛ وكلما تعمقنا في دراسة أسرار الجيد والسيئ، كلما اكتشفنا أنه في الواقع لا توجد مثل هكذا أشياء "سيئ" و"حسن". بل كل ما يحدث يبدو لنا إما جيداً إما سيئاً حسب نظرتنا وظروفنا.

يمكن للإنسان العادي أن يحكم بسهولة على ما هو جيد وما هو سيئ، ما هو عادل وما هو ظالم؛ أما الحكيم فيجد صعوبة بالغة في ذلك. كل إنسان من تلقاء ذاته يحول الأسباب من جيدة إلى سيئة ومن سيئة إلى حسنة، لأنه يقف على المستوى الخاص به من التطور، والذي يحاكم انطلاقاً منه. أحياناً قد يكون جسم ما أخف وأعقد من الآخر، وعندها يجد الإنسان صعوبة في اتخاذ قرار بشأنه. في يوم من الأيام لم يفهموا موسيقى فاغنر، وفي وقت آخر تم الاعتراف به واحداً من أعظم الموسيقيين. أحياناً تكون الأسباب جيدة بحد ذاتها، ولكن عند المستوى الفردي لتطورنا قد تبدو غير جيدة إلى تلك الدرجة. ما كان يعتبر حسنا منذ بضعة

سنوات فقط، يمكن أن لا يبدو بالنسبة لنا كذلك في المرحلة الحالية من التطور. أكثر ما يثمّن الطفل – الدمى، لكنه فيما بعد يبدأ بتفضيل ما أبدعه النحاتون العظام.

كل ذلك يبرهن أنه في كل مرحلة من مراحل التطور كانت تتبدل تصورات الإنسان بخصوص ما هو سيئ وما هو حسن – لذلك، إذا فكرنا في الأمر، فإننا سوف نتوصل إلى النتيجة التالية: ليس هناك ما هو سيئ أو جيد. لو أنه كان يوجد شيء ما " جيد "، لكانت جميع الأشياء جيدة. بالتأكيد، هناك مرحلة معينة عندما يكون الإنسان عبداً لتصوراته الخاصة عن السوء والحسن؛ لكن توجد حالة أخرى يكون الإنسان فيها هو السيد. هذه المهارة تأتي إليه بعد إدراكه الحقيقة، التي تبين أن السوء والحسن ينشئان من موقفه هو بالضبط تجاه الحياة؛ وعندئذ ما هو " صحيح " و" غير صحيح "، " جيد " و" سيئ " يصبح عبيداً له، لأنه يعرف أن بمقدوره تحويل أحدهما إلى الاخر.

هكذا يفتح الباب إلى لغز آخر من الحياة، وهذا يوضح لنا – بما أنه في كل شيء توجد ثنائية – أنه توجد ثنائية أيضاً في كل فعل وفي كل تصرف. في كل ما هو عادل يختبأ بعض الظلم، وفي كل ما هو سيئ توجد بعض الجودة. ومن ثم يبدأ الإنسان بمشاهدة كيف أن العالم يتفاعل مع كل فعل من أفعاله: واحد يلاحظ فقط ما هو جيد، آخر – فقط ما هو سيئ.

حسب مفاهيم التصوف، إن هذه العلاقة المحددة تدعى الخيرات، الاندهاش؛ وكما أنها بالنسبة للإنسان العادي تكون ممتعة الأفلام السينمائية، المسارح والمعارض، هكذا بالنسبة للمتصوف تكون الحياة، كل الحياة، أن عليه أن يندهش باستمرار. وهو غير قادر على تفسير ذلك للعالم، لأنه لا توجد الكلمات التي يمكنها فعل ذلك.

هل هناك فرح مشابه للفرح، الذي يمكن به استقبال الأسباب بهدوء، بصبر وبسهولة؟ إن جميع الأفراح الأخرى تنشأ من المصادر الخارجية، لكن هذه السعادة – ملكية الإنسان. عندما يرتقي إلى ذلك الشعور، فإن هذا الأخير يعبر عن نفسه ليس بالكلمات، إنما عن طريق "المحيا السعيد".

هناك جانب آخر لهذا الموضوع. كلّ منا يفرح لرؤية الشخص، الذي نحبه، نحترمه ونجلّه؛ لكن إذا عبسنا عند رؤية شخص ما، فذلك لأن هذا الشخص لا يستدعي فينا الاحترام أو

الإعجاب. المحبة – هي تمثّل الجوهر الإلهي في الإنسان، وهي تعود في منشئها للإله فقط؛ المحبة بالنسبة للإنسان – عبارة عن درس، أول خطوة نحو محبة الرب. من خلال الحب البشري نبدأ تلمس الطريق نحو الحب الإلهي، بالضبط كما تبدأ البنت الصغيرة تلقي أولى دروسها عن الحياة العائلية وهي تلعب مع الدمى. والإنسان يتعلم هذا الدرس من خلال محبته لإنسان آخر – الصديق، الأب، المحبوب، الأخ، الأخت أو المعلّم. لكن المحبة قد تستخدم بشكل غير صحيح، إذا لم تتلقَ التطوير والدعم والتوسع. يمكن للماء في البركة أن يركد ويتسخ، لكن مياه النهر دائماً نظيفة لأنها جارية. بنفس الطريقة، عندما يحب الإنسان بصدق وبإخلاص، فيجب عليه أن ينمي غرسة الحب، وأن يساعدها على النمو والتطور في نفس الوقت.

يقوم الحب بمهمته عندما يتحول الإنسان بالكامل إلى محبة – في فضائه، في تعابيره، في كل فعل وفي كل حركة يقوم بها. وهل يمكن لمثل هذا الإنسان أن يحب واحداً ويكره آخر؟ مجرد تعبير وجهه ومجرد حضوره يتحول إلى بركة. إن الناس في الشرق يتوجهون إلى المكرّمين والحكماء والقديسين ليس بسبب مآثرهم وعجائبهم، بل لأن حضورهم، وجوههم ونظراتهم تشع بتموجات المحبة؛ وهذه المحبة تنعكس في الصبر عندهم، في تسامحهم، في تواضعهم واحترامهم، في مقدرتهم أن لا يلحظوا أخطاء الآخرين. إن عواطفهم تتستر على أخطاء الآخرين، كما لو أنها أخطاءهم هم بالذات؛ هم ينسون مصلحتهم من أجل مصالح الآخرين. بالنسبة لهم ليس مهماً الظروف، التي يوجدون فيها، هل هي مفروضة عليهم من السماء أو لإهانتهم؛ إن محيّاهم مسروراً. إن كل واحد في عيونهم هو عبارة عن انعكاس للمعشوق – الإله، وهم يكررون اسمه باستمرار. إنهم يرون المقدّس في أية صيغة وفي كل كائن.

كما المؤمن المتعبد يشعر بالخشوع الديني في المعبد، كذلك المتصوف يمتلك نفس الإحساس تجاه كل كائن، بالنسبة له كل كائن هو معبد الإلوهية. لذلك هو دوماً أمام سيده – الرب. سواء العبد، السيد، الصديق أو العدو أمامه – هو دائماً يشعر كما لو أنه أمام الرب.

بالنسبة لذاك، الذي إلهه عالياً في السماوات، دوماً توجد هوة سحيقة بينه وبين الرب؛ أما بالنسبة لمن يكون الرب أمامه باستمرار، فإنه دوماً يشعر وكأنه بحضور الإله، وليس هناك أية نهاية لسعادته.

إن الصوفيين يعتقدون أنه مهما يكن الإنسان مؤمناً، فإنه لا يساوي شيئاً من دون المحبة. هو يشبه ذاك، الذي قرأ آلاف الكتب دون أن يعرف شيئاً، لأنه لم يختبر الحب. والحب لا يُعَبَّر عنه بالبيانات والإعلانات؛ عندما يُولد الحب فإن صوته ونداءه يصبح أقوى من الصوت البشري. الحب ليس بحاجة للكلمات؛ فهي عاجزة عن التعبير عنه. الحب يمكن أن يعبر عن نفسه بطريقة واحدة بسيطة ومتواضعة فقط: بما يدعوه في بلاد فارس "المحيا السعيد".

مفاتن الحياة

كثيراً ما نندهش لكون الله قد خلق الإنسان بهذا الضعف، بحيث يبدو هذا الإنسان غالباً كما لو أنه مصمم لأن يكون سيئاً – بل إننا نلحظ في ذلك مظهراً من اللا عدل الإلهي. لكن الأمر ليس كذلك، وقد تمت مناقشة هذا الموضوع بشكل رائع في الحكاية العربية " ألف ليلة وليلة ".

كان هناك خادم عند أحد الملوك – سكرجي عظيم. وفي أحد الأيام، ومن أجل التسلية، أمر الملك الخدم الآخرين أن يسقوا ذلك الخادم كمية كبيرة من الكحول حتى السُكْر الشديد ومن ثم يقومون بوضعه في سرير الملك. ومع بداية النهار بدأت الفرقة الموسيقية بالعزف كالمعتاد، وراحت دزينة من الفتيات الملاح تغني في مخدع نوم الملك من أجل إيقاظه.

عندما استيقظ، فقد فكر الخادم: " ماذا حدث لي؟ بالأمس فقط كنت خادماً؛ الآن أنا نائم في سرير الملك وكل شيء من حولي يبدو ملكياً! فمن أنا: ملك أم خادم؟ ".. نظر إلى الفتيات فانحنين جميعهن له. وراح كل واحد يناديه " فخامتك ".

نهض، خرج من المخدع وذهب إلى الدربار[1]. جلس على العرش هناك، ثم جاء الوزراء، انحنوا له وخاطبوه بكلمات ترحيبية. عندها قرر الخادم: " أنا على الأرجح ملك. لو أنني كنت ملكاً في السرير فقط لما كان لهذا أي معنى؛ لكن الجميع هنا أيضاً ينحنون لي باحترام وينادونني – فخامتك –! ".

1– الدربار– كلمة فارسية تعني قاعة الاستقبال في القصر الملكي – المترجم

استمتع طيلة اليوم بحياة الملوك. لكن في المساء جاءت زوجته. ففي الليلة الفائتة، عندما لم يعد إلى البيت، اعتقدت هي أنه ربما يكون مستلقياً في مكان ما بسبب السكر. بحثت عنه في كل مكان، وعندما لم تجده – ذهبت إلى القصر. لم يمنعها أحد، لأن الملك كان قد أمر بذلك. عندما دخلت القاعة – نظر إليها زوجها بطريقة كما لو أنه شاهد الموت بعينه؛ فقد فكر: " لا يعقل أنني الملك، لأنه لو كان الأمر كذلك – لما كانت زوجتي هنا. سأضطر للذهاب معها! " وقالت له: " ماذا تفعل هنا؟ أنت لم تعد البارحة إلى البيت؛ لم يكن عندنا أية قطعة من الخبز، بينما أنت تتسكع هنا. لنذهب ". فأجاب زوجته: " أنا لا أعرفك. هيا من هنا ". لكنها احتجت: " أنت زوجي، هيا تعال معي ". واصطحبته الزوجة معها بالرغم من إصراره و تكراره: " أنا الملك، أنا الملك ".

إن الظروف، التي نتواجد فيها تدفعنا للاعتقاد، بأننا نمثل هذا أو ذاك. إن ما تختبره النفس – هو ما تعتقد أنها تمثله. إذا حسبت النفس " أناها " الخارجية مجرد رضيع، فإنه تظن: " أنا طفلة ". وإذا حسبت " أناها " الخارجية عجوزاً، فإنها تظن: " أنا عجوز "؛ وإذا رأت " أناها " الخارجية في قصر، فهي تعتقد: " أنا ثرية "؛ وإذا رأت " الإلهام " خاصتها في كوخ، فإنها تظن: " أنا فقيرة ". لكن ما هو واقعي بالفعل هو فقط: " أنا موجود ".

هناك مفاتن في الحياة تمارس فعل السحر على الإنسان. لقد قال حافظ: " قبل أن نُولَد – أنتَ تسقينا بلعة خمر ". أما جامي Jami فقد قال: " أوه، أيها الساقي، يا مَن يقدم الخمر، اعذرني، إنها فتوتي. أحياناً ألتقط قنينة الخمر وأقبّلها. و أحياناً بعيداً أرميها ". جميعنا على هذا المنوال. الطفل تارة يناغي ويقبل الدمية، وتارة يرميها على الأرض ويكسرها، ليأخذ دمية أخرى. أحياناً ندعو أحدهم بالصديق، وأحياناً نعتبره هو ذاته عدواً. أحياناً نعلن إعجابنا بعرق أو بقومية ما، وفي مناسبة أخرى نصبح أعداء لها. نحن كالأطفال، ولهذا نحن متقلبون.

يجري الإنسان أثناء نومه الدنيوي باستمرار وراء الغيوم المبتعدة. ومتى هو يستيقظ؟ عندما تأتي زوجته. من هي هذه الزوجة؟ الزوجة هنا – هي القوة المدمرة للطبيعة؛ عندما هي تأتي، كما الموت، فإن الإنسان يرى أن كل ما كان يملك وما كان يحسبه ملكاً له، سيبقى خلفه: اسمه، أمجاده، ثروته. كل ذلك يوجد فقط لمن يحيا، أما بالنسبة إليه فيوجد القبر فقط.

لن يستطيع أن يأخذ معه أي شيء . عندها سيدرك أنه لا يوجد حوله ما يمكن أن يساعده في الحصول على الملذات والدنيا إلى الأبد ، فيبدأ بالبحث عما يحقق له ذلك.

إنه موضوع الايغو ، الوعي . هناك مثل هندي : " إهانة الحكيم لن تذهب سدى . فالبذرة تقع في التربة لكي تنمو " . بعد أن يذلّ الحكيمُ نفسه لدرجة الغبار ، فإن هذا الغبار يعمل على ازدهاره هو . هذه ليست سيادة بعد ، لكنها خطوة نحو مراحل أكثر تطور .

جاء في القرآن : "موتوا قبل أن تموتوا"[1] – أي مت قبل الموت . المتصوف يموت قبل موته ويدرك خلال حياته ما سوف يكون بعد الموت . بكلمة أخرى ، هو يدعو زوجته لزيارته ويرحب بها في مملكته الخاصة ، أي أنه بدلاً من أن يسمح لها بسحبه من القصر – هو يستطيع الاستمتاع بالحياة معها ، مع زوجته ، على الأرض . بكلمة أخرى – هو يتحول إلى ميت حي .

حين يتفهم الإنسان بعقله ، أن كل ما هو حاصل في هذه الدنيا إنما هو نابع من الواحد الاحد ، فإنه لن يستطيع التقيد بالكلمات : " مَن يجب علينا أن نعبد ، ماذا يجب أن نقدس وأن نحترم ، طالما أننا نحن كل شيء ؟ وماذا علينا أن نخاف ؟ " لكنه ينسى شخصيته الخاصة ؛ فإذا كان يتكون من هكذا مجموعة من الأعضاء المختلفة ، ومن ذرات ومخططات مختلفة وفي نفس الوقت يظل شخصية فريدة ، فلماذا إذن لا يمكن للواحد العظيم أن يكون شخصية فريدة متفردة؟ عقلياً نحن نعترف ، أننا جميعاً عبارة عن ذات الواحد . لكن عندما يسبب لنا أحدهم الألم ، فإننا لا نتحمل ذلك وعندها لا نفكر أننا وإياه إنما ذات الشيء . عندما يتسبب أحدهم بالضرر لنا ، فإننا نلعنه . لكن إذا كنا لا زلنا نؤمن ، أنه هو نفس الشيء كما نحن ، فلماذا يجب أن نلعنه؟

1- جاءت في النص الأصلي باللغة العربية لكن بحروف لاتينية، أي بدون ترجمة - المترجم

التفاني

إن التفاني، الذي يسميه المتصوفون بالانكسار، لا يجمّل طبيعة الإنسان وحسب، وذلك عن طريق اضفاء حسن النية على كلماته وتصرفاته، بل يمنحه أيضاً الاعتزاز والقوة، اللذين يأتيان مع حس الاستقلالية – العلامة الأكيدة على الحكمة. إن نكران الذات غالباً ما يملأ روح الإنسان بالاستكانة، عن طريق تحريره من النشوة التي تعمي النفس. الاستقلالية والحيادية – هما الجناحان، اللذين يسمحان للنفس بالطيران – ينشئان من الشعور بالتفاني. من اللحظة، التي يبدأ حس التفاني بالاشتعال في قلب الإنسان، تصبح كلماته وتصرفاته مملوءة بالنُبل، الذي لا يمكن أن تمنحه أية سلطة وأية ثروة في الدنيا.

هناك مجموعة من الأفكار، التي تجعل الإنسان منتشياً ، والكثير من المشاعر التي تؤثر على النفس كما الخمرة، لكن لا يوجد خمرة أقوى من خمرة التفاني. فيه تكمن العَظَمَة والشعور بالاعتزاز، بحيث لا يمكن اكتسابها بواسطة المنصب أو الموقع الاجتماعي إطلاقا. أن تصبح شخصاً مهماً – إنها محدودية، بغض النظر عمن تكون؛ حتى مَن تم تنصيبه ملكاً على العالم، لما كان سلطاناً على الكون. سيد الأرض يبقى عبداً للسماوات. الإنسان المتفاني – هو ذاك، الذي لا يكون أحداً، وفي نفس الوقت هو الكل.

لهذا إن طريق المتصوف – أن يصبح لا أحداً، بدلاً من أن يكون أحداً معيناً. إن ذلك الشعور بالضآلة بالتحديد – " أنا – لا شيء " – تحيل قلب الإنسان إلى كأس فارغة تصب فيها خمرة الخلود. هذه هي حالة البَرَكة، التي تنشدها كل نفس تبحث عن الحقيقة. من السهل أن تصبح عالماً وليس من الصعب جداً أن تصبح حكيماً؛ ففي طاقة الإنسان أن يصبح

جيداً؛ لكن يوجد إنجاز أكثر رفعة وأكثر عظمة من جميع ما ذُكر أعلاه، وهو يكمن في أن يكون المرء لا شيئاً. ربما أن هذه الفكرة – أن لا تكن شيئاً – تخيف الكثيرين، لأن الإنسان بطبيعته يسعى للإمساك بشيء ما، بينما " أناه " تتمسك بشخصيته الخاصة، بفردانيته. أما إذا تمكن الإنسان من الارتقاء فوق ذلك – فكأنه ارتفع إلى جبال أيفر ست؛ فهو يبلغ نقطة تنتهي عندها الأرض وتبدأ السماوات.

إن الغاية الرئيسية للصوفي تقوم في أن يتمكن بتحويل " أناه " غير المكتملة، بمساعدة التفكير بالذات الإلهية، إلى غير مرئية حتى بالنسبة لعينيه الخاصتين؛ عندئذ، إن اللحظة، التي يظهر فيها أمام عينيه الرب وليس " الأنا " خاصته، تصبح بالنسبة له لحظة الخير المنجز. قال لي مرشدي، أبو هاشم مدني، في يوم من الأيام أنه توجد فضيلة واحدة وخطيئة واحدة بالنسبة للنفس على ذلك الطريق: الفضيلة – حين يُدرك الإله، الخطيئة – عندما لا يُدرك. ليس هناك أي شرح يمكنه أن يصف بالكامل حقيقة هذا التأكيد، باستثناء خبرة المتأمل، الذي تُفتح أمامه نافذة في السماوات إنْ هو أدرك الإله، أما إذا هو أدرك " أناه "، فإن خبرته تكون مناقضة. إذ أن جميع مآسي الحياة إنما هي وليدة إدراكه لـ " أناه ". إن هذا يسبب الألم والحزن، وكل ما يمكنه أن يحرر الإنسان من التفكير بنفسه، يساعده إلى درجة معينة في التخلص من الألم؛ لكن الخلاص الحقيقي تمنحه إياه معرفة الله فقط.

روح النزعة المحافظة

هناك وجهتا نظر بخصوص كل ما يحدث في العالم: ليبرالية ومُحافظة، وكل منهما تمنح الإنسان الشعور بالرضا، لأنه توجد في كليهما ايجابيات معينة. عندما ينظر شخص ما إلى عائلته من زاوية محافظة، فإنه يشعر بالفخر لعائلته وهو دائماً يفعل ما يرسخ شرف وكرامة أجداده. إنه يتبع تقاليد الفروسية للأسلاف البعيدين، لذلك هو يلتزم واجب الدفاع وحماية جميع أولئك، الذين ينتمون إلى العائلة – مَن يستحق ذلك ومَن لا يستحق. بهذه الطريقة هو يدعم وينفخ الحياة في الشعلة، التي اشتعلت، ربما، لسنوات طويلة فيقوم بحملها بين راحتيه على امتداد الحياة، فيكون أشبه بالفانوس، الذي يضيء الطريق. إذا كان المرء ينظر إلى قومه من مواقع محافظة، فإنه يكون مفعماً بالوطنية، التي تحل مكان الدين في العالم المعاصر (في بدايات القرن العشرين عندما تليت هذه المحاضرات – المترجم). إنها بالتأكيد لفضيلة، إذ أن الإنسان يتعامل مع كل شعبه كما لو أنه عائلته الخاصة. فيبدأ بالاهتمام ليس بأطفاله فقط، إنما وبأطفال كل الأمة. ويكون مستعداً للتضحية بحياته عندما تستدعي الضرورة الدفاع عن الوطن أو عن شرف، كرامة وحرية شعبه.

إن روح النزعة المحافظة – روح حاملة للفردانية، وهي تشكل الموضوع المحوري في عملية الخلق ككل. إنها الروح، التي كان لها تأثير شبيه بالشمس – إنها النور المطلق الشامل، وقوتها بالتحديد هي التي، عن طريق تأثيرها في الطبيعة، تجمع مجموعة الأغصان مع بعضها على جذع واحد ومجموعة أوراق على الغصن الواحد. هذه الروح بالضبط، من خلال تأثيرها في جسم الإنسان، تجمع اليدين والرجلين في جسد واحد وتضمن فردانيته الكلية.

لكن يوجد خوف من أن تتنامى هذه الروح لدرجة كبيرة قد تسبب معها الركود . إذا كان المرء يبالغ باعتزازه بعائلته، فإنه يحيا فقط على إدراك هذا الاعتزاز فينسى واجبه تجاه البشرية، ودون أن يلاحظ شيئاً مما يوحّده مع الناس الآخرين، الذين لا ينتمون إلى الحلقة الضيقة لعائلته. وحين يتسع هكذا ركود ليشمل أغلب الأمة، فإنه يؤدي إلى مختلف الكوارث – الحروب، الثورات المليئة بالعنف وبالقسوة. إن الكابوس، الذي عاشته البشرية منذ فترة، هو نتيجة الركود العالمي، وهذا بدوره ناتج عن التراكم الزائد في الروح المحافظة.

هذا يوضح لنا، أنه ليس صحيحاً اعتبار شيء ما على أنه فضيلة وبركة، وأن شيئاً آخر هو خطيئة وإثم. ما كان يوماً فضيلة يمكنه أن يتحول إلى إثم. فالفضيلة أو الإثم ليس تصرفاً محدداً؛ إنه الحالة، الموقف، الذي يدفع الإنسان للقيام بتصرف محدد، ومن ثم إن نتائج هذا التصرف يجعل منه فضيلة أو خطيئة. الحياة – في الحركة، الموت – التوقف عن الحركة؛ والركود يقطع الحركة، بينما الدوران يضمن الحركة. إن روح النزعة المحافظة تكون مفيدة طالما هي تتحرك – بمعنى آخر، طالما هي توسِّع ذاتها. إذا كان المرء، الفخور بعائلته، وبعد أن يقوم بواجبه تجاه أقربائه، يقدم على الخطوة التالية ويقوم بمساعدة أهالي مدينته، ومن ثم يقدم على خطوة أخرى، لكي يدافع عن شعبه، فإنه سوف يتطور. وعندئذ يكون اعتزازه بعائلته ووطنيته فاضلين، لأنهما يقودانه من درجة إلى أخرى، أكثر ارتقاء.

أما الركود فيولد عندما يكون الأنا مستغرقاً بمصالحه الخاصة فقط. فإذا كان مستغرقاً جداً بعائلته وبالافتخار العائلي، بحيث أنه لا يوجد بالنسبة إليه أحد آخر في الدنيا، ولا شعب سوى شعبه، عندها تتحول وطنيته إلى ستار أمام عينيه، مما يجعله أعمى ويمنعه من القيام بأية خدمة ليس فقط للآخرين، بل ولنفسه أيضاً. ففي الأنانية يوجد وَهْمُ المنفعة، لكنه يتضح أن الفائدة، التي تجلبها الأنانية، تكون بلا معنى لاحقاً.

يجب قبل كل شيء أخذ الحياة بعين الاعتبار، والحياة الحقيقية هي الحياة الداخلية، هي وعي الذات الإلهية وإدراك الروح الخاصة. عندما يبلغ الفؤاد الإنساني مرحلة إدراك الذات الإلهية – يكون كما القطرة بالضبط التي تتحول إلى بحر؛ تتوسع وتنشر أمواج محبتها على الأصدقاء كما على الأعداء؛ وهي تنتشر أبعد فأبعد – إنها تبلغ الكمال.

تكوين الطباع

الطبع – يمكن القول أنه عبارة عن اللوحة المؤلفة من الخطوط والألوان، التي ننشئها في ذواتنا. يحدث أن نراقب بدهشة كيف تفيق الرغبة في تشكيل الطبع منذ الطفولة – مثلما ترى عند الطير غريزة حبك الأعشاش. يبدأ الطفل من مراقبة مختلف الخصائص عند الكبار، ومن ثم يستعير منها ما يروقه أكثر وما يجذبه. يمكننا أن نفهم من هذا، أنه إذا كان الإنسان مُستَغرقاً بذاته فقط، فإنه لن يبقى لديه الوقت الكافي لكي يصنع طبعه، لأنه ليس لديه الوقت ليفكر بالآخرين. حتى إن أعظم الممثلين لن يتمكنوا من لعب الدور بشكل جيد، ما لم ينسوا أنفسهم على المسرح. والملحن، الذي لا يستطيع نسيان ذاته أثناء العزف، سيؤدي اللحن بشكل سيئ. كما في جميع الحالات الأخرى، أن تشكيل الطبع يرتبط مباشرة بقدرتنا على نسيان ذواتنا؛ وهذا هو مفتاح كل الحياة. لقد صادف أنني التقيت أشخاصاً يفهمون في الفن، العلوم، الفلسفة، الأديان، في جميع المجالات، وقد اكتشفت أنهم جميعهم قد حققوا هكذا نتائج رائعة بفضل قدرتهم على نسيان الذات؛ كما التقيت أناساً يتمتعون بمواهب عظيمة، لكنهم لم يتمكنوا من بلوغ مراتب عليا في الحياة، لأنهم لم يمتلكوا تلك الصفة بالتحديد.

إنني أذكر ذلك الموسيقار، الذي كان من أفضل الموسيقيين، والذي كان يتدرب لساعات كثيرة في اليوم، لكنه كلما كان عليه أن يعزف أمام جمهور المستمعين، كان يمتلئ بشعور "أناه". أول فكرة تخطر على باله كانت عن "أناه"، وبمجرد أن يحصل ذلك كانت كل انطباعات الحضور تصطدم بهذه الفكرة. عادة كان يحمل أداته ويخرج مسرعاً. كما إنني

سمعت، كيف كانت سارة برنارد تنشد "المارسيليازا" – بمجرد أن تظهر على المسرح وتبدأ بالقراءة، كانت تستحوذ على كل قلب في القاعة، لأنها في تلك اللحظات هي كانت بمثابة فرنسا كلها. لقد استطاعت أن تصبح كل فرنسا بفضل التركيز وبفضل طريقتها في نسيان نفسها.

إن بناء الطبع – مهمة أعظم وأكثر إلحاحا من بناء البيت، المدينة، البلاد أو الامبراطورية. يمكن التساؤل، لماذا هو هام إلى هذه الدرجة، إذ أن الأمر يتعلق فقط ببناء " الأنا " التافهة خاصتنا، لكن كم كثيرون هم أولئك الذين أقاموا العمارات، شيدوا الدول ثم اختفت كلها دون أن يتركوا أية ذكرى لهم. تاج محال – واحد من أعظم و أجمل القصور على الأرض. إنه يبعث عند الفنانين والمهندسين المعماريين، الذين يشاهدوه الإعجاب العميق، لكن الأمر لا يتعدى ذلك؛ إذ لا يهتم أحد بمَن شيده، لا يخفق القلب عند ذكر مؤسسيه.

إن الهندوسيين إلى الآن، عندما يستيقظون صباحاً، يرددون: " راما ، راما "؛ البوذيون يعبدون بوذا، والمسيحيين يقدسون المسيح. لماذا؟ فقط لشخص هؤلاء المقدسين العظام، بسبب جاذبيتهم الهائلة. الكلمات، التي نطق بها المسيح منذ مئات السنين، لا زالت تردد في أيامنا هذه بفضل شخصيته. والأمر هنا لا يتوقف على الروحانية وحسب: لقد مرَّ على الدنيا الكثير من " المجذوبين " Madjzub، الذين كانوا روحانيين بما فيه الكفاية. كانوا متحدين مع الرب، لكنهم ذهبوا دون أن يذكرهم أحد. فالقضية لا تتعلق بالعبادة فقط: كثير من الناس المتعبدين الزاهدين يقضون حياتهم في المعابد وفي الكنائس وهم يكررون الصلوات. عبادتهم قائمة بالنسبة لأنفسهم فقط؛ هم لا يستطيعون تحريك العالم. ولكن إذا لم يكن الأمر متوقفاً على الروحانية وعلى التعبد، فعلى ماذا يقوم إذن؟ إنه – في تمكين وتطوير الأنسنة لدينا.

ذلك التطوير يلامس فكرنا، قلبنا وعقلنا. إنه يلامس فكرنا، لأنه إذا كانت لدينا المحبة دون أن يكون لدينا الفكر، لكي نتمكن من معرفة رغبة الشخص المحبوب، فإننا قد نكون عاشقين عظام، لكن محبتنا لن تحمل أية قيمة. وهو يلامس قلبنا، لأنه إذا كان لدينا الفكر، لكن ليست لدينا المشاعر، ليست لدينا العواطف، فنحن سنتكلم بلباقة كبيرة، قد تكون

لدينا تصرفات لبقة جداً، لكن إذا كان في داخلنا حقد، إذا كنا لا نشعر بما ننطق، فمن الأفضل لنا أن لا نتكلم البتة. وهو يلامس العقل، لأنه إذا كان لدينا الفكر والمشاعر، لكن ليس لدينا عمق التفكير، ليس لدينا تصور عن الأصول، فإننا سنكون جهلاء وحمقى. قد يكون الشخص متبحراً في العادات والأعراف الأوروبية، لكن إذا أرسل إلى قصر ملك شرقي فسوف يرتبك. وبالعكس، قد يكون الشخص عارفاً ممتازاً لأعراف القصر الهندي، لكنه إذا وجد نفسه في أوروبا، فإنه سيكتشف أنه لا يفقه شيئاً عن القوانين المحلية.

أن نكون بشراً – امتياز لا مثيل له، لأنه بإمكاننا أن نطوِّر في ذاتنا الأنسنة وأن نكون بشراً ليس خارجياً وحسب، بل وفي عقولنا وفي سلوكنا. والامتياز يكمن في أن نكون الإنسان، الذي هو الغاية المثلى للإله.

لا الصخرة، التي لا تعرف مَن يقف عليها: ملك أم متسول، قديس أو مجرم؛ ولا الملائكة، الذين لا قلب لهم لكي يشعروا بالآخرين ويعانوا معهم – هم يشعرون بعظمة الله، إنهم يمجّدون الرب – بل الإنسان وحده، الذي مُنح القلب.

شاعر هندي قال: " أن تصبح نبياً، قديساً أو رسولاً، قاضياً أو قطباً[1]، صعب جداً. ماذا يمكنني أن أروي لك من معارك حياتهم، طالما أنه من الصعب جداً أن يصبح الإنسان إنساناً؟ ". بالتأكيد، ليس سهلاً بلوغ مراحل متقدمة ورفيعة من الروحانية. بداية يجب أن نحاول أن نكون بشراً. أن تكون ملاكاً ليس بالأمر بالغ الصعوبة؛ وأن تصبح مادياً – أمر بسيط جداً؛ لكن أن تحيا في هذه العالم، وسط كل مشاكله وصراعاته، وأن تبقى في نفس الوقت إنساناً – صعب جداً. إذا استطعنا تحقيق ذلك، فإننا نتحول إلى صورة مصغّرة عن الله في الأرض.

1 – كلمة قطب هنا تعني في قاموس المصطلحات الصوفية درجة أو مرتبة في التراتبية الروحية عند المتصوفين: زعيم أخوية صوفية أو معلّم. المترجم

الاحترام والمجاملة

هناك فضيلة يدعوها المتصوف المروءة؛ وهي فضيلة رقيقة جداً، بحيث يصعب التعبير عنها بالكلمات. فحواها – الامتناع عن تلك الأفعال، التي تتضمن عدم الاحترام تجاه شخص ما، وذلك إما بسبب عمره، وضعه، معارفه ومكرماته، وإما إنطلاقاً من التقدير تجاهه. إن أصحاب هذه الفضيلة يُقْدِمُون عليها ليس فقط تجاه مَن هو في موقع هام أو بخصوص الناس المحترمين، لأن هذه الصفة – عندما تبلغ مستوى متطوراً، هي تتظاهر تجاه الجميع بلا استثناء.

الفظاظة والمروءة لا تلتقيان. فتلك الأخيرة لا تتوقف عند الاحترام؛ إنها بمثابة شيء دقيق للغاية، عبارة عن الملاطفة والاحترام في آن. و إن هذه الفضيلة، في حال اكتمالها، تصبح متمكنة لدرجة أن المرء يسعى، انطلاقا من الاحترام والمجاملة إلى التسليم بغياب هذه الصفات عند الشخص الآخر؛ وعندما يبلغ شخص ما ذلك المستوى، فإن الأسلوب البشري للسلوك يكون قد وصل إلى نهايته، ويصبح الإنسان في سلوكه كما القديس.

لم يخلق الإنسان في هذه الدنيا فقط لكي يأكل، ويشرب ويتزوج؛ لقد خلق لكي يجعل الطبع الإنساني مثالياً. يساعده في ذلك وجود أفكار عميقة والإنتباه تجاه الآخرين. حتى مع توفر سلطة كبيرة، وضع اجتماعي هام، وبالرغم من الثروة، المعرفة وغير ذلك من خيرات العالم، إن الإنسان يظلّ فقيراً، طالما ينقصه غنى النفس – المعاملة الصحيحة مع الآخرين.

كل ما هو جميل مما يحيط بنا، يبقى خارجنا؛ يستحق التقدير فقط ذلك الجمال، الذي يمكن اكتشافه وتطويره في طبعه الخاص. قد يعبر المرء عن غياب المروءة لديه إنْ لم يكن في

الكلمات، ففي النظرة. إذ ليس من الضروري للبعض أن يتكلم ليكشف عن فظاظته. ففي النظرة، في النبرة، في عادة الجلوس أو المشي، في طريقة إغلاق الباب خلفه، يمكن للإنسان أن يكشف عن مشاعره. قد يصمت هو، لكنه يجبر الباب على النطق. ليس بالأمر البسيط أن تسيطر على ذاتك، ما لم تتحكم بعقلك.

من الصعب جداً أن يتعلم المرء الأسباب الدقيقة، كتلك، وأن يلتزم بها في الحياة. في أيامنا هذه يعتقد الكثيرون أن المروءة مجرد تعبير عن الضعف؛ لكن ما يمكن فعله فقط في ظروف السيطرة التامة على الذات، لا يمكن أن يكون ضعفاً. لا يمكن أن يُعتبر انتقاصاً أن تنتبه وأن تبدي لطفاً حتى تجاه ذاك، الذي لا يستحق ذلك. وإذا كانت هذه التصرفات لا تجلب المنفعة، فإنها مع ذلك تظلّ بمثابة تدريب، وهذا التدريب بالضبط هوالذي يجعل الإنسان كاملاً.

الرحمة

بمجرد أن تلامس النفس مملكة الباطن، التي هي مملكة ربانية، فإن النُبل الحقيقي للنفس يتظاهر عبر الرحمة التي يدعوها الصوفيون: الخُلُق. إن الملوك وأبناء السلالات الأرستقراطية يتلقون تدريباً ليكونوا رحماء، مع أن هذه الخاصية تُولَد عادة في قلب الإنسان. هذا يعني، أن كل نفس تصبح مفعمة بالأرستقراطية منذ اللحظة، التي تبدأ فيها ملامسة المملكة الباطنية. الأرستقراطية الفعلية – هي نبل النفس عندما تبدأ هذه الأخيرة بالتعبير في كل إحساس، فكرة، كلمة وفعل بإظهار الرحمة، التي هي من صفات الله. ليس للرحمة أية علاقة مع علاقة الرعاية أو الحماية، التي هي سلوك شنيع. الإنسان الرحوم، قبل أن يعبّرَ عن نبله، يحاول الإختباء حتى عن عيونه الخاصة.

إن النبلاء من الناس العظام هم رحماء، لأنهم الأكثر تحسساً تجاه كل ما يجرح وكل ما يتسبب بالألم، لكل ما يقع على عاتقهم من جرّاء الأنفس غير الناضجة، ولذلك هم، وبسبب طيبتهم، يسعون للابتعاد عن ارتكاب ذات الأخطاء تجاه أي شخصٍ آخر، بغض النظر عن المرتبة التي يشغلها.

إن الحقيقة العظيمة تكمن في كلمات المسيح من الموعظة على الجبل: "هنيئاً للودعاء، لأنهم يرثون الأرض" (لوقا ٦: ٢٠ – ٢٣. المترجم). ستبقى هذه هي الحقيقة، بمعزل عن الزمن وعن تطور العالم. أثناء مرحلة الأرستقراطية، كما أثناء مرحلة الديموقراطية، لن تنقص أبداً قيمة النبل الحقيقي للشخصية، والذي يتظاهر في الرحمة. من السهل النطق بهذه الكلمة، لكن من الصعب ممارسة الرحمة طوال الحياة، إذ لا نهاية للأفكار حول كل خطوة ضرورية من

أجل بلوغ هذه النتيجة. يتطلب الأمر هنا حسن التقدير وحس العدل، المقدرة على موازنة كل فعل وكل تصرف؛ بالإضافة إلى ضرورة التلقي الدقيق للفن والجمال، لأن الإنسان، بموازاة تكميله وتطويره لشخصيته، هو يحقق النجاحات الباهرة من المهارة. في الحقيقة، إن تكوين الشخصية يعتبر الشكل الأرقى للفن. والمتصوف يعتبر تنمية وتربية الصفات الإنسانية، والتي هي غاية وجوده في هذه الدنيا، بمثابة دينٍ له.

في يوم من الأيام عبّر فتى عن عدم صبره تجاه أبيه العجوز، الذي كان لا يسمع بشكل جيد ولذلك راح يكرر السؤال مرتين وثلاث. عندما لاحظ الوالد مشاعر الغضب على وجه ابنه، قال له: " يا بني، هل تذكر ذاك اليوم، حين كنتَ صغيراً وسألتني: " ما هذا الطير؟ " — و أجبتك " عصفور دوري ". لقد سألتني، على الأرجح، حوالي خمسين مرة، وقد كان لدي ما يكفي من الصبر لأن أكرر لك هذه الكلمة مرة بعد مرة، دون أن أشعر لا بالانزعاج ولا بالتوتر؛ بل كنتُ سعيداً لأن اشاركك ما أعرفه. الآن، عندما أصبحت لا أسمع جيداً، عليك أيضاً أن تقابلني ببعض الصبر وأن تكرر شيئاً ما مرة بعد أخرى، إذا لم أسمع على الفور ". لكي يتعلم المرء هذه الطريقة النبيلة في السلوك، يجب عليه أن يتحلى بالصبر قبل كل شيء — أحياناً على شكل التحمل، وأحيانا في صيغة اللطافة، وأحياناً في صيغة القدرة على المغفرة.

عند التعاطي مع الناس قليلي الثقافة يتوجب التذكر، أن الحضارة الحالية تعني التطور. وعلى أولئك، الذين لم يتلقوا تعليماً كافياً، أن ينالوه، لكي يفهموا الحياة بشكل أفضل. هناك إمكانيتان فقط: إما أن تتقدم للأمام، أو أن تسير للوراء. إما أن يبدأ الفرد بالتفكير مثل أولئك، الذين لم يحصلوا على التعليم الكافي، أو أن يساعدهم في رفع مستواهم. يجب أن تأخذ في يسرٍ بيد الشخص الجاهل وتقوده نحو المُثُل الرفيعة.

في وقت ما كنت أقيم بقرب معبد هندوسي في الهند، حيث كان يخدم فيه اثنان من البوابين. كانا من الأفغان، القوم المتميز بالاعتزاز وبالفظاظة، وقد كانا ناشفين؛ لكن كانت تلاحظ في تعابير وجههما ملامح الصدق والطيبة. كنت أمرّ كثيراً بقربهما، لكنهما لم يكونا يلقيان أي اهتمام بظهوري وباختفائي، دون أن يهتموا البتة بقواعد اللباقة المتبعة. وفي أحد الأيام جاءني واحد منهما برسالة من سيده. قمت واستقبلته بكل رحابة؛ ومنذ ذلك اليوم

راحا، كلما مررت من جانبهما، يستقبلاني بحرارة كبيرة، مع ابتسامة وترحيب مخلص ولم يهملاني بعد ذلك مطلقاً. لقد حصل ذلك، لأن هذين الشخصين تلقيا درساً لم يمسهما بسوء ولم يجرح شعورهما، وبما أنه ترك أثراً طيباً في نفوسهما، فقد قررا أنه يجب مقابلة الأدب بالأدب.

إن محاولة فرض الفضيلة على شخص ما — هو غرور؛ أما أن تمنحه فرصة مشاهدة جمال السلوك الحسن — فهو ثقافة. يجب علينا أن نعتبر واجباً مقدساً بالنسبة لنا أن نتعامل مع الناس، الذين يحتاجون إلى التطوير، بكل لين وبكل أدب، بحيث تنشأ وتتطور لديهم الثقافة والجمال، اللذين سيكونان عندئذٍ مشتركين بيننا وبينهم.

المقدرة على غض البصر

(القدرة على التغاضي)

هناك نزعة أخرى تتظاهر بالتدريج عند الإنسان، الذي يتطور روحياً، وهذه النزعة – هي القدرة على غض النظر، أو دارغودزا Dargudza – كما يسميها الصوفيون. في بعض الأحيان، قد تبدو هذه النزعة كما لو أنها إهمال، لكن الإهمال لا يمارسه مَن يغض البصر؛ إنما المهمل هو ذاك، الذي لا ينظر. بكلمة أخرى، إن نزعة التغاضي (أو عدم الملاحظة حرفياً) يمكن تسميتها بالمقدرة على الترفع فوق الأسباب. لكي لا يلاحظ المرء، يتوجب عليه الترفع؛ فالذي يقف أدنى من الحياة لا يكون قادراً على عدم ملاحظة شيء ما، حتى لو كان يرغب بذلك بقوة. المقدرة على التغاضي – هي تعبير عن السخاء ورحابة الصدر. إنها تعني مهارة المرء على النظر وفي نفس الوقت أن يغض الطرف، أن يرى وأن لا يلحظ ما رآه، مهارة أن لا يكون مهاناً، مجروحة عزّته، أو أن لا يقلق بخصوص شيء ما، بل والقدرة على عدم التفكير به. إن هذه الميزة لعلامة على نبل الخلق، إنها ميزة تلك النفوس، التي جُبلت لغايات أسمى ولأهداف أعلى.

ربما يسأل سائل: إلى أي حد هذا مفيد؟ ربما، إنه ليس دوماً، لكن في نهاية المطاف – كل شيء مبرر ومعقول؛ مَن يجيد أن يغض النظر سيدرك أيضاً الجانب المفيد لمهارته. ربما، هو لن يعي ذلك سوى عند النهاية، بعد أن يكون قد اصطدم بعدد لا يحصى من الإزعاجات؛ لكن الخير هو كل ما ينتهي على خير.

في كثير من الأحيان، إن غض النظر يتطلب جهداً أقل مما تتطلبه ملاحظة شيء ما، ويمكن معاينته بسهولة. هناك أشياء مهمة وأشياء غير هامة؛ إن الإنسان مع تقدمه في الحياة – يلاحظ كيف أن أشياء كثيرة لا معنى لها، أنه يمكن التغاضي عنها بسهولة. مَن يدقق النظر في كل ما تقع عيناه عليه في الطريق، يفقد وقتاً كثيراً في رحلته، التي هي بالأصل تتطلب حياة كاملة من أجل بلوغ الهدف. إذا كان الإنسان – الذي يتسلق جبل الحياة وهو يبغي الوصول إلى القمة – سوف يضطرب لكل أمر، فإنه لن يبلغ الذروة أبداً؛ بل هو سيبقى إلى الأبد عند أسفل الجبل يعيش القلق والاضطراب. عندما يدرك الإنسان أنه لم يبقَ أمامه للعيش في هذه الدنيا سوى أيام معدودة، فإنه سيتخلى عن القلق بخصوص الصغائر؛ بل سيبدأ التفكير فقط بما هو هام وحيوي بالفعل. إن الإنسان وهو يتمسك بالتوافه، يضيع إمكانية تحقيق أهداف عظيمة في الحياة. مَن يتوقف عند الأمور التافهة – ضئيل؛ والنفس، التي تنشغل بالأمور العظيمة – جليلة مهيبة.

إن القدرة على التغاضي – هي أول درس في التسامح. هذه النزعة تنشأ من المحبة والتعاطف؛ إذ أن مَن يميل للكراهية – هو يلاحظ حتى أسخف الأخطاء، بينما ذاك، الذي يتحلى بالمحبة، لن يلحظ بالتأكيد أخطاء الآخر، بل غالباً ما يسعى لتحويل عيوب المعشوق إلى محاسن. يوجد في الدنيا عدد لا يحصى من الأسباب، التي تعرض الحسن والجمال، وهناك مجموعة لا تحصى من الأسباب، التي تعرض التشوه والقبح؛ ليس هناك نهاية للمحاسن ولا نهاية للعيوب؛ وبالتالي أن نظرة الإنسان إلى الحياة تتعلق بمستوى تطوره.

كلما ارتقى للأعلى المرء، كلما صار أُفقه أكثر اتساعاً. إن نزعة الإعجاب والتحبب، التي هي نزعة تحليلية تقوم بتقييم، بتقدير وبملاحظة كل شيء، تقود الإنسان إلى الرغبة بغض النظر. لا تدينوا، كما قال المسيح، لكي لا تكونوا أنفسكم مدانين. كلما تفكر المرء في هذه الموعظة، كلما دخلت إلى أعماق الفؤاد أكثر. هذه الموعظة تعلم كيف أنه يجب عدم التدقيق وعدم ملاحظة كل ما يتعارض مع تصورنا عن الصيغة، التي يتوجب أن تكون عليها الحياة، ما لم تترفع إلى المستوى من الوعي، حيث كل الحياة تصير رؤية هائلة لفطرية الإله.

المهادنة
(المسالمة)

إن جميع الجهود، التي تتخذ بهدف تطوير الشخصية أو من أجل بناء الطباع، يجب أن يتم إكمالها وتحديثها ليس للتأكيد على تفوقنا تجاه الآخرين، بل في سبيل تحقيق تناغم أكبر مع المحيطين ومع أولئك، الذين تجبرنا الحياة على الاحتكاك معهم. إن المهادنة، أو، كما يسمِّيها الصوفيون، الاتفاق (جاءت في النص الأصلي بنفس اللفظ ولكن بحروف لاتينية – المترجم) – هي ليست مجرد خصلة من أخلاق المتصوف، بل إنها خاصيته المميزة أيضاً. ليس من السهل اكتساب أو الإفصاح عن هذه الفضيلة، لأنها بحاجة ليس للإرادة الطيبة وحسب بل وللحكمة. إن موهبة الديبلوماسي تكمن في مهارة تحقيق النتائج المرجوة بواسطة الاتفاقية. عدم الاتفاق يمكن تحقيقه بسهولة كبيرة؛ ونحن غالباً ما نلحظه عند الأشكال الدنيا من المخلوقات! أما الاتفاق – فهو الذي يصعب بلوغه، إذ أنه يتطلب رحابة لناحية تقبل الحياة، وهذا يشكل التعبير الحقيقي عن الروحانية. إن ضيق الصدر يجعل الأفق ضيقاً بالنسبة لنظرة الإنسان؛ وإن مثل هكذا شخص لا يكون قادراً على الاتفاق مع الآخرين. مهما تباعدت وجهتا نظر شخصين، فمن الممكن إيجاد أساس مشترك بين الرأيين؛ لكن هذا الأساس المشترك قد يكون بعيد المنال، والإنسان ليس دائماً مستعداً للسير بعيداً إلى هذه الدرجة، من أجل الوصول إلى التوافق. كثيراً ما ينقصه الصبر على التحرك كفاية إلى الأمام للقاء الآخر. كل شيء عادةً يجري بالعكس: كل واحد يريد أن يأتي الآخر إلى حيث يقف هو، بينما هو نفسه لا يشعر بالحاجة للتحرك من هذه النقطة.

هذا لا يعني، أنه يجب على الشخص، الذي يرغب في أن يصبح متصوفاً حقيقياً، أن يتخلى عن جميع قناعاته في سبيل إمكانية الوصول إلى اتفاقية مع كل شخص؛ لا توجد فائدة من التساهل دوماً مع أية فكرة من أفكار شخص ما، كما أنه لا توجد فائدة من انتزاع قناعاتك الخاصة من قلبك بشكل دائم. فالاتفاق لا يكمن في ذلك. الإنسان القادر أن يستمع إلى الآخرين، يمكنه أن يقنع الآخرين بالإصغاء إليه أيضاً. ومَن يوافق بسهولة مع الآخر، يمتلك قوة كافية لكي يقنعه بضرورة الموافقة معه. لذلك، إن الشخص، الذي يتصرف بهذه الطريقة، يكون هو الرابح دائماً، بالرغم من أنه قد يبدو أحياناً خاسراً. إذا كان الإنسان قادراً على النظر من زاويته الخاصة، وفي نفس الوقت - النظر من زاوية الآخر، فإنه يحصل على رؤية كاملة وعلى فهم واضح؛ إنه، يمكن القول، ينظر بواسطة كلتا العينين.

من دون شك، إن الاحتكاك يولّد النار، لكن هذه النار هي عبارة عن توافق الذرات. إذا كان اثنان يملكان وجهتي نظر وتجادلا حولهما، فإن هذا يساعد في إذكاء المناقشة والتفكير ولا يسبب مشاكل خاصة؛ لكن إذا كان الشخص يجادل لأجل الجدل بحد ذاته، فإن الجدل يتحول إلى هدف له وبالتالي لا يعود يشعر بالرضا من الاتفاق. عندها تصبح الكلمات وسيلة لاستدعاء اللاتوافق، والبراهين تتحول إلى محروقات تزيد من لهيب عدم الاتفاق هذا. بينما الحكمة تقوم هناك، حيث يكون الذهن مرناً؛ إذ أن مِثل هكذا إنسان يفهم ويرى كل شيء: ما هو الصحيح في الغير صحيح وما هو غير صحيح في الصحيح. إن الإنسان، الذي يحقق كمال المعرفة، يترفع فوق مفهومي الحقيقي والكاذب. هو يعرفهما، وفي نفس الوقت لا يعرفهما، بإمكانه أن يقول الكثير – وفي نفس الوقت ماذا يمكنه أن يقول؟ عندئذ يصبح سهلاً عليه مصالحة الجميع وكل شيء.

واحدة من الحكايات تروي عن اثنين من المتصوفين، اللذين التقيا بعد سنوات طويلة، حيث أن كل واحد سار خلالها في دربه الخاصة. لقد كانا سعيدين باللقاء بعد طول افتراق، لأن كلاهما كانا مريدين عند مرشد واحد. سأل أحدهما الآخر: " قُصَّ علي، من فضلك، كيف كانت مسيرتك؟ بعد كل هذه السنوات الطويلة من الدراسة والممارسة والتدريب الصوفي أنا حفظت درساً واحداً: كيف أوفق بين الآخرين، إني أجيد فعل ذلك بمهارة. لكن، قل

لي، ماذا تعامت أنت؟ " فأجاب الثاني : "كل ما هو موجود في الدنيا – إنما هو موجود لأجلي، وأنا – مَلِكٌ على كل شيء . كل ما يحدث في العالم – يحدث برغبتي" . هنا جاء مرشدهما، فحكيا له ما تعلماه خلال ترحالهما . فقال المرشد : " أنتما كلاكما على حق . إن التفاني الواضح عند الأول، قد ساعد على تطور المقدرة على التوفيق بين الآخرين ؛ وعند الثاني، لم يبقَ شيء من إرادته الخاصة، وإذا كانت هناك بقايا إرادة لديه – فهي عبارة عن إرادة الإله" .

التفاؤل والتشاؤم

التفاؤل هو عبارة عن تيار تلقائي، فطري من الحب؛ إنه يمثّل تعبيراً عن الإيمان في الحب. بهذه الطريقة، *إن الحب الذي يؤمن بالحب هو التفاؤل*. أما التشاؤم فهو ينشأ من عدم الرضا، من الانطباع السيئ، الذي يطول ويطول ليتحول إلى عائق على درب الحياة. التفاؤل يمنح الإنسان موقفاً مفعماً بالآمال تجاه الحياة، بينما المتشائم لا يرى سوى العتمة. بدون شك، إن التشاؤم أحياناً يدلل على النزاهة والعقل، كما يمكن أن يشير إلى الخبرة. لكن النزاهة بحد ذاتها لا تستطيع التغلب على الصعوبات، التي نقابلها في حياتنا؛ الإيمان فقط هو الذي يحلّ المشاكل. الحكيم يعرف أن الذكي لا ينظر بعيداً إلى الأمام؛ فالعقل يخترق فقط لمسافة محددة دون أن يذهب أبعد، لأن العقل – هو المعرفة، التي تنتمي إلى الأرض. وأما بخصوص الخبرة والتجربة، فما هي الخبرة التي يحصل عليها الإنسان؟ الإنسان يتفاخر بخبرته إلى أن يكتشف كم هو العالم هائل وشاسع. عند القيام بأي عمل أو عند أي تردد لا تمرّ لحظة من دون الحاجة إلى الخبرة، لكن كلما كانت تجربة الإنسان أكبر، كلما أدرك بشكل أعمق كم هي قليلة معارفه.

إن التأثير النفساني للتفاؤل هو كما يلي: هو يساعد في تحقيق النجاح، لأن الله خلق العالم بفضل الروح التفاؤلية بالتحديد. فالتفاؤل يصدر عن الرب، بينما التشاؤم ينشأ في فؤاد الإنسان. إن الإنسان، وبناء على تجربته الشخصية، يستنتج: "يبدو أن هذا سيكون غير موفق، ذلك لن ينجح، وسيجري كل شيء ليس كما يجب". بالنسبة للمتفائل ليس مهماً بماذا سينتهي كل شيء؛ المهم أنه حاول. إذ ما هي الحياة؟ الحياة – هي الإمكانية، وبالنسبة للإنسان

المتفائل أن الإمكانية – هي الوعد، بينما بالنسبة للمتشائم – هي الفقدان. قطعاً ليس الخالق هو المسؤول عن هذا الفقدان، إنه الإنسان، الذي ضيّع فرصة الإمكانية.

يميل الكثيرون منا لإطالة أمد مرضهم، تاركين الزمام للأفكار التشاؤمية. كثيراً ما نلاحظ كيف أنه بالنسبة للشخص، الذي عانى طويلاً من داء ما، أن هذا الداء قد تحول إلى كابوس واقعي، بحيث أن غياب الداء يبدو أمراً غير معقول. إن مثل هكذا إنسان يؤمن، أن المرض – من صلب طبيعته، حتى أنه لا يعرف كيف يمكن أن لا يشعر بالمرض. أي أن الناس هم الذين يمسكون بالمرض في ذواتهم. هناك أشخاص متشائمون يؤمنون في أنه قد كُتِب عليهم من قبل المصير أن يعيشوا تعساء، في أنهم قد خلقوا في الأسمال وهم ليسوا قادرين على أن لا يكونوا تعساء، ذلك لأن السماء والأرض ضدهم؛ لكنهم هم نفسهم يؤلفون جوهر فقرهم ويميزهم التشاؤم. إن حياة الإنسان ترتبط بما يركز اهتمامه عليه، بحيث إذا كان تركيزه ينصب على مأساته الخاصة، فإنه سيكون غير سعيد . الإنسان، الذي لديه عادة لا يحبذها، غالباً ما يعتبر نفسه عاجزاً عن محاربتها، لأنها جزء من سجيته؛ لكن سجية الإنسان هي فقط ما يعتبره نفسه مثل ذلك. كما أن كل شيء في الطبيعة قد أبدعه الرب، كذلك إن كل فرد يخلق سجيته بنفسه؛ وكما إن الله العظيم قادر على تغيير طبيعته، كذلك الفرد أيضاً قادر على نفس الشيء. إن الإنسان من بين جميع المخلوقات في الأرض له أكثر من غيره الحق في التفاؤل، لأنه يمثّل الإله على الأرض: الإله – القاضي، الإله – الخالق، والحاكم على كل ما خلق من قبله. الإنسان هو الآمر على حياته، على سلوكه وتصرفاته وظروفه – فقط إذا كان يعلم ذلك.

إن الإنسان، الذي يتحلى بالتفاؤل، قادر على مساعدة الشخص الغارق في لجة المخاوف والخيبات؛ وبالعكس، إذا جاء إنسان مريض أو ضعيف روحياً إلى المتشائم، فإن هذا الأخير سوف يسحبه وراءه إلى الأسفل، إلى قاع المرارة. إلى جانب أحدهما – الحياة، وإلى جانب الآخر – الموت. الأول يصعد إلى ذروة الجبل، الثاني – يغوص إلى هاوية الأرض. وهل يوجد أفضل مساعد في فترات التوبة أو الفشل، عندما يبدو كل شيء في الدنيا أسود ، من الروح

التفاؤلية، التي تثق أن كل شيء سيكون على ما يرام؟ لن نبالغ إذا قلنا، أن روح الرب ذاتها تأتي إلى الباحث في صيغة روح التفاؤل.

بغض النظر عن مدى صعوبة الوضع الحياتي، ومهما تكن العوائق هائلة، فإنه ممكن التغلب على كل شيء؛ لكن الروح التشاؤمية للفرد هي التي تسحبه إلى الأسفل، بينما هو بالأساس يتواجد في أسفل القاع . بالنسبة للروح التشاؤمية إن الموت يكون مرغوباً أكثر من المعانات الدنيوية، التي ترميه نحو الأرض، لذلك إن المكافأة الأعظم، التي يمكن نيلها في هذه الدنيا، هي روح التفاؤل، بينما إن أكبر عقوبة على الآثام الأرضية ينالها الإنسان — هي التشاؤم. حقاً، إن المفعم بالآمال ليحقق النجاح.

السعادة

هل السعادة ترتبط بالظروف أو بموقفنا من الحياة؟ هذا هو السؤال ، الذي غالباً ما يُطرَح والذي تصعب الإجابة عليه. الكثير منا ، مَن يمتلك بعض التصور عن الفلسفة، سيقول أن العالم المادي – مجرد وهم، والشروط الحياتية – مجرد حلم، لكنهم قليلون أولئك القادرين أن يؤمنوا في ذلك بالفعل. أن يعرف المرء بعض النظرية – شيء ، وأن يستخدم ذلك في الممارسة – شيء آخر كلياً . من الصعب جداً الإرتقاء فوق التأثير، الذي تمارسه علينا الظروف. من دون شك، هناك وسيلة واحدة فقط يمكن أن تساعدنا للارتفاع فوقها ، وهي تكمن في تغيير تقبلنا للحياة؛ وهذا التبدل، بدوره، يحدث من خلال تغيير موقفنا تجاه الحياة.

السعادة هي ازدهار النفس. فالطفل، الذي تعلّم منذ نعومة أظفاره السلوك غير المؤدب، عدم الحذر في التعامل مع الآخرين واعتاد كذلك على التخريب، مع الزمن سيجذب إليه نفس القوة وسيحدث معه ذات الشيء . ما نقدم للطفل – هو ما سوف يرتد عليه في النتيجة. فهل هم كثر أولئك، الذين يراعون هذه الحقيقة؟ الناس لا يعتقدون أنهم معرضون لأن تصيبهم كلماتهم الخاصة، تصرفاتهم الخاصة، أفكارهم ومشاعرهم؛ إنهم يتابعون على ذات المنوال، لكن في الوقت المناسب سينعكس كل شيء عليهم، طارداً إياهم من بلاد السعادة.

السعادة في اللغة السنسكريتية يرمز بها بكلمة سانسارا Sansara . تُصَوَّر الحياة كالتواجد وسط الضباب. يفكر الإنسان ويقول، يفعل ويشعر، لكن لا يفهم مطلقاً لماذا. إذا كان الإنسان يعرف سبباً واحداً، فإنه دوماً خلف هذه المعرفة يوجد دوماً سبب آخر

مخفي، لا يشك الإنسان حتى بوجوده. في كثير من الأحيان، إن الظروف الحياتية تبدو كالأسر؛ بل ربما يظهر الأمر كما لو أنك تمشي بين النهر والهاوية؛ ولكي ترتفع فوق ذلك لا بد من أجنحة، التي لا تتوفر عند كل شخص. تملك النفس جناحين: واحد – الاستقلالية، والآخر – الحياد أو عدم المحاباة. يتطلب الأمر درجة كبيرة جداً من التفاني، قبل أن تتمكن من بلوغ الاستقلالية في الحياة، وأما عدم المحاباة والعدل فيدخل في تناقض مع طبيعة المحبة والتعاطف؛ من الضروري من كل بد أن تقسم القلب إلى نصفين بالضبط، قبل أن تتمكن من ممارسة النزاهة في الحياة. بالتأكيد، عندما تتمكن النفس من فرد جناحيها، فإن الإنسان يبدأ برؤية الظروف الحياتية منفصلة عن ذاته؛ عندئذ يترفع هو فوق جميع الظروف، التي تجعل من الإنسان أسيراً.

ليست هناك صعوبة ما يستحيل التغلب عليها، عاجلاً أو آجلاً، لكن حتى لو استطاع الإنسان الحصول على ما كان يتمناه بشغف طيلة حياته، لا بد سيبقى شيء ما – لم يحصل عليه بعد؛ لذلك، إذا كان الإنسان يسير من شيء إلى آخر، محققا بذلك أحلامه، فإن مادة رغباته ستنمو وتنمو وتتكاثر، ولن تكون لها نهاية. كلما أراد تحقيق الكثير في الدنيا، كلما ظهرت له عوائق أكثر يضطر للتغلب عليها؛ وإذا حافظ الإنسان على مسافة بعيدة من حياة العالم، فإن حضوره هناك يكون بلا معنى. كلما أصبحت المهمة أكثر أهمية، كلما كان تحقيقها أصعب.

هكذا يتواصل الليل والنهار، وكل شيء يستمر إلى ما لا نهاية. لذلك، يجب على المتصوف أن يمتلك ليس الصبر وحسب، لكي يتجشم عناء كل ما يتطلب الأمر، ومن ثم أن يتحرر على الفور من الصعاب ومن الألم، بل وأن يمتلك المهارة في رؤية الأسباب من زاوية محددة. إن هكذا وجهة نظر، كثيراً ما تغير حياة الإنسان بالكامل. يمكنها أن تحول جهنم إلى سماوات، وأن تحوّل المرارة إلى فرح. يمكن للإنسان أن ينظر إلى الحياة بطريقة تجعل حتى الوخزة الخفيفة تبدو له كضربة السيف في الصميم، لكن عند النظر من زاوية أخرى، يكون القلب محمياً من الوخزات؛ بحيث لا يمكن أن يضيره شيء؛ كل ما كان يجرّ للأسفل كالحجر، لا يمارس الآن عليه أي تأثير.

ما هي الحكمة من السير على الماء؟ الماء يرمز للحياة: واحد يغرق فيها، آخر يسبح، لكن هناك مَن يستطيع السير على الماء. الإنسان، الذي بعد أول وخزة خفيفة يشعر بالتعاسة على مدى يوم كامل، هو ينتمي إلى الفئة الأولى. ذاك، الذي يأخذ ويعطي، يحول الحياة إلى لعبة، هو يسبح. هذا لن يحزن عند تلقيه صدمة واحدة، لأنه يغرف الرضا من قدرته على الرد على الضربة بضربتين. لكن ذلك، الذي لا يمكن لشيء أن يمسه وأن يجرحه، فهو يتواجد في خضم الحياة وفوقها في نفس الوقت. إنه يسير على الماء! الحياة تكون تحت قدميه مع جميع أفراحها ومآسيها. حقاً، إن الاستقلالية والنزاهة هما الجناحان، اللذين يمنحان النفس المقدرة على الطيران.

التلقيح والتطعيم
Vaccination

إن النظرية، التي تقف وراء مفاهيم التلقيح والتطعيم، هي ذات النظرية، التي علّمها كطريقة في اليوغا Khatkhaioq شيفا أو المهاتما[1] Mahadaeva، كما يسمونه غالباً. يقال عن المهاتما، أنه كان يتناول السم وبفضل ذلك استطاع أن ينتصر على مفعوله. لقد كان المهاتما من أكثر الزهاد شجاعة. يصور مع أفعى ملتفة حول عنقه. إذا كان هناك مَن يستطيع أن يكون صديقاً للأفعى، بحيث يستطيع أن يحملها على عنقه بدون أدنى خوف، فهو، بلا شك، قادر على العيش بحرية إلى جانب ذاك، الذي لا يعجبه. إن الكراهية، الموقف المسبق والانفعال- هذه المواقف، التي تنشأ عادة عندنا بحضور أولئك، الذين لا يروقون لنا، لن تظهر في تلك الحالة. فالنفس، التي نسيت المعارك مع كل ما كان يثير الرعب فيها، ما كان يبعث القشعريرة لديها ويدفعها إلى الهرب، سوف تنتصر على الحياة وستصبح سيدة الحياة؛ إنها ستبلغ مملكة الرب. بالتأكيد، إن الوسائل، التي لجأ إليها المهاتما، كانت متطرفة؛ لذلك، إن مَن ينصح تلاميذه بها في زماننا هذا، سوف يشتهر بأنه أحمق!

نفس الشيء بخصوص التلقيح. إذ ما كادت هذه الطريقة الحديثة تظهر، حتى بدأت تصطدم مع موقف مناوئ مسبق ومع مناهضة، على الرغم من ضرورة الكشف عن القاعدة، التي تقف وراءها. تقودنا هذه القاعدة نحو وعي أعمق للحياة، وهي تمنحنا إمكانية فهم أنه حتى ما

1 - Mahadeva: باللغة السنسكريتية Maha = عظيم، Deva= إله.. غالباً ما تستخدم الكلمة بخصوص شيفا — المترجم

يمكن أن يسبب الموت، يمكنه أن يعيدنا إلى الحياة، إذا وضعناه في كأس وأعطي لنا لتناوله. وهو يحلّ العنصر السام المدمّر، إن الجسد يكتسب مناعة من الفناء، أي أن هذا التدمير الجزئي يتوقف عن كونه هكذا ويتحول إلى جزء من الطبيعة. هنا يكمن مبدأ التدمير من وجهة النظر الروحانية.

سوف يبقى الموت موتاً إلى أن يتعرف الإنسان عليه. عندما يقوم الإنسان بتَمَثُّله في ذاته، فإنه يصبح سيداً على موته. هذا هو المغزى من رسالة السيد المسيح، الذي ظلّ يتحدث عن الحياة الداخلية منذ البداية وحتى النهاية؛ إن اللغز في هذه الرسالة يكمن في أن الإنسان بمجرد يُحِلّ الموت في ذاته، فإنه يكسب الحياة الداخلية.

غالباً ما تسمع من الناس: " أنا لا أحب الخلّ، فهو يضرّ بصحتي "؛ " أنا لا أستطيع شرب الحليب، لأن معدتي لا تهضمه بشكل جيد "؛ " أنا لا أطيق السكر في الشاي، فهو لا يروق لي ". بالنسبة لهم كل هذه المواد عبارة عن سموم. إن الإنسان ، و هو يقول ذلك ، يجعل من مواد معينة بمثابة مواد غريبة بالنسبة لطبيعته، ولهذا يصبح تحت سلطتها. سيحين وقت، عندما تبدأ هذه المواد بالتحكم بهذا الشخص ويصبح هو تحت سيطرتها. إن مذهب شيفا قد قام على السير دوماً ضد نقاط ضعفه. ومع أنه اعتبرها نقاط ضعف لديه، وليس جزءاً لا يتجزأ من طبيعته، فإنه قد تصرف بالضبط، كما لو أن كل شيء كان ينتمي إلى طبيعته، وكان يتشرب كل ما كان خارجياً بالنسبة لها، لكي ينفي إمكانية الحالة، التي يكون فيها هو موضوعاً لتأثير معين. إن الحواة، وهم يسمحون للأفاعي بلسعهم بشكل خفيف، إنما هم يكتسبون بالتدريج مناعة ضد أثر السم، وهذا ما كان مع الإله شيفا: لقد صنع من الموت طوقاً ووضعه في عنقه. ربما يذهب البعض في هذا الأمر نحو التطرف، لكن المبدأ يجب تعلمه، ومن المفيد معرفته. إنه يعلمنا أن كل ذلك يمكن، أن نجده في أنفسنا – كل تلك القوة المدمرة، التي هي مصدر الخوف والألم والخيبة.

عقد الزواج

عقد الزواج – يعتبر من أكثر الأسرار قداسة. قبل كل شيء، هو ليس عقداً، ليس اتفاقية تجارية؛ إذا القينا نظرة على الزواج من وجهة نظر علوية، فإننا سنجد أن الزواج هو عبارة عن تحقيق الغاية من الحياة.

من الناحية الفيزيائية، إن الحياة، الممتلئة بالكفاح وبالمعاناة، ربما يتم تقبلها بشجاعة كبيرة وبصلابة عظيمة، مع طاقة أكبر بكثير لمقارعتها، فيما لو إذا اتحدت قوتان متناغمتان مع بعضهما البعض. لقد قال أحد الشعراء الفارسيين: "عندما يتحد قلبان معاً، فإنهما يصبحان قويين كفاية لكي يُحركان الجبال". الحياة – كفاح متواصل. ولكي يحصل المرء على القدرة من أجل الوقوف وجهاً لوجه مع هذا الصراع، لا بد له من أن يكون قوياً وعظيماً. عندما يتحد قلبان – هما يصبحان أكثر مقدرة للصمود، أكثر قوة ومباركين بدرجة أكبر.

لنناقش هذه المسألة من وجهة نظر العقل. مهما يكن الشخص حكيماً، قوياً، مقداماً وجباراً، فهو دائماً ينقصه شيء ما. في نهاية المطاف، لكلٍ عيوبه ونواقصه. بغض النظر كم هي كثيرة حسنات المرء، هو دوماً بحاجة لشيء ما أفضل: الاقناع في لحظة التردد، الدعم من الخارج في لحظات القلق، بعض الضوء في لحظات الضياع، كلمة تشجيع ومشاركة في الحزن والمصيبة. يمكن للمرء أن يمتلك كل ما يخطر بالبال – الصحة، السلطة، المكانة الإجتماعية – كل ذلك لن يجعل حياته متوازنة. إذا كان هناك ما يمكنه إدخال التوازن إلى حياته – فإن هذا الشيء هو النفس الأخرى، التي تمنحه ما هو محروم منه في تلك اللحظة، التي يحتاج إلى ذلك. لذلك، من الناحية الفيزيائية، إن الزواج هو قوة، ومن الناحية العقلية – هو ما يكسب التوازن.

و أخيراً، لننتقل إلى وجهة النظر الروحية للموضوع. كان الحكماء في العهود الغابرة يقدمون للناس الجواب التالي على سؤالهم، لماذا خُلق الكون: لقد وجد الإله نفسه وحيداً. بغض النظر عن كمية الأشعة من نور الحكمة، التي ستنير بها الحياة، فإننا دائماً سوف نتلقى جواباً وحيداً على السؤال بخصوص الأسباب الكامنة وراء عملية الخلق: إذا كان هناك ما هو موجود في الكون، فإن هذا الموجود هو واحد أحد، وهو ال له. لذلك، إن كل التظاهرة المخلوقة من قبله، هي موجودة فيه ذاته. وطالما أن الرب قد خلق ذلك، فإن هذا قد تم فقط لأنه أحس بالوحدة. يمكننا أن نجد انعكاساً لهذه الفكرة في العقيدة القديمة، حيث أن حواء خلقت من ضلع آدم. هذا يعني بالتحديد، أن الكون قد خلق من الذات الإلهية، وأن هذا العالم هو مجرد تظاهرة للرب. لقد شاء أن يرى لكي يتجاوز مشكلة الرتابة في الكينونة الوحدانية؛ وإذا كان هذا مطلب للإله – أن يخلق شيئاً ما ويضعه أمام عينيه، من أجل أن يكسر رتابة الكينونة الوحدانية، فمن الطبيعي أن يشعر بنفس الحاجة إلى ذلك كل كائن بشري. ولكن، إلى أين يقودنا هذا السعي؟ إلى الكمال المطلق؛ لأن الإنسان بحد ذاته كائن محدود، مهما بلغ من جبروت، عظمة، حكمة وثقافة، ولكي يصبح أكبر – عليه أن يتحول إلى شخص آخر.

الزواج هو الخطوة الأولى نحو التحول إلى شخص آخر. إذا كان الشخص من قبل يفكر بالحصول على المتعة، الراحة والسعادة في الحياة وأن يستمتع بكل ذلك، بعد الزواج يتحول اهتمامه لينصب بالدرجة الأولى على زوجة، على تأمين سلامتها وهنائها، لأنه لم يعد يستطعم الحياة من دونها.

عندما يمتلك الإنسان هذه النظرة إلى الحياة، فإن وعيه يتغير – يصبح مترفعاً، يتوسع ويصبح مصدراً لكل أنواع المكاشفة والبركة. لماذا؟ لأنه بفضل هذا التوسع والانتشار، تتيقظ في الإنسان روح الله، إذ يزيل ما يقف حاجزاً بين " أناه" المحدودة وبين " أناه" غير المحدودة، وبالتدريج يرفعها إلى المستوى، الذي يدرك عنده الإنسان ذاك، الذي يشكل المنطلق والغاية بالنسبة له، الذي يمثل جوهر كينونته. قال الرومي: لا فرق إنْ أحببتَ أنتَ إنساناً أو الإله، لكن إذا أحببتَ كفاية، فإنك في نهاية المطاف ستجد نفسك وجها لوجه مع أعلى درجات الحب".

هكذا، من وجهة النظر الروحية إن الزواج هو خطوة إلى الأمام على طريق الكمال – على الطريق، التي تقود الإنسان إلى تحقيق الهدف الأسمى من الوجود.

ولادة عهد جديد

من الواضح تماماً، أن العهد الجديد لا يمكن أن يكون أسوأ، لأنه طالما أن الأسوأ قد حصل ووقع، فلا يبقى ما هو أكثر سوءاً. الحالة الأسوأ تختم السلسلة، وبالتالي فإن بداية حقبة جديدة ستكون أفضل بالتأكيد. بعد إلقاء نظرة متفحصة على الماضي ومع الانقياد للشعور الحقيقي بالعدل، إننا نجد كيف، أن الشخصيات، المجتمعات، الأمم والأعراق في كل العالم قد سارت من السيئ نحو الأسوأ على طريق الأنانية. ليست هناك في العالم ديانة لم يثُرْ اتباعها في وجه قادتهم السابقين. فالدين يفقد الحقيقة بالتدريج، التي يبقى منها الاسم فقط. لذلك نحن لا نستطيع البقاء أكثر في جهل من آثامنا الماضية.

عند تدقيقنا في التناقضات العرقية، نلاحظ أنه مع تقدم الحضارة تزداد باستمرار كراهية أحد الأعراق تجاه الآخر. إن المواقف المسبقة على أساس لون الجلد، التناقضات الطبقية، المجابهة بين الشرق والغرب، سيطرة جنس على آخر — كل هذا ما زال قائماً بل ويتعمق باستمرار.

كيفما تطلعنا إلى ازدهار التجارة، التقدم الكبير في التعليم، الفنون والعلوم — سوف نلاحظ في كل شيء نزع الصبغة الأخلاقية عن العالم، الذي تخلى عن مُثُلِ الصداقة وعلاقات القربى. مع تطور التعليم خسرنا المعرفة المرتبطة بالغاية من وجود الروح — الشيء الوحيد الهام في الدنيا. فالتعليم الحالي ينمّي عند الفرد نزعة الأنانية بالقدر الممكن والإمكانيات المتوفرة لديه، ويعلمه انتزاع ما هو الأثمن والأفضل عند الآخرين. الفن فقد حرية الكياسة والجمال، لأن التقدير والمكافأة عليه صارت مرتبطة بالتشجيع من قبل العمى والبلادة

الروحية. أما العلوم فقد تشوهت لسبب واحد هو، أن الباحث حصر اهتمامه في العالم المادي وصار ينفي وجود الحياة ما وراء المشاعر. ومع غياب المثال العلوي، فإن الصراع المستمر من أجل الخيرات المادية، قد أوصلت الإنسان إلى اختراع أدوات ووسائط قادرة على تدمير العالم كله. إن أولئك، الذين يخضعون لتأثير سحر التدمير، لا يدركون كل هذا؛ هم لا يستطيعون معرفة ذلك، ما لم تنقشع سحب العتمة، ما لم تتطهر قلوبهم، وما لم تتحرر عقولهم من الإنتشاء بنفسها، هذا الإنتشاء الذي يمنعهم من التفكير والإدراك.

في العصر المقبل إن الأعراق والشعوب ستختلط مع بعضها أكثر وأكثر وسوف تتحول في النهاية إلى عرق أممي(عولمي) . سوف تصبح الشعوب مفعمة بروح الديموقراطية، الذي سيقضي على جميع العناصر المحرضة لأمة ضد غيرها. في البداية ستنشأ اتحادات أممية، ومن ثم – الاتحاد العالمي لجميع الأمم، بحيث لن يضمر أي شعب العدوان تجاه شعب آخر، بل ستتعاون كل الشعوب في تناغم وبحرية في سبيل السلم الشامل.

سيكشف العلم الأسرار الخفية للحياة، والفن سيتبع بشكل وطيد الطبيعة والفطرة. سوف يصبح ممكناً أن يُشاهَد أفراد من مختلف الطبقات في كل مكان. سيتم التخلي عن التنظيم الطائفي، ستتخلى التجمعات عن عزلتها، ستختلط ببعضها، وسوف يتعايش أتباعها مع بعضهم البعض، سيتقبل الواحد الآخر. سيتمكن أنصار ديانة معينة من أداء الصلاة إلى جانب معتنقي ديانة أخرى، إلى أن تصبح الحقيقة الخالصة في النهاية ديناً للعالم كله، وإلى أن تختفي اختلافات الأديان المنفردة.

ستبلغ الثقافة ذروتها في دراسة الحياة البشرية، وعلى هذا الأساس سيتم اكتساب المعارف. ستصبح التجارة أكثر شمولية وستقوم على المصلحة العامة والمتبادلة. سيقف رأس المال والعمل جنباً إلى جنب في خندق واحد.

ستغيب الحاجة إلى الألقاب. المراسم والتشريفات ستكون مثيرة للانتباه. سيخرج من الاستخدام التعصب في المعتقدات. ستتحول الألقاب والاحتفاليات إلى مجرد ألعاب للتسلية. والنساء سيصبحن مع كل يوم أكثر تحرراً في جميع مجالات الحياة، وسوف تحتفظ المتزوجات منهن بأسماء عائلاتهن. ستتم تسمية الأبناء والبنات بأسماء المدن، بأسماء القرى أو

القوميات حيث يعيشون، بدلاً من الأسماء العائلية. لن يعتبر أي وضع اجتماعي معيباً لصاحبه. كل واحد سيمارس العمل الذي يرغب به، وسوف يتعاطى الجميع مع بعضهم البعض، من دون أن ينتظروا ليقدمهم أحد إلى بعضهم. سيصبح الزوج والزوجة بمثابة شركاء مستقلين، وستكون لكل منهما حياته الخاصة. سيحصل الأطفال على إمكانية تحقيق ميولهم وهواياتهم. السيد والعبد سيكونان كل في موقعه فقط أثناء العمل، بينما الشعور بالتفوق أو بالخضوع سوف يختفي بين الناس. لن يكون الطب بحاجة للعمليات الجراحية، بل ستحلُّ العقاقير مشاكل العلاج بالكامل. سوف تظهر أساليب حياتية جديدة، وسيتغلب نمط العيش في الفنادق على العيش في البيوت الخاصة. العداوة تجاه الأقارب، عدم الرضى من الخدم، التحرش بالجيران – كل هذا سيتوقف، وسيتحسن العالم في جميع جوانب الحياة من يوم إلى يوم، إلى أن يأتي يوم القيامة، حين ستتوقف كل الأحاديث الباطلة وسوف يُسمع في كل مكان النداء: " السلام، السلام، السلام ! ".

الفهرس

تمهيد	٩
الجزء الأول	١٥
١- تاريخ المتصوفين	١٧
٢- التصوف	٢٣
٣- هدف المتصوف	٣١
٤- الدرجات المختلفة للتطور الروحي	٣٥
٥- النزعة النبوية	٣٩
٦- الرؤية	٤٧
٧- الإنضباط الذاتي	٥٣
٨- الرقابة الجسدية	٥٧
٩- الصحة	٦٣
١٠- الهارمونيا	٦٧
١١- التوازن	٧١
١٢- المكافحة والوداعة	٧٩
١٣- إنكار الذات	٨٥
١٤- الفرق بين الإرادة، السعي والرغبة	٩١

الجزء الثاني	٩٩
١- قانون الجاذبية	١٠١
٢- ثنائيات المتناقضات	١٠٩
٣- لا تقاوم الشر	١١٧
٤- الإدانة	١٢٣
٥- الإمتياز أن تكون إنساناً	١٢٧
٦- الجزء الإلهي والجزء البشري فينا	١٣٣
٧- الإنسان – بذرة الرب	١٣٩
٨- التطور	١٤٥
٩- دورة الروح في اوعية الطبيعة	١٤٩
١٠- المصير والإرادة الحرة	١٥٥
١١- الدافع الإلهي	١٦٥
١٢- قانون الحياة	١٧١
١٣- التظاهر، الجاذبية، المهارة والكمال	١٧٥
١٤- الكارما والتقمص	١٨٧
الجزء الثالث	١٩٩
١- حياة ما بعد الموت	٢٠١
٢- المعنى الروحاني للقيأمة	٢٠٧
٣- رمز الصليب	٢١١
٤- أورفيوس	٢١٩
٥- أسرار النوم	٢٢١
٦- الإدراك	٢٢٥
٧- الوجدان	٢٢٧

٨- موهبة الفصاحة	٢٣٣
٩- قوة الصمت	٢٣٧
١٠- القداسة	٢٤٣
١١- الأنا	٢٤٧
١٢- الحياة الباطنية للحياة	٢٤٩
١٣- الميكانيزم الحياتي	٢٥١
١٤- الوجه السعيد	٢٥٥
١٥- مفاتن الحياة	٢٥٩
١٦- التفاني	٢٦٣
١٧- النزعة المحافظة	٢٦٥
١٨- تكوين الطبع	٢٦٧
١٩- الإحترام والتواضع	٢٧١
٢٠- الرحمة	٢٧٣
٢١- المقدرة على التغاضي	٢٧٧
٢٢- المسالمة	٢٧٩
٢٣- التفاؤل والتشاؤم	٢٨٣
٢٤- السعادة	٢٨٧
٢٥- التلقيح والتطعيم	٢٩١
٢٦- عقد الزواج	٢٩٣
٢٧- ولادة عهد جديد	٢٩٥

المصادر

(التي اعتمد عليها المترجم خلال انتقائه للمصطلحات والحواشي) هي :

١- القاموس الموسوعي الروسي .

٢- قاموس المصطلحات الصوفية . حضرة عنايت خان .

٣- الكتاب المقدس - العهد الجديد .

٤- الصلة بين التصوف والتشيع د . كامل مصطفى السيبي . صادر عام ١٩٨٢ عن دار الاندلس . بيروت .

٥- الانترنيت .

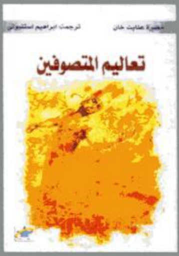

تعاليم المتصوفين

كتاب في سطور

ترجمة الدكتور إبراهيم استنبولي لكتاب (تعاليم المتصوفين) للمتصوف الكبيرحضرة عنايت خان، ندخل من خلاله إلى عالم المعرفة المتميز، عالم الأخويات... نتعرف على أسمائها، أعدادها، أصولها... والمراحل التي يمرون بها إلى أن يصلوا إلى العالم الروحي والحكمة.

الحكمة، وُجدت مُذ وُجد الإنسان الأول - آدم عليه السلام، ولم يدخر النوع البشري جهداً ساعياً بحماسٍ لاختطاف شهد الحكمة وكل ينهل منها حسب أفكاره واعتقاده.

من هؤلاء المتصوفين الذين اختاروا العزلة... حيث كانت الكلمة (وهذه الكلمة) كما النور المقصود بها الرسل العظام... موسى، زرادشت، بوذا، عيسى، محمد (ص)....

أبحر المترجم في عالم المتصوفين، وقدم لنا هذا النوع من الثقافة لكشف الغموض الذي يغلفها، موضحاً بأسلوبٍ سلس وعبارات رشيقة تناغم فيها الأدب الديني مع الواقع، بكل مافيه.

تأمل دار الفرقد أن تكون قد ساهمت أيضاً في نشر المعرفة المغايرة للقارىء الكريم إن توافقت أو اختلفت.

الناشر

علي مولا

تعاليم المتصوفين
عالم المعرفة
فلسفة 1
S.P300
1 3 3 1 3 9

دار الفرقد للطباع
سورية - دمشق ص
هاتف: 1 83 03
تلفاكس: 11 666 09 15